SAVA SIDELINE

جائزة كتوبيا للنشر

إيهاب شتا

هامش السافا

فريق متميزون
E-BOOK

كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

هامش السافا

رواية..

الكاتب: إيهاب شتا.

وحده الذي يسأل يحصل على الجواب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الهامش

٢٠٠٣

صباح آخر في مستشفى سراييفو من أيام الخريف الأولى، الشمس أشرقت ببعض الكسل مما انعكس على عمال الحديقة والمرضى الخارجين للتنزه فيها وحتى الداخلين للعلاج، فلم يُر أحد في الساعة السابعة في ما بين جدران المستشفى وأسوار الحديقة، غير أن امرأة عجوزًا كانت تتقدم بتؤدة مجتازة بوابة الدخول بعد أن ألقت سلاما على الحارس الشاب. عادة هو يستوقف الداخلين زوارا كانوا أو مرضى، أما هذه العجوز فقد حار فيها أمره وتساءل إذا كان من المهم حقا إرهاقها بأسئلة تحتاج جوابا وإبرازا للهوية، تركها إذن تمر وجلس قبل أن يتذكر تلك التنبيهات المشددة بالتدقيق في كل أحد في كل وقت، هل نسي أن الرئيس السابق يعالج بالداخل؟ قام واقفا ونظر ناحيتها، كانت خطوات السيدة طيبة ولا يعرف كيف يفسر الأمر. هل من الممكن للمرء أن يعرف إذا كان الشخص طيبا من خطواته؟

إن تلك السيدة تشبه جدته تمام الشبه، خطواتها حثيثة لكنها بطيئة وارتكازها على عكاز بدأ يؤخرها لا يقدمها، هل فعلا ينتظر خطرا من تلك العجوز؟ فلتقم القيامة إذن! أما السيدة فلم يخطر ببالها كل ما دار في ذهن ذلك الشاب ولا قيامه وجلوسه، ولم يكن عندها فسحة من ذهن كي تشغله بذلك، وقد انعقد ذهنها لما جاءت من أجله وقد أرهقها ذلك كما كانت ترهقها مفاصلها وعيناها، (إن للسن أحكاما) يقولها لها الجميع وهي أدرى بها منهم ولم يكن السن هو ما يرهقها حقا لكنه العمر، والفرق عندها كبير فلا قيمة للسنين دون إعمار والعمر يكون بسكان وحوادث. فأما السكان فهم أبطال قصة حياتها المقربون واحدا تلو آخر وأما الأحداث فهي سيناريو قصتها أو بمعنى أدق قصة أبطالها، إن ذلك السؤال الذي يلح عليها كلما أوت إلى مضجعها أو خرجت منه، أنه فيم كانت حياتها تلك؟ وترى هل كان من الإمكان أفضل مما كان؟ وهل كان من الممكن دوما تجنب المصير لكن نحن من نذهب إليه؟ ولو كان المصير يعتصر ألما فهل يمكن لذلك الرحيق صنع العسل؟

ذلك السؤال هو ما يرهقها وهو ما منت نفسها دوما أنها ستحصل له على إجابة، وربما تفعل اليوم، عبرت الحديقة بعد أن تعرفت على أزهارها واحدة تلو الأخرى لكنها لم تتعرف بعد ذلك على شيء، فالطرقات الباردة للمستشفى ذات الإضاءة الخافتة ناقض تصنعها الطبيعة في الخارج، وهي لم تحب مثل الطبيعة صنع الله ولم تكره مثل الأحجار المتراصة صنع البشر. مشت في طرقات متشابهة تقابلها شابات جميلات يلبسن الأبيض تنظر لهن بود وينظرن لها بين حذر واستغراب، في نهاية ممر أخيرا قد رأت رجلا... رجل لو لم تخنها عيناها يلبس الأسود أو يتلبسه الأسود، من شعره فاحم السواد مرورا بنظارته السوداء فبذلته فبنطاله حتى أخمص قدميه المنتعلين بحذاء أسود لامع، اقترب منها مسرعا... لم تتبدل ملامحها ولا اختلفت نظرتها، كانت ملامحها مريحة بشكل مدهش، رغم التجاعيد هنا وهناك إلا أن سمة انبساط في الجبهة والخدود كأنها أسهل مبسوطة، هذه امرأة كانت جميلة للغاية، هكذا تقول ملامحها أما عيناها فتقول أنها امرأة شديدة الحساسية، ثمة دموع تغطيها بشكل دائم كأنها جاهزة للنزول أو كأنها مستقرة هنالك. وحين التقت العيون رفع الرجل يديه أمامه قائلا:

"على رسلك سيدتي"

توقفت وقالت:

"لماذا؟"

"هذا جناح خاص"

ابتسمت وقالت:

"أليس هنا علي عزت بيجوفيتش؟"

"سيدتي لا يهمك من هنا، فقط أخبرك أنه ليس عليك الاقتراب"

"أنا أريد زيارته!"

تردد للحظة بأي جواب يجيب، أن ذلك ليس موعد الزيارة، أم أن الزيارة ليس هو المخول بالقبول بها! أم أنه أبسط الأمور لا بد أن الرئيس السابق نائم الآن، أخيرا قال بشكل ودي:

"يا أمي أنا هنا فقط لأمنع الدخول. لا تطلبي مني أن أقوم بإدخالك"

ظلت نظراتها تشي بالإصرار فأردف:

"يمكنك أن تجلسي هناك. لن أمانع"

أشار لكراسٍ قريبة في طرقة خاوية لكنها أشارت بحزم:

"بني، أنا لن أجلس إلا في غرفة المريض"

وقبل أن يرد تحركت محاولة تجاوزه، أغلق عليها الطريق فدفعته بعكازها، لم يدر ماذا يفعل، لو دفعها لسقطت أرضا...

"سيدتي توقفي أرجوك"

تكمل طريقها وهو يحاول إيقافها.

"ستلحقين الأذى بنفسك"

"يا بني أنت لا تفهم، ما أطلبه هو فقط أن تأخذ الأمر من صاحبه، سأنتظرك هنا وأذهب، وعد بإذنه".

"لا أستطيع"

بقي الوضع على ما هو عليه لدقائق، واقفا سادا الباب وهي متكئة على عكازها تنظر إلى الأرض، صمت مضى وكاد أن يقول شيئا لولا ممرضة اسمها فاطمة كان قد تعرف عليها، إنها ممرضة الرئيس. جاءت مقتربة، نظرت إليه وللعجوز، أدهشها الوضع للحظات. بدا على عينيها الأمر وليس لسانها الذي قال باعتيادية:

"السيد علي استيقظ وأطلق الجرس، الفطور سيأتي من خلفي وأنا سأقيس العلامات الحيوية".

بيد أمسك بعكاز العجوز التي نظرت له شزرا وباليد الأخرى فتح الباب فدخلت الممرضة:

"يا لك من عاق!"

قالتها العجوز فسكت ولم يرد، دخل الفطور وبعد دقائق خرجت الممرضة وهي تقول بعدم اكتراث:

"إن السيد يطلب لقاء السيدة"

بدا عدم الفهم على كليهما، الحارس والعجوز، لكنه استعاد وعيه بشكل أسرع مستفهما فردت الممرضة:

"لقد سأل عن الأحوال وسأل عن الجلبة بالخارج فأخبرته فقال لي ما قلته لك"

انصرفت قبل أن يطيل السؤال بينما فتح الباب بشكل تلقائي ولم ينبس ببنس شفة ودخلت السيدة تقول:

"لقد شعر بي، أعلم ذلك!"

ومضت في طريقها نحو باب الجناح ففتحته ودخلت بعد جهد، استجمعت أنفاسها ووقفت ثم نظرت في أرجاء الغرفة أولا قبل أن تنظر لذلك الوجه المشرئب من السرير الطبي بجوار النافذة، كانت الشمس تلقي بضوئها عليه، يده المرتعشة تمسك بقطعة خبز بينما عيناه العجوزان تنظران باهتمام، أحست برجفة، إنه هو... لم تره رأي العين منذ عشرات السنوات. رأته كثيرا في التلفاز وقد هرم لكنها ظنت ذلك خاصا بالشاشات والكاميرات، ظلت تتأمله من بعيد وقد نسيت افتتاح كلامها وقد تاهت في دوامة من الكلمات والشخصيات والأحداث، عقلها العجوز يعمل فوق طاقته لكن قلبها عاد شابا في لحظات، ولم تنتبه إلا حين قال لها:

"يمكنك أن تتقدمي يا سيدتي ولتجلسي ها هنا على ذلك الكرسي، إن شمس الخريف مفيدة لمثلينا. ألسنا كذلك في خريف العمر؟"

ظلت كما هي، حاولت أن تحرك قدميها فلم تطاوعاها وحاولت أن تحرك لسانها فلم يستجب لكنه أردف مستدركا:

"اعذريني على وقاحتي، بالطبع لو كنت أنا في الخريف فأنت في الربيع، في الحقيقة لا توجد امرأة في الخريف،كلهن شابات!".

ضحك فخرجت ضحكته مصحوبة بحشرجة بينما هي لم تلتفت إلى قوله ولعلها لم تفهمه، لكنها ابتسمت... أما هو فكان يتأملها بدوره، هل رآها من قبل؟! لقد رأى من البشر ما رأى وعجائز البوسنة ربما رآهن واحدة تلو واحدة، فكيف يمكن أن يميز هذا الوجه! لكنه ظل وجها مميزا، وجها جميلا بريئا، كيف يمكن للمرء أن يكون بريئا بعد أن يحيا كل تلك الأعوام؟! لعله لذلك كان مختلفا، كانت قد اقتربت من الكرسي فجلست عليه وأسندت عكازها إلى منضدة مجاورة وقالت وهي تتأمل وجهه في الشمس أو تتأمل الشمس في وجهه:

"أحب الاستيقاظ مبكرة لكني أخشى الشمس. أحب نورها وأخشى نارها"

"إنهما وجهان لشيء واحد كدأب كل الأمور في تلك الحياة"

ابتسمت هازة رأسها وقالت:

"وكأنني أسمع تلك الكلمات للمرة الثانية من شخص ثان"

ابتسم وقال بصوت رخيم:

"وترى من هو الشخص الأول؟"

"سأخبرك، سأقول لك كل شيء ولكن أخبرني أنت أيضا كل شيء"

ضحك وقال:

"إن مثلي لا يحتاج أن يخبر أحدا بشيء، كلهم يعرفون عني كل شيء"

"قد لا يعرفون ما أعرف"

"هل تعلمين عني الكثير يا سيدتي؟"

"بالطبع. فقط أتمنى ألا تكون أنت من نسيت"

سكت لبرهة وقال:

"من أنت؟"

"أديلسا!"

انطلق خياله كعصفور يلاحقه ناظره ولا يقبض عليه، أو كقطار وقف في محطات لكن لم يركبه أحد، أديلسا! يا له من اسم جميل... سمعه عدة مرات ولكن لا يذكر جيدا أنه يعرف أحدا يحمله، هل يخبرها؟! هل تُصدَم بذلك؟ لكنها كانت من تكلم وقالت:

"إذن، ألا تذكر، أدمير؟"

تلاقا حاجباه للحظة وقال:

"أدمير... أدمير من؟"

"أخُ دراجان!"

ومضات سريعة تضيء في أطراف العقل بقي أن تلتمس فتتصل الكهرباء، قال متلهفا وقد تحرك جسده على السرير عدة سنتيمترات..

"سيدتي أنت تتحدثين عن زمان غابر. أليس كذلك؟"

"هل نسيت حقا؟"

هز رأسه وقال بلهفة:

"أنا أيضا أريد أن أتذكر، فقط أخبريني المزيد... أخبريني!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أديلسا

١٩٤٥

قمت مسرعة من النوم أطمئن على أزهاري، كابوس مريع قد راودني أثناء النوم وكعادة الكوابيس بدا كحقيقة لا مراء فيها. لقد أتت تلك السحابة العملاقة وأخذ البرق يبتسم خلالها في شر، بينما صوت يلاحقه كوحش آخر بلا جسم، إنه الرعد... في الفيلم الذي رأيته قبل الحرب في المسرح الوطني كان الوحش رفيقا بالفتاة التي وقعت في أسره بينما دافع عنها ودافعت عنه، لقد كان حبا غير متكافئ. نعم غير متساوٍ... نعم، لكنه ظل حبا، ظل يحمل تلك المشاعر السعيدة المرافقة له حين يحل ضيفا على القلوب والعيون، كان اسم الوحش مركبا كذلك (كينج كونج)، أما وحشي أنا سأسميه (برق رعد) لكنه لم يبد رفيقا كسلفه حين وقفت أنظر إليه حافية القدمين في شرفة الغرفة تلفحني نسمات باردة للغاية لكنها لا تحرك ثوبي الهفهاف، لقد التصق علي بفعل المطر وشعري الطويل التصق به بينما التصقت أنا بالحائط من خلفي متجمدة وكأنني تمثال منبثق منه، لماذا لم أهرب من هول تلك العاصفة!

لا أدري، لماذا لم أخرج من باب الشرفة المجاور؟! لا أعرف، إنها عادة الكوابيس حيث الأحداث تحدث لك لكنك لا تستطيع أن تتدخل فيها،كانت الأزهار في الشرفة المجاورة وهي شرفة المنزل الكبيرة خائفة هي الأخرى، منكمشة وذابلة، لكنها تتحمل وستعيش. أنا أعرف أزهاري جيدا... لكن هذا لم يرق للوحش في السماء، لقد ظل يحاول أن تموت الأزهار بفعل الأمطار والرياح فلم تفعل لذا فقد مد لسانه لسان من البرق ليحرقها، لقد بدأ بالأوركيد، لا...

"إنها لا زالت صغيرة، إن زهرتها لم تتفتح إلا بالأمس، أنت تقتل طفلة"

صرخت بتلك الكلمات لكنه لم يهتم وبدا مستعدا للمزيد، شجرة الليلك المتوارية بدت لي وكأنها تتحرك هاربة لكنه رآها، لم أصرخ بها هذه المرة بل التصقت بالسور الصغير أنادي على ليلك بصوت منخفض...

"ليلك ارجعي لقد رآكِ، سيصعقك، تواري بسرعة"

لكنها لم تفعل، أؤمن في الواقع أن أزهاري تسمعني لكنها لا تتحرك، لكن هنا في الكابوس هي تتحرك ولا تسمعني، وحين التمع البرق في السماء مادا لسانه لم أستطع أن أنظر ثانية لشجرتي الحبيبة، لكن نظرت إلى باب الشرفة، لا بد أن أخرج وأذهب إلى الشرفة الأخرى لأحمي النباتات الباقية، وحين حاولت أن أفتح الباب لم ينفتح، بل لم يهتز. باب شرفتي حتى لو تم إغلاقه بإحكام فإنه يظل ينفتح مع الضغط المتواصل، لكن هذا الباب لا يفعل، مهلا... إنه ليس هو، هذا ليس باب شرفتي، هذه ليست شرفتي... أين أنا؟ التفتّ ثانية نحو الوحش، كان ينظر لي وعيناه تبرقان خلال السحب الواحدة تلو الأخرى، نظرت للشرفة الأخرى، لم أجد شيئا... أين نباتاتي؟ ألتصق بالباب أكثر لكنه يتحول إلى حائط، وحين أحاول أن ألتصق ثانية يبتلعني داخله بينما صوت الوحش في السماء يجعلني أرتجف، أتنفس بصعوبة، بصعوبة... وأخيرا استيقظت! قمت مسرعة حافية بثوب النوم إلى الصالة وقبل أن أتجه إلى شرفتها لمحت صورتي في المرآة، والتي بدت كأنني (فاي راي) الفارة من كينج كونج، لكن

حين فتحت الشرفة لم أجد وحشا بل سحابات قليلة بدت وكأنها تشكل ابتسامة وكان يهبط منها رذاذ كأنها رشاش عملاق يروي أزهار العالم وأنهاره ولم يكن يهمني سوى أزهاري ونهر ميلجاكا الذي يظهر من بعيد شاقا سراييفو، بينما بدت الشمس بأشعتها اللطيفة راضية وكأنها هي الآنسة الرقيقة التي تمسك بذلك الرشاش، ألتفت للأزهار من حولي ناظرة لكل على حدة قائلة:

"ها قد وجدتم من هو أفضل مني ليرعاكم"

ونظرت للرشاش الصغير في الجوار وقلت له:

"لن نحتاجك اليوم فيما يبدو"

بدا حزينا بائسا لذا طمأنته:

"لكني سأملؤك بالماء، لا تخف!"

كانت الأزهار كلها متفتحة وزادت نضارة زهرة الأوركيد التي احتفلت بيوم مولدها منذ يومين، تحسست أوراقها الناعمة بيدي بينما تحسست أوراقها خدي حين انحنيت لها، صديقة جديدة. وحتى لا تغار صديقاتي الأخريات انحنيت عليهن ولكن التوليب الأحمر والأبيض كانا متعانقين ففرقت بينهما، قائلة:

"ألا تخجلان!"

وبينما أنا أفرك كفي بقطيرات المطر، إذا بناتاسكا تناديني من الداخل وحين التفت وجدتها تنفخ، وقالت:

"ماذا دهاك أنت أيضا؟ ماذا تفعلين في هذا الصباح الباكر، لم تستيقظي قط هكذا في أيام الدراسة"

"كابوس يا أمي، كابوس لكنه الربيع!"

لم تفهم أمي فيما يبدو ما قلت واختفت عن ناظري دون رد، عذرتها فأنا نفسي لم أفهم ما قلت. كيف هو كابوس وهو الربيع! لكن أليس الكابوس كان ملخصه هو انعدام الربيع؟ وأليس الربيع كان نهاية الكابوس؟ أليس هذا هو الخير والشر؟ أليست هذه هي معضلة العالم؟ هل لاحظ أحدهم يوما أنه ليس هناك من وسط وأن ما يحدث لنا أو حولنا هو إما خير إما شر سواء علمنا هذا على الفور أو بعد حين، لا وسط هنالك ولا انفصال. قادني تفكيري أنه من الشر أن أترك أمي وحدها بالداخل متضايقة، وكانت أمي سريعة الغضب دوما وانفعالاتها بادية للعيان لا تخفيها ولا تحاول، أمي امرأة جريئة عالية الصوت لا تخشى شيئا ولا أحدا. وهذا ينبع من طيبتها لا من خبثه، لا ترى غضاضة في ذلك وتقول إن هذه سجيتها ليس لأحد أن يتضايق منها، لكنها كانت تزعجني... تقول إني شابهت أبي في خفوته ورقته، وهي ترى الرقة عيبا لا أعرف كيف! بل هي لا تراها حتى في أوراق زهوري التي أربيها وأعتني بها أو في مياه النهر القريب الذي اختار أبي موضع بيتنا بناءً على القرب منه. تذكرت ذلك وأنا أتحسس خطواتي في الداخل الذي بدا مظلما مقارنة بنور الشمس الذي أتيت منه، وقد انقلبت رائحة أزهار الشرفة إلى رائحة طعام الإفطار المعد على نار الفرن، اقتربت منها وقلت:

"ماذا تعدين يا أمي؟"

لم ترد.

"هل أسوي لك الخبز؟"

أشارت برأسها.

أمسكت بالعجين وحاولت أن لا تتساقط أطرافه مني وأنا أضعه على اللوح الخشبي، بدت مهمة صعبة، أخذت مني أكثر من دقيقتين قبل أن أزج بالعجين أخيرا فوق اللهب، إذن كيف تصنع أمي لكل منا رغيفين يوميا في دقائق معدودة؟ أخذت العجينة الثانية صانعة منها رغيفا أصغر قليلا فاستطعت أن أتملكه جيدا وزججت به بسرعة جوار شقيقه الأكبر حجما وسنا، سألت أمي:

"ماذا كان يغضبك؟"

"لا شيء"

"أخبريني يا أماه!"

تنهدت واستندت على حافة منضدة وهي ممسكة بسكين مقطعة لبعض حبات الطماطم:

"إنه أخوك، لقد حزنت لأجله كما لم أحزن قط، والآن هو من يتسبب بحزني وضجري"

"اعذريه يا أماه، يقولون أن الأمراض العضوية للإنسان تؤثر على حالته النفسية فما بالك بمن فقد بعض أعضاء جسمه؟ إذن قد يفقد جزءا من عقله!"

"أعرف أن المجانين يسبون الناس الغرباء لكن لا يسبون أمهاتهم"

"هل سبّك هذا المجنون؟"

"بل دفعني بيده كذلك!"

يا للقسوة! من إنسان يستحق الشفقة، أخي الذي أصاب رجليه العجز جراء مشاركته في الحرب،كانت أخلاق أخي من قبل حدوث هذا الأمر الشنيع متدهورة بالفعل، لكنه بعد الإصابة صارت لا أخلاق له، لم أره يلقي تحية. لم أره يبتسم ولم أره يتكلم دون بذاءة. صار لا يطاق حتى من أمه رغم أنه كان المفضل لديها، كان ينتظر أي شيء لينفجر في الجميع ويتركهم منصرفا ولو كان السبب قطعة من خبز في طبقه قد احترقت، مهلا، لقد احترق كلا الرغيفين! حتى أمي لم تنتبه، أسرعت ألتقفهما لكن أصابعي احترقت فأطلقت صرخة صغيرة فانتبهت أمي ناظرة للخبز المحترق ويدي المحمرة والتي سارعت بوضعها في الماء، تركت ما بيديها ودفعتني إلى الخارج وبمهارة أخرجت الرغيفين بينما أنا أنفخ في يدي وحين نظرت لي شزرا انطلقت مبتعدة قبل أن تقول لي جملتها المعتادة:

"لا أريد أن أراك الآن!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان دراجان طويل البدن والوجه نحيف البدن والوجه كذلك، شعره الأسود منتصب دائما لكنه قابل للتمشيط، ولقد تفنن في ذلك قبل أن يصيبه ما أصابه، كان ينتمي بوضوح للفرع الصربي في الأسرة، أمي وما فوقها، كان مثيرا للمتاعب يبحث عنها دون كلل وحين يخرج يوما أو يعود دون أن نشعر بفعل له أو قول كان ذلك يدعو للدهشة، كانت مشاكله في البداية صبيانية لكنها انتهت بعقيدة شيوعية تجمعه برابطة من المشاغبين طلابا وأساتذة. لقد وجد نفسه فيها حقا، لكن الحرب وجدته بعد ذلك، أما أنا فقد وجدته في الصالة المظلمة على كرسيه المتحرك بجوار الأريكة العثمانية وذلك حين خرجت من المطبخ تتوقد أصابعي من وهج نيران الفرن، توقفت للحظة أتبينه دون كلام ثم ألقيت التحية.

"صباح الورود دراجان"

لم يرد لكنه ظل ينظر بثبات حتى ضاقت عيناه الضيقتان بالفعل، تحركت عدة خطوات متجهة نحو شرفة الصالة لكنه تكلم:

"لماذا كنت تصرخين؟"

نظرت لأصابعي وكأنه ذكرني وقد كانت في طريقها للتحسن:

"لقد احترقت أصابعي من الفرن، كنت في المطبخ و..."

"لا أتحدث عن ذلك"

قالها بجفاء قابلته بمثله:

"ماذا تقصد إذن؟"

"سمعتك تصرخين في غرفتك"

نظر لساعته وكأنه يحتسب المدة بدقة، فهو يتظاهر دائما بالضبط والربط وقال:

"منذ خمس وأربعين دقيقة"

"آه لقد كان كابوسا، لقد احترقت أزهاري، حرقها وحش من السماء، و..."

قاطعتني ضحكته مدوية حتى أن أمي قد أطلت برأسها من المطبخ تنظر ما هنالك، وبعد هنيهة أردف بسخرية:

"ما أطيب هذا الوحش! هل هذا جل ما يستطيع؟"

"من يقتل من لا ذنب له هو وحش"

"وهل لو قطفت أنا أزهارك تلك لصرت وحشا، إذن فلأفعل! هناك الكثير ممن أريد قتلهم!"

سمجا كعادته لم أتوقع منه غير ذلك لذا تركته ولم أرد وخرجت ثانية إلى الشرفة متناسية ومتجاهلة، كان المطر قد توقف وهبت بعض نسمات الهواء، أخذت أنظر إلى النهر اللامع مجراه تحت أشعة الشمس وأنا أربط خصلات شعري المتناثرة لكن الحركة خلف باب الشرفة جعلتني ألتفت، كان هو

يحاول العبور بكرسيه المتحرك، أسرعت وفتحت الباب على مصراعيه ثم أمسكت بقائمتي الكرسي أشده ناحيتي لكنه أزاح يدي وبدا أنه يبذل مجهودا مضاعفا ليجتاز عتبة باب الشرفة حتى اجتازها بالفعل، كان يتنفس بعمق وبدا هذا بديلا للتنفس السريع وما يظهره من تعب.

اقترب خطوتين ناحية شجرة الياسمين وتوقف كأنه يستنشق نسيمها وظل صامتا لفترة قضيتها أتأمله عن قرب، كان كعادته بثيابه الكاملة التي ينام بها أحيانا وأحيانا يخلعها وينام عاريا ثم يرتديها في الصباح بمساعدة أمي، يرتديها كأنه على أهبة الخروج رغم أنه لم يخرج قط منذ الإصابة التي أقعدته، لم أعرف تفسير ذلك. هل هو يمني نفسه بما لا يستطيع؟ هل هو يحاول أن يثبت لنفسه أنه جاهز للانطلاق وكأن تلك الإصابة أمر اختياري بيده؟ هل هي وجاهة دائمة تعوض ذل العجز؟ لا أدري، كان قد اقترب في تلك اللحظة من شجرة الأقحوان ومد يده فأسرعت نحوه أمنعه، ضحك بصوت عال وقال:

"ماذا؟ هل تظنين أني سأقطفها فعلا، أنا وحش لكني لا أقطف الأزهار!"

كان هذا حقيقيا؛ لم يقطف من قبل أزهارا بل من عادته حين يكون رائق البال أن يرويها، كان يفضل دائما الأزهار الحمراء على نظيرتها البيضاء، هذا اللون الأحمر الذي طالما اتخذه متعصبو العالم لونا لهم ولأعلامهم. بالنسبة لي هو الحب في أوجه حين تعلو موجة إلى قمتها، أما اللون الأبيض فهو الحب في هدوئه في المياه المنسابة تحت الجسر. أخرجني من خواطري قائلا:

"ألا تذكرين أني من وضع الأزهار هنا؟"

ابتسمت بحسرة.

"بلى أذكر، لكني كنت أريدها أن تكون في غرفتي"

ضرب السور بيده فأفزعني وقال:

"ليست ملكك وحدك"

"لكني أنا وحدي من اشتراها واعتنى بها وكبرت على يدي، أنا من أعرف عدد الزهور وعمرها بل وأسماءها لو أردت"

قهقه ثانية باستفزاز متكرر:

"الزهور من الطبيعة، هي ابنتها والطبيعة ككل ملك عام، كل ما حولنا ملكية عامة، لا يوجد ملك خاص لأحد إلا ربما أجسادنا وتلك أيضا قد نهبها للوطن"

لا يليق به كثيرا تلك اللهجة، لم يبد شيوعيا قط مهتما بأمر العامة رغم تظاهره الدائم بالأمر بل بدا أحيانا نازيا يظن تفوقه على غيره، قال مغيرا الموضوع:

"كان لي زميل في نفس الكتيبة معه وردة كتلك أهدتها له حبيبته"

سكت هنيهة ونظر بعيدا ربما للنهر أو ما هو أبعد، وفجأة ضغط بيده وعصر الوردة التي كان ممسكا بها، أطلقت شهقة.

"ماذا فعلت؟"

نظر بغيظ للوردة المحتضرة بين يديه... وانسحب بكرسيه نحو الباب ملقيا إليّ الوردة دون كلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (أدمير) مختلفا، ظننت بداية أن اختلافه لأنه لا يشبه أمي ودراجان، لكن من الواضح أنه لا يشبه أحدا في ذلك العالم باستثناء أبي الذي يقول عنه أنه مات متأثرا بجراحه، أبي لم يشارك في حرب قط ولم يصب لكن أدمير يتكلم عن جراحه النفسية من قسوة الناس والأحداث. كان أدمير أقرب الناس لأبي، ليس فقط من جهة الاسم فالفرق بين اسميهما مجرد حرف وليس فقط التشابه الشكلي العجيب بين اثنين ليسا أبا وابنا بل توأمين مختلفي السن، ربما كانت هذه أسبابا أو نتائجا لكن أدمير كان ابنه البكر الذي لاقى كل اهتمامه، حتى أنا الذي لم أع أبي إلا في السابعة. أذكر كيف كان تدليله لأدمير الذكر الابن أكثر مني الفتاة آخر عنقود الأبناء.كان يعد له العشاء حين يعود من متجره، هذا إذا لم يكن أدمير من الأصل معه، وكان يذهب معه إلى المدرسة، وحين كان موعد أدمير ليغادر إلى الجامعة في كرواتيا بكى كلاهما كما لو كانا قد ماتا ويرثيان بعضهما بعضا. وحين رحل أدمير باكيا كانت هذه بداية النهاية لأبي، فقد رافق ذلك أيضا بداية الحرب ومرضه الذي لم يشف منه، لم ألم أبي قط على اهتمامه المطرد بأخي وإلا للمت أخي على اهتمامه المطرد بي، نعم إن أدمير يعاملني كما كان يعامله أبي، فلم يجعله اهتمام أبي أنانيا أو متكبرا بل لقد صار أبا آخر، لكن هذا لم يشفع عند أمي ودراجان فأمي لامته وتلومه على هذه التفرقة بل وتلقي عليه إلى الآن سبب انحراف مزاج وأخلاق دراجان، فهي تقول إنه معقد بسبب إهمال أبيه له بينما تلقّى أخوه كل العناية. أظن أن هناك حقا في الأمر وهناك باطلا، الحق أن هذا قد يؤثر حقا في شخصية المرء أن يجد تمييزا ومن أقرب الناس إليه، أما الباطل أن أمي اتبعت نفس أسلوب أبي ولم يلمها أحد. بمعنى أنها اهتمت بابنها الأوسط وأهملت ابنها الأكبر، هل هذا جاء نتيجة لمعاملة أبي العكسية أم سببا لها؟ أدمير يفسر الأمر بالعكس، أنه لم يرق لها أن يكون ابنها لا يشبهها البتة وحين جاء دراجان وجدته كما تريد وأسمته كما تريد، صار ابنها الأثير وألقت اللوم على أبي كيف لم يؤثره هو أيضا، والحق أني كنت صغيرة ولا أستطيع أن أحكم أيهما على حق ولا أريد.

أنا أحب أسرتي كلها وهي تحبني، ولعل هذا فقط ما اتفقت عليه، اليوم يأتي أدمير من جامعته في زغرب، كان مجيئه غير منتظم دوما بفعل الحرب ومكوثه كذلك.. قد يتأخر هناك شهرين ويمكث هنا شهرا، انتظمت الأمور قليلا في الفترة الوسطى للحرب حيث السيطرة النازية التامة، لكن حين عادت القلاقل وتواترت أنباء تراجع ألمانيا وتسربت بعض عصابات الأستاشا للعمق في كرواتيا صارت السيطرة على الطرق صعبة وعاد عدم الانتظام هو الأساس، هذه المرة سيعود أخي وقد انسحب النازيون بالكامل، لكني أعرف أنه سيأتي لي بحلوى ألمانية أحبها وببعض المجلات الدورية وبعض القصص المصورة، على مدار ست سنوات أو يزيد لم ينس قط أن يأتي لي بهدية حين عودته حتى في أحلك الظروف، وأثناء الغارات كان يقول لي:

"إما أني نحس كي تبدأ دراستي مع بداية الحرب فطال كلاهما، وإما محظوظ، فقد منحني ذلك أوقاتا كثيرة أقضيها معكم"

كان يعود بعد الظهر عادة لكن ما لي أسمع صوته في الأسفل!

لقد جاء حقا، لم أتجهز لهذا قط، أسرعت لغرفتي سعيدة مضطربة في نفس الوقت تشغلني أسئلة متزاحمة، لماذا جاء باكرا؟ هل سيحتاج لفطور؟ ترى ما الذي أتى به لي تلك المرة؟ أين أمي... هل نام دراجان؟ هل أعقف شعري أم أتركه؟ يبدو أنه بالفعل لم يكن ثمة وقت فقد سمعت من يناديني مقطعا اسمي لمقطعين موسيقيين:

"أدييييي... لساااا"

فتحت الباب وانطلقت إلى حضن أخي دون حتى أن أراه، كان ما زال يلبس دثارا لكنني دسست ذراعي بينه وبين القميص لأتحسسه حقيقة ووضعت أذني على صدره فسمعت قلبه بينما هو ظل يربت على كتفي، يبدو أن دقيقة مرت قبل أن أشعر بالاطمئنان ودقيقة أخرى قبل أن أسحب رأسي وأنظر أخيرا إلى أدمير العائد، وجهه المستدير وعيناه البنيتان المليئتان بالحنان والحب متناقضة مع شارب يعطيه بعض القسوة بينما شعره البني الناعم ينساب من تحت الكاسكيت الذي يحب أن يلبسه. أدمير أبي. لا شك في هذا أو هكذا شعوري نحوه.

"أميرة سراييفو كيف حالك؟"

قالها وقد جلس وأجلسني جواره:

"كنت مغتمة قليلا قبل مجيئك"

"لكن سراييفو اليوم هادئة ومشرقة"

"ليلتي كانت مظلمة مخيفة"

اعتدل في جلسته وقطب حاجبيه:

"ماذا حدث؟"

"لا شيء مقلق، مجرد حلم سيء، جدا... إنه عن..."

"لا تحكه!"

وسكت هنيهة ثم قال:

"ألم أعلمك ماذا تقرئين؟ آية الكرسي"

كان أدمير متدينا وحين يكون متفرغا نادرا، كان يعلمني بضع أشياء في الإسلام سرعان ما أنساها، أحيانا أشعر أن أدمير هو المسلم الوحيد في هذه المدينة، ربما باستثناء سيدة فاضلة في الشارع المجاور فهي تختمر حين النزول إلى السوق، حاولت تغيير الموضوع.

"لماذا جئت مبكرا اليوم ولماذا لم تخبرنا في تيليجراف الأمس؟"

"لقد كان ذلك صدفة غريبة حقا فقد قمت مبكرا ولم ألحظ تغيرا، حتى أنني خرجت دون أن أنظر في الساعة وحين وصلت لمحطة القطار سيرا فهي قريبة من الجامعة وجدت القطار على أهبة الرحيل فظننت أني قد تأخرت، وإذا بي ألحق به أثناء سيره وحين نظرت للساعة وجدتها قبل موعد القطار بساعتين وحين نظرت للقطار ومن بداخله وجدت أن لا أحد أعرفه هنالك وأن معظم الجالسين كن طالبات جميلات في مثل سنك ذاهبات ربما إلى مدارسهن في الشرق، وحين نزلن في المحطة التالية وجلست بجانب أحد النوافذ وقرأت ساعة المحطة وجدت أن ساعتي صحيحة".

"لكن كيف لم تلحظ، هل نمت باكرا ليلة أمس؟"

"بل نمت متأخرا لذا شعرت بالنعاس فور علمي بأني قد استيقظت مبكرا ونمت في القطار عكس عادتي"

"ألم تتحدث مع تلكم الطالبات الجميلات؟"

قلتها بخبث ففطن وابتسم قائلا:

"لا أظن أن هناك كرواتية قد تكون جميلة كبوسنية صربية مثل أديلسا"

شد على يدي بينما أنا أتيه فخرا بما قال، مد يده في جيب بذلته الأيسر فأخرج حبات من الشوكولاتة بعضها ممزوج باللبن والآخر بالبندق، ومن الجيب الأيمن كانت تطل ورقات ملونة لمجلة أحبها ثم قام واقفا مادا يده في جيب بنطاله وأخرج يده مغلقة ثم فتحها قائلا:

"وتلك هي المفاجأة!"

كان صليبا معقوفا لامعا.

"إنه أصلي. وجدته على بذلة ملقاة في شوارع زغرب منذ أيام"

ولما بدا عدم الفهم علي قال معلقا:

"لا بد أنك تعرفين، إن هذا هو صليب النازية وغالبا هذا يمت لجندي ألماني قرر التخفي فألقى بثيابه العسكرية على قارعة الطريق"

"بالطبع أعرف لكن لا أفهم لماذا أتيت به إلي!"

قهقه وقال:

"هذا أثمن هدية قد أقدمها لأحد في تلك الأيام التاريخية، انتهت الحرب رسميا وهذا شيء من أثرها سيبقى لذكرياتك مع أحفادك ربما ذات يوم"

"ومالي أنا بحرب العالم؟"

"أنت جزء من ذلك العالم"

"لا يعجبني هذا العالم، ولي عالمي الخاص"

"كنت أتمنى لو كان هذا ممكنا، إذن لصنعت أنا كذلك لي عالمي"

"فلتفعل إذن!"

ضحك وقال:

"أنت لا تعلمين شيئا عن العالم الذي تتحدثين عنه، أنت نظرت إليه من الشرفة وسمعت عن الحرب بصوت الطائرات، لكنك لم تهبطي وتسافري وتخالطي، أنت تظنين أن العالم شرير لذا فلتتركيه لحاله فيدعك لحالك، لكن الحقيقة أن العالم أكثر شرا من ذلك لأنه حتى لو تركته لن يتركك. فلتغيريه أو فليغيرك".

ما فتئ أخي أن يخبرني بتلك الكلمات، بل ربما كان هذا شيئا نادرا أتفق فيه مع دراجان، يجب أن نغير العالم! لكن كيف هذا هو الاختلاف الكبير بينهما؟

أخيرا ظهرت أمي. قام أدمير فقبل يدها بينما هي مسحت رأسه بيدها الأخرى وسألته عن حاله، وفيما يثرثر مع تلك الحمقاء التي هي أنا، أخبرها أخي كلاما عاما فهو يعرف أنها لا تطيق الكلام الكثير أو الجدل، وسألته ماذا يريد أن يأكل على الغداء.

"شوربة الفطر اللذيذة من يدك يا ناتاسكا"

ثم التفت ناظرا حوله:

"بالمناسبة أين دراجان، هل نام ثانية كعادته بعد الفطور؟"

قالت أمي:

"لا تخف. هو يحب كذلك شوربة الفطر"

ابتسمنا وكأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يهم أمي وقد يهم الآخرين.

"أعرف. لذا اخترتها لكني كذلك أريد أن أسلم عليه قبل نومه، وقبل أن يجيء ضيف لي أريد أن أسأله عنه"

"من؟؟"

ظهر دراجان فجأة من لا مكان قائلا سؤاله، بينما اقترب منه أخي مقبلا رأسه سائلا عن أحواله لكنه كرر سؤاله:

"من تريد أن تسألني عنه؟"

ظهر بعض التردد على وجه أدمير وكأنه لم تعجبه لكنة أخي الهجومية تلك، لكنه اتجه جالسا على أقرب كرسي وقال:

"زميل لك سيزورنا اليوم، يدعى علي عزت بيجوفيتش!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن على الغداء زارنا ضيف آخر لم نحسب حسابه، لم يزرنا منذ وقت طويل، وربما منذ وفاة أبي لم يأت للغداء بل فقط في زيارات روتينية لعرض حساب المحل، كان فضل الله هو المسؤول عن محل أبي بعد وفاته بعد أن كان ساعده وعضده قبل الوفاة. وقد ظل وفيا لنا كما كان أبي وفيا له، وقد حكى لنا أبي حكايته دوما وأوصانا به خيرا فليس له في سراييفو غيرنا وقد كان ضيفا دائما لدينا على الغداء في حياة أبي وكان امتنانه ظاهرا لنا غير أن ودنا لم يكن كاملا: لقد كان شيخا أي عليه سمت المسلمين الشرقيين وزيهم وقد جعله ذلك موضع اهتمام من أبي وأدمير وموضع شك لدى أمي ودراجان، غير أن أمي لم تظهر ذلك وقد فطنت لأهميته وأهمية أمانته، في الحقيقة لولاه لسقط المحل مع سقوط أبي والمحل يعتبر رأس مال أسرتنا الوحيد، هذه المرة أتى بدعوة أدمير وجلس كعادته خافض الطرف لم يأكل حتى أكلنا.

قالت له أمي:

"بيتنا مفتوح في أي وقت بدون دعوة يا فضل"

ورغم أن تلك كلمات مجاملة ليس إلا ولا تعبر عن رغبتها الحقيقية إلا أن دراجان انطلق بسخافته كالعادة:

"لكنه بالطبع يجب أن يأتي بعد دعوة!"

لم يطق أدمير قول أخيه فقال:

"إذن لماذا لم تدعه أنت ولو لمرة؟"

تبادل دراجان مع أخيه الشزر بينما عم الصمت أما فضل الله فقد تباطأت حركة مضغه ولم يمد يده للمائدة ثانية، مددت أنا يدي إليه بقطعة من لحم وقلت:

"إنها لذيذة يا فضل الله".

أخذها مني دون أن ينظر إليّ لكني لمحت بسمته لأول مرة، لم أكن أدري في أي حزب أنا، هل أنا أرحب به كأدمير وأبي أم لا أرتاح له كدراجان وأمي، أم أني كالعادة عامل التوازن بين كلا الجبهتين. وحين انتهى الغداء استأذن فضل الله في الانصراف وشكر أمي وأدمير والتفت إلي وتلاقت أعيننا وشكرني! لم يفعلها من قبل حياءً حتى أني لأول مرة ألاحظ عينيه الملونتين.

ثلاث حكايات

ناتاسكا

لا زالت تذكر الماضي كأنه الحاضر وكأن كل تلك السنوات لا تكفي لتحول الذاكرة الصلبة إلى سائلة، لطالما كانت صلبة العقل والقلب، الجميع يتهمها بصعوبة الإقناع وتحجر المشاعر لكنهم لا يعرفون أنه حين تساهلت مرة في إرادتها وتم التأثير على عاطفتها فقد خدعت. تعتبر أن ما حل بها هو عقاب جنائي لمتهم مظلوم، هناك الشهود الزور والقاضي السوء والعقاب كان النفي من بانيالوكا والسجن في سراييفو، أوه يا بانيالوكا الجميلة، يا ذات الأنهار الأربعة، والجنات المعروشات... يا ذات الكنائس الشامخة والآباء الطيبين... وها هي ذي تسمع جرس الكنيسة يدق منذ خمسة وعشرين عاما، وبعد أن كان هذا الصوت مزعجا لها تتعمد أن تبدي الضجر منه فهي تبتسم منه الآن متحسرة، كانت الكنيسة على الناحية الأخرى من الشارع أحد أكبر كنائس الصرب الأرثوذكس في الضاحية الغربية. تذكر أنها كانت جميلة الرسوم من الداخل فكانت تتلفت تنظر إليها حتى أثناء الصلاة التي كانت تذهب نادرا إليها مع أبيها أما من الخارج فكانت بسيطة تماما كأنها مدرسة أو حتى مسجد. وكان لها سور حديدي تطل منه أوراق الشجر، وكان يعجبها هذا وكانت تتمنى أن يكون لبيتها سور كذلك بدلا من السور الخشبي القصير الذي تهاوت بعض جوانبه وبهت دهانه فلا صار خشبا ولا صار ملونا، كانت تقول لأمها:

"لماذا ليس لبيتنا سور؟"

فتبتسم متحسرة وتقول:

"صلّي يا ابنتي لكي يبقى لنا بيت ولو بلا سور، فهذا خير من سور سيرموننا خلفه دون بيت"

في طفولتها كانت الأمور أفضل كثيرا أما في مراهقتها فبدأت تسوء للغاية، وتظن أن هذا كله متعلق بأبيها، لم تره سوى سبعة عشر عاما من عمرها وخلالها أيضا لم تره إلا لماما. لكنه في طفولتها كان وسيما أنيقا مهندما دوما لا يفارق المشط جيب معطفه، وكان يقبّلها حين يعود من عمله متأخرا دوما ويقبل أمها ويطلب غداءه من اللحم الممزوج بماء الثوم ويشرب كأسا واحدا من زجاجة نبيذ فاخر تذكر أنها كانت تظل لعدة شهور، وكان أبوها يحبها حبا جما ويفخر بها، وحين يجلب واحدة جديدة يظهر عليه البشر وهو يتأبطها كأنها حبيبته، لكن خلال سنوات قليلة بدأ التحول. لم تكن تعلم لماذا لكنها الآن ربطت الأمر بتلك الحرب التي انطلقت شرارتها من مدينة سراييفو التعسة عام ١٩١٤ بعد أن قتل أحد الصرب ولي عهد النمسا فهاج العالم شرقا وغربا. كان شديد القلق وقتها ولا تعلم هل بسبب الحرب أم أن الأمر كله يتعلق بعمله التجاري الذي تأثر لا ريب بما يجري، في البداية كان الأمر متقلبا، فأيام كان فيها يزداد نشاطا وبشرا بل ودخلا وأيام أخرى يكون متهجما ناسيا تصفيف شعره الثائر، يعود باكرا ثم يخرج ثانية أو لا يخرج من الأساس لا في الصباح ولا في المساء. لكن كل هذا لا يقارن بالسنتين الأخيرتين في حياته. لقد تبدل الحال تماما، لا عمل هنالك، ولا دخل. كان غذاؤهم حبوبا وفقط أو خضروات في بعض مواسمها وكانت الأم من تخرج لتأتي بها، أما هو فلم تكن تراه، في البداية كان يسهر في الخارج حتى الصباح ثم صار يأتي بأصحابه إلى المنزل

فيسهرون فيه كذلك حتى الصباح، تذكر كلمات أمها التي تقولها دون أن تنظر لها وكأنها لا تكلمها إنما تحدث نفسها:

"صار لا يجد ما يشتري به نبيذه الرخيص فصار يأتي بهم كي يأتوا بخمرهم، لقد تحول بيتنا إلى وكر!"

تذكر أنه لم يشغلها ساعتها إلا أمر ذلك النبيذ الرخيص، هل تقصد النبيذ الذي كان أبوها يشربه من قبل أم أن أباها حين تدهور به الحال تدهور به الاختيار؟ كانت على أعتاب المراهقة تبحث عن إثارة، فظلت ذات مرة مستيقظة حتى رحل أصدقاء أبيها وخلد هو إلى النوم وتسللت لغرفة الضيوف، كادت رئتاها أن تخرجا من فرط السعال إثر بقايا دخان الليلة وحمدت الرب أنها لم تأكل شيئا ليلة أمس وإلا لقاءته من فرط اشمئزازها من رائحة المكان، على الطاولةكانت أوراق اللعب والزجاجات الفارغة، تقدمت وهي تغلق أنفها بإصبعين من يدها اليسرى وحملت إحدى الزجاجات باليمنى تتأملها، كانت شبيهة بزجاجة أبيها الفاخرة، لم تستطع التمييز... وحين لمحت بقايا في إحدى الزجاجات هنالك مدت يدها وقررت أن تشرب لها كأسا أو نصف كأس كي تتأكد، فهي تعلم طعم نبيذ أبيها الفاخر جيدا. وحين صبت عدة قطرات على طرف لسانها وما كادت أن تعبر حلقها حتى سقطت أرضا متقيئة عصارتها الهضمية، لكن الطعم الحمضي البشع وتقلصات بطنها وسقوطها أرضا لم يكن ما أزعجها قدر معرفتها أخيرا أن أباها هو من سقط للأبد، ولن يقوم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيتهم كان بداية لحي جديد أنشئ بعد حصول النمسا على البوسنة من العثمانيين، فكان يمينه سلسلة من البيوت المتشابهة على الطراز الأوروبي سرعان ما تنتهي بانعطاف مع نهر نيفا، أما النهر وما بعده فغابات لم تذهب إليها قط مع الذاهبين لكنها ذهبت إلى النهر مرارا وحدها أو مع أمها أو جارتها ورأت الناس وخاصة العاشقين يركبون القوارب عابرين للناحية الأخرى. كانت تتساءل بسذاجة ترى ماذا يفعلون هنالك؟ لكن جارتها مارلين كانت تضحك بخبث وتقول:

"آاه، يجلسون تحت الشجر ويلتحفون بأوراقها"

"ولماذا لا يجلسون هنا على النهر على تلك الأرائك الخشبية أو فليجلسوا عند المصب القريب حيث المنظر الرائع والهواء العليل".

تضحك مارلين وتقول:

"يا لك من ساذجة! وهل يمكن أن يستحم المرء في النهر أم يحتاج إلى ستر؟"

"أقول يجلسون على النهر. لا يستحمون فيه"

"تلك كناية يا بلهاء!"

لم تفهم صريحها فهل تفهم كنايتها؟ كانت على أعتاب المراهقة تطرقها لكنها لم تدخل بعد ولما دخلت تزامنا مع سوء حال أبيها وحالتها الاقتصادية لم تلاحظ جيدا كم صارت فاتنة كما قالت لها مارلين التي سبقتها في البلوغ، فجأة تحولت من طفلة بضفيرة إلى شابة متحررة، تذكر ذلك بحسرة بعد ٢٥

عاما أو يزيد، فقد تحولت ثانية من شابة متحررة لكهل مقيدة، لكنها عاشت التحول الأخير لحظة بلحظة بينما لم تشعر بالتحول الأول قط. لم تقف قط في المرآة لتنظر لنهديها أو لتتلمس ردفيها ولم تجرب ثيابا جديدة أو مساحيق عصرية، كانت بائسة وفقيرة. ورغم أن هذا كان كفيلا أن تكون منفرة لكن على العكس، لقد جعلها مطمعا، كانت ترتدي لا زالت ثياب الطفولة منحسرة عن ساقيها ويتفجر منها نهداها، وحين تغطي نصف رأسها لأنها لا تجد مشطا ولا زيتا فيبدو هذا أكثر إثارة كما قال لها إيفان المشاكس ذات مرة.

"يا للمسيح... أمسلمة أنت أم حورية؟ لو كل المسلمات مثلك لأسلمت من فوري!"

يتحدث الأحمق عن غطاء رأسها المشابه للترك ويبدو أنه لا يمانع فيه ولو برز من تحته الصدر ومن تحت الثوب الساقين، لكن الترك بالطبع يغطون كل هذا، فهي لا تنخدع فيهم وهم لا ينخدعون فيها وهي لا زالت تذكر لقاءها الأول بأمير ابن نديم باشا، ففي فترة العامين اللعينين وقدر ما بلغت هي مرحلة الصبا كانت أمها تبلغ مرحلة الشيخوخة مبكرة، صارت تدخن بشراهة ولا تنقطع عن الأقراص المهدئة، لم تكن متأثرة بحالة الحرب ولا حتى بحال أبيها. لكنها كانت تشعر بعدم الأمان والضياع وكأنها تفكر ماذا بعد الأب الذي يكاد يفلس بل أفلس واستدان، وهو غالبا على وشك الهروب تاركا إياهم، حكت لها أن تلك عادة في عرقه وحكت لها عن بعض أقاربه ممن فعلوا، بل وحكت عن تهديداته بذلك حتى أنها فكرت هي نفسها في الهروب لكن إلى أين؟

هي من منطقة ريفية بعيدة يتنازع إخوتها ميراث والديها القليل ولن يسمحوا لها أن تزيد الطين بلة، لذا كانت تقضي يومها بين نوم طويل وشجار مع الأب حين تراه وتدخين وتفكير لا ينقطع، ووكلت ابنتها التي كبرت، كما قالت لها أن تستقضي حاجات المنزل وتتعلم إعداد الطعام. لذا فقد كانت تخرج وحدها دوريا إلى السوق في الحي المجاور أي أنها تسير يسارا في طريق طويل حتى تصل لكنها كانت تمر أولا بدكان التركي، وهو محل عجيب أشبه بصندوق الدنيا. فلا يمكنك أن تتخيل ما فيه وأن تلك الرفوف المتراصة في دكان مساحته عشرون مترا مربعا يمكنها أن تفي بكل ما تتمنى، المحل الممتد تاريخه عبر عشرات السنوات كان وكالة لاستيراد البن التركي بشكل دوري طازج ومنه جاء الاسم، رغم أن أصحابه من البوشناق البوسنيين المسلمين وبالطبع كان له جمهوره من الأتراك وأيضا من البوشناق، لكن مع انكماش النفوذ التركي وسقوط السلطة العثمانية بل وهرب الأتراك من البلاد انكمشت كذلك تجارة الوكالة وكادت أن تسقط لكن أمير الجد استطاع أن يناور بنشاطه فصار دكانه مأوى لكل بضاعة شرقية قد لا تجدها في بانيالوكا بأسرها، التوابل للطعام والزيوت والخلطات الهندية للشعر والعربية لأسقام البطن وحبوب متنوعة بالإضافة إلى بعض الخردوات والعطور بل وبعض مستلزمات الملابس خاصة ما يمت منها للعصر البائد، فما زال البعض يرتدي الحلة العثمانية بل ويرتدي الطربوش ومنهم صاحب المحل الحالي نفسه، نديم... أو نديم باشا كما يناديه الأقربون بل والساخرون، ونديم هو الابن الأكبر لأمير الجد والذي استلم تجارة والده وحافظ عليها وهو يستعد الآن لتسليم الأمانة لولده أمير الابن، بالطبع لم تكن ناتاسكا الصغيرة تعلم كل ذلك، ولا حين كانت ذاهبة في ذلك اليوم إلى السوق لتشتري بعض البصل، ربما فقط أربع بصلات كما قالت لها أمها وهذا بطبيعة الحال قدر ما تستطيع شراءه بعملاتها القليلة.

كان الجو حارا كما تذكر، الشمس مشرقة لا يحجبها ظل في السماء ولا في الأرض وكان عليها كذلك أن تسرع لكي تتمكن أمها من إعداد غداء ملائم لضيفة لها، كانت غاضبة فهي لا تحب البصل في الطعام ولا تحب تلك الضيفة ومع ذلك أجبرتها أمها أن تنزل في الحر فزادها الغضب حرا، لكنها وحين مرت من أمام دكان التركي وجدت شابا صغيرا يلبس كاسكيتا مقلوبا، فبدا مضحكا، وقميصا قد خرج من البنطال الذي بدوره قد سقطت إحدى حمالاته عن كتفه، كان يتصبب عرقا كذلك وهو يحاول جر قفص كبير من البصل! لم تعلم قط أن هذا المحل به بعض الثمار، ترددت للحظة... نظرت أمامها للسوق في مد البصر والذي بدا بعيدا للغاية ونظرت للسماء فلم تستطع لشدة الشمس فحسمت ترددها واتجهت بضع خطوات صوب الفتى الذي لا زال يحاول جر القفص من الخارج إلى الداخل.

"من فضلك"

لم ينتبه لها لوهلة ولما نظر تلقائيا اعتدل فجأة ثم ثبت بصره لعدة ثوان عليها فلم تدر ما تقول لكنه كان من تكلم:

"أهلا"

وقبل أن تخبره بطلبها كان قد انتبه لوضعه فأصلح الكاسكيت ومسح عرق جبينه ورفع حمالة البنطال لكنه نسي إدخال القميص فيه، وقال مبتسما:

"آسف، لقد غاب عني المساعد اليوم وأنا وحدي أنقل بعض البضاعة، أنا أمير ابن نديم باشا صاحب المحل وفي خدمتك يا آنسة..."

كان يتكلم كأنه رجل كبير مهم لامرأة جميلة متأنقة ربما بفستان السهرة، لكنها أدركت أنه صغير السن وإن كان يكبرها بالطبع، وكانت المرة الأولى التي يعاملها أحد بكل هذا الاحترام والإكبار. صغيرة هي على ذلك، صغير هو على ذلك لذلك ظل الوضع متناسقا، ولما رأى حيرتها وترددها في الرد قال مساعدا لها:

"ماذا تأمرين! عندي تشكيلة من العطور رائعة أتتني فقط منذ يومين رغم الحرب، ولو شئت فهناك زيت هندي جديد للشعر، لكني لا أظنك قد تحتاجينه".

قالها وأشار بحاجبيه كناية عما يرى من طول شعرها، زادها هذا ترددا، ماذا يريد! هل يريد تجارة أم تغزلا! ثم كيف ترد عليه؟ إنها أتت لشراء بعض البصل... أربع بصلات تحديدا، قررت أن تكون صريحة ولتنهيَ هذا الموقف:

"أنا فقط كنت ذاهبة إلى السوق لأشتري بعض الـ..."

وأشارت للصندوق على عتبة المحل، لاحظت اندهاشه للحظة وهو ينظر للصندوق وقال واضعا يده على رأسه:

"آااه بصل، تريدين بصلا! لا بأس. لا بد أنك طباخة ماهرة"

ثم أنزل يده وقد غلبه سلوك التاجر من جديد الذي يتقمصه بل ويتصنعه.

"هذا بصل طازج تماما أتى لتوه، أنصحك أن تأخذي منه كمية، سيدوم معك لعام أو أكثر"

"آاااه"

"كم كيلو تريدين؟"

"لا أنا فقط أريد أربعة"

أربعة أرطال، فلنجعلها خمسة.

واندفع جالبا كيسا ورقيا يعبئ به البصلات، كانت صامتة لا تدري ما تقول. لقد قاطعها بكلامه ثم اندفع بأفعاله.

"أنا فقط أريد أربع... حبات!"

توقف عن التعبئة واعتدل متعجبا:

"خسارة آنستي. هذا بصل لا يعوض. سأعطيك إياه بسعر أقل من السوق"

لكنها قررت أن تكون أكثر حزما فأخرجت عملاتها المعدنية وألقتها أمامه ففهم إشارتها ولثانية بقي ساكنا، وقال مترددا:

"حسنا"

ومد إليها يده بالكيس قائلا:

"تفضلي"

"ما كل هذا؟ أنا فقط أحتاج أربع حبات"

"لا بأس، هذا لن يفسد"

"ليس معي نقود لذلك"

"نقودك وصلت آنستي. هذه أول زيارة لك لدينا..."

وقبل أن تتكلم سحب الفلوس من الطاولة ووضعها بالدرج كأنه يؤكد إتمام البيعة. لم تجد بدا فأخذت الكيس قائلة:

"شاكرة"

"بل أنا أشكر زيارتك"

وقبل أن تتصرف دخل الدكان من الباب الخلفي رجل ضخم يلبس طربوشا وحين خلعه عرفته، إنه أحد ندماء أبيها. لكن ما علاقته بالمحل؟ ولما قال أمير:

"مرحبا يا أبي"

حينها عرفت ما العلاقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما مات أبوها كان نديم باشا أول المعزين، جاء خالعا طربوشه وانحنى أمام والدتها معلنا أساه، أشارت إليه فدخل في نفس غرفة السمر الخاصة به وأبيها وعصبتهم. بدا متأثرا جدا وهو يهز رأسه ويتأمل أرجاء الغرفة بل بدا وكأنه يتشممها، لكنه بالطبع لن يجد نفس رائحة السهر حتى الصبح، فقد نظفت والدتها الغرفة لتعود لأصلها، غرفة لاستقبال الضيوف لا كازينو لاستقبال الساهرين. كانت ناتاسكا تراقب كل شيء من خلف ستار، وذلك طبقا لوصية أمها. إنها الآن كبيرة بما يكفي ويجب أن تثبت وجودها وتستقبل الضيوف معها. في الواقع هي ليست كبيرة لهذه الدرجة لكن لا يوجد غيرها، هل تستقوي بها أمها على من يظنون أنها صارت بمفردها؟ لا بد أنها مخطئة. سيحسبونها الآن أضعف، إنها ليست امرأة واحدة ليس لها راع بل امرأتان، لكنها لم تناقشها ولم يكن ظرف الموت ليسمح بذلك، فقط أتتها بلباس طويل داكن اللون وقالت:

"فلتلبسي"

"وما ذلك؟"

"ثوب يصلح أن تجلسي به أمام الزوار"

"لكن المقاس! أنتِ تعلمين أن ما يناسبك لا يمكن أن يناسبني"

"إنه قديم وحجمه مناسب"

وقبل أن تعترض أشارت أمها بيدها وانصرفت. كانت أمها حزينة بحق، لم يفاجئها زوجها بالهرب كما توقعت بل فاجأها بالموت. وقد حكت لها ما حصل عشرات المرات حتى حفظته عن ظهر قلب، فبعد ليلة سكر معتادة أتى زوجها جوارها على غير المعتاد وهي نائمة وهزها بيده حتى استيقظت، نظرت إليه شزرا أولا ولما رأت عينيه الجاحظتين وتأوهاته المكتومة اعتدلت وأحاطته بيدها وقالت:

"ما لك؟"

قال بصوت متحشرج:

"متعب!"

"إنه السهر الطويل، فلتنم قليلا"

"لا. أنا متعب للغاية لا أستطيع التنفس ولا الكلام، يتملكني ألم في بطني وصدري"

اقتربت منه أكثر فلاحظت حشرجته. انتابها القلق وقبل أن تتكلم قال:

"سامحيني، لم أقصد أن يسوء الأمر هكذا"

أشاحت بنظرها عنه للحظة فقال:

"أعلم كم أنت غاضبة، أعلم كم تضررت أنت، وكم أن ابنتنا أصابها سوء التغذية وتركت التعليم وتخشى الخروج لأنها لا تملك فستانا لائقا، أعلم كل هذا وربما لهذا أسهر أكثر وأعربد أكثر، عليّ أن أموت أو أنسى".

بدا وكأنه يحاول البكاء فقالت مشفقة:

"اهدأ واسترح"

"إن العالم كله يذهب إلى الهاوية ويبدو أني قد ذهبت معه"

أحست بندمه فقالت متحمسة:

"يمكنك العودة لا زلت، فقط عدني أنك ستعود لعملك وتترك لهوك"

ابتسم ثانية بجانب فمه ولم يرد.

"عدني!"

"سامحيني"

ثم شهق ومات لفوره. تتوقف أمها عن الحكي عند تلك النقطة دائما ثم تبكي، هل بالفعل هي حزينة على أبيها رغم أنها لم تطقه قط في أواخر أيامه؟! أم هو شعور بالذنب وإحساس بظلمها لأبيها؟! أم أن تلك تسليتها الوحيدة عن قلقها الأعظم من المستقبل؟! على أي حال كان أول من حكت له هذا المشهد بعد جارتها وزوجها اللذين دفنا الرجل هو نديم باعتباره أول الزائرين المتفاجئين مما حدث، لكن علامات المفاجأة لديه انقلبت فجأة لانبهار حين دخلت عليه ناتاسكا. سلم عليها ثم أبقى نظره مسلطا عليها، لم يرها من قبل، ربما لمحها في الدكان عدة مرات لكنه لم يدقق إلا الآن. ربما، أحست ناتاسكا بالإحراج... لماذا ينظر إليها هكذا؟! هل هو على علم بعلاقتها العابرة بابنه! أم لعله مغتاظ من ابنه الذي يقدم ما يقدم من بضائع المحل كهدايا لواسطة السماء والأرض كما يسميها؟ لا تنكر أنه كان لطيفا وأنها لم تكن فقط تذهب للمحل لاستغلاله في الحصول على ما تريد بسعر بخس أو بلا سعر لكنها كانت تذهب أيضا لتسمع كلماته ويمكن أن تقول لتراه، لكنها بالطبع لا تحبه.

لا تتمناه كما أحبها هو وتمناها وهو يتابعها في الذهاب والمجيء إلى ومن السوق حتى قبل أن تتعرفه وكما تجيء له في أحلامه كتعويض له في الأيام التي لا تزوره فيه في الدكان كما يقول. بقي لها أمد لم تره، لقد دب بينهما خلاف. كانت تريد تأديبه وقد أبطنت العودة لكنها لم تعد ويبدو أنها نسيت أو تناست. ففي آخر مرة وهو يريها قلما من الحبر يمكن تغيير لونه قال لها:

"أين تذهبين عصرا؟"

"لا أذهب في مكان"

"كل يوم؟"

"ربما أذهب إلى النهر مع مارلين صديقتي"

"لكن مارلين تذهب للنهر باقي الأيام مع فيدور"

"ومن فيدور؟"

"إنه صديق أعرفه"

"لا شأن لي"

"بالطبع لا شأن لك، لكني أفكر أيضا أن أذهب للنهر"

"فلتذهب إذن مع فيدور!"

"لكنه مشغول"

"وما علاقتي بالأمر؟"

"أنت متفرغة!"

غضبت منه لأول مرة، قررت الصمت والرحيل سريعا وقبل أن تلتفت قرر أن يكون أكثر صفاقة فقال:

"ولماذا لا نعبر كذلك نحو الغابة!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما تكررت زيارات نديم باشا لمنزلهم بدا أن هناك شيئا لا تعلمه ناتاسكا، زيارته الأولى كانت للعزاء، الثانية والثالثة للود ربما، خاصة بما يحمل من هدايا ومستلزمات منزلية، لم يفعلها غيره فكل أصدقاءِ أبيها وندمائه لم يكرروا زيارتهم بل منهم من لم يفعل من الأساس. وبدا أن موت أبيها كان مزعجا لهم ليس لفقده لكن لأنهم سيضطرون للبحث عن مكان آخر يسهرون فيه، وربما كانت حانة يدفعون فيها من جديد، لكن نديم باشا كانت مشاعره مختلفة بين الحزن وبين الانتظار وبين الطموح، لكن ماذا ينتظر وإلام يطمح !على الأريكة في حديقة المنزل الصغيرة المهملة كانت أمها تجلس تعد ما تملك من نقود، إنها تفعل ذلك عدة مرات في اليوم خاصة لو دفعت شيئا ولو كان بنسا فتواصل عد النقود، وهي آخر ما تملك مما كانت تدخر بالإضافة إلى بعض النقود التي كانت في بذلة الأب قبل موته، القلق يقتلها... صارت لا تنام، ولا تأكل تقريبا، تجلس في الحديقة المكشوفة أغلب اليوم وربما تشرب قهوة من صنيع بن التركي الذي يهاديها به. لكن زيارته الرابعة جعلت ناتاسكا تشك وتقرر أخيرا أن تسأل، فاقتربت من أمها وجلست جوارها وقالت مباشرة:

"ما بال هذا الضخم يا أمي؟ إنه أتى اليوم لرابع مرة؟"

"حقه يا ابنتي"

"هل يشترينا بهداياه؟"

بل بدينه!

قالتها غير عابئة وكان الأمر مشاعا ومعروفا...

"أي دين يا أمي؟"

أشارت بيدها غير عابئة لا زالت.

"ذلك المنزل، مرهون عنده!"

نظرت إليها غير فاهمة فأردفت الأم:

"كان شريك أبيك الذي أفلس"

ظلت واجمة.

"كيف تظنين أباك كان ينعم علينا بهذا الفتات!"

وأشارت للنقود في يدها.

إذن فأبوها مدين بمال مرهون بالبيت، آخر ما يملكون. هم إذن بمثابة مشردين أو لاجئين،كادت أن تسال أمها عن الحل لكنها قررت الصمت. التوقعات الصادمة مهما كان أقل وطأة من الحقائق الصادمة. لا تريد أن تعرف الحقيقة. يكفيها توقع الأسوأ، لكن الأمر صار أكثر حساسية لديها، ولما جاء نديم باشا للمرة التالية لم تستطع الصمت ككل مرة بل قالت وبدون مناسبة بمنتهى قلة الذوق والخبرة:

"هل تزورنا باعتبارك تزور أملاكك؟ أنت تملك المنزل لكن لا تملكنا، لسنا مجبرين على استقبالك، أما لو أردت أن تطردنا فلتتفضل!"

نظر إليها باندهاش وأمها باستنكار وقبل أن توبخها قامت من فورها تجري لغرفتها بينما الأم تقول:

"لا عليك يا باشا. هي طفلة لا تفهم شيئا"

"بل هي عروس"

"أنت كريم ومتسامح حقا"

"أنا أتكلم عن جد، هي عروس وعندي عريسها"

"من؟"

"ابني أمير!"

أرجعت رأسها للخلف وقضبت حاجبيها ووجنتيها.

"ماذا تقول؟"

"أنت تعرفين أمير... إنه شاب مستقيم وغني و..."

قاطعته قائلة:

"وبوشناق، أنتم بوشناق!"

"ديننا لا يمانع سيدتي في ذلك"

"ومالي بدينكم، ماذا عنا؟"

اقترب منها وقال بصوت منخفض:

"أعلم أنكم غير متدينين على عكس الراحل"

"ماذا يقول الناس إذن؟"

"ومن من الناس من يعرفكم وتعرفونه، ثم إن أمير سينتقل لإدارة محل جديد في سراييفو، لن يدري عنهم أحد شيئا"

"وأنا؟"

"أنت لك بيتك بعقد جديد بل ولك مستلزماته أسبوعيا. لا نتأخر عنك"

أرجعت رأسها ثانية ونظرت للسقف وهي تردد وكأنها تحدث نفسها:

"لا لا لا، غير معقول... لا!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الزواج سريعا، أصرت الأم أن يكون عقدا مدنيا لا على طريقة المسلمين، كان كل شيء جاهزا. فقد كان المحل في سراييفو على وشك الافتتاح والمنزل تم شراؤه وتجهيزه في أيام، لم يعلم أحد شيئا عن الأمر. فقد تم الاتفاق على الكتمان، لذا أعلنت الأم لجارتها أنها ستغادر لزيارة قريب لها مع ابنتها وبالفعل سافرت الأم مع الابنة إلى سراييفو وهناك التقوا بنديم باشا وابنه العريس وتم العقد. ودخل أمير بعروسه بينما بقيت الأم في فندق قريب تزورهم كل يومين وتردد عليهم نديم باشا مرتين خلال ذلك الشهر. بعدها سافرت معلنة لجارتها ومن تعرفه أن البنت تزوجت ابن العم ولم تستطع العودة، وإمعانا في التمويه قالت إن الأمر تم في برتشكو وليس سراييفو، بقيت ناتاسكا وحيدة إذن تماما، غاضبة للأبد، لا تعلم أين المشكلة.

هل لأنها كانت صغيرة؟ كلا لقد جعلتها أحداث أبيها أكبر وأوعى، هل لأنها لم تكن ترغب في الزواج إطلاقا؟ بالعكس فقد فكرت في الأمر جديا بعد وفاة أبيها، هل لأن الزواج سيتم بأمير وهي لا تحبه؟ لكنها كانت تألفه، هل لأنه كان مسلما؟ لم تكن تهتم كثيرا بالأديان، هل لأن الأمر بدا كأنه صفقة تجارية؟ الحقيقة أنها كانت صفقة ناجحة لها ولأمها في كل الأحوال،كان الأمر معقدا حينها ولم تعرف سر غضبها وحزنها اللاحق، لكن فيما بعد ستصيغ الأمر بشكل أوضح. لقد استغلها الجميع، أمير الذي استغل علاقتهما العابرة وطمع في جمالها، أبوه الذي استغل دين أبيها ليحصل عليها كحلوى لابنه الوحيد، أمها التي استغلت سلطتها عليها لتحصل على الأمان المفقود، لم يعتبرها أحد إنسانا، كانت شيئا. لم يسأل أحد عن رأيها فقد ساوموا على سعرها، لكن أمير كان يحبها حقا، كان يحبها من

قبل أن تراه، لأنه كان يراها ذاهبة وآيبة من السوق،كان يتأملها من وجها ومن خلفها. وحين جاءت له المحل مصادفة علم أنه القدر وأخذ قراره، وكانت عقبة واحدة تثنيه، كيف يتأكد من عفتها؟ ولما كان ردها عليه التجاهل التام حين فاتحها بشأن رفقة النهر والغابة وصل لمبتغاه وقرر مصارحة والده الذي تعجب منه ونهره عدة مرات حتى أخبره باستحالة الأمر، فأبوها صديقه وهو لا يمكن أن يقبل بالأمر فهو متدين بل وقومي لا يمكن أن يقبل الزواج بمسلمين، ولكن لما مات أبوها خلال أيام علم أنه القدر مرة أخرى.

"قدرنا أن نعيش سويا في سراييفو الجميلة يا ناتاسكا الجميلة، أليس كذلك؟"

يقولها لها في جلسته اليومية في الشرفة بين فترتي عمله لكنها عادة لا ترد عليه وتكتفي بالابتسام، كانت تبتسم جديا أحيانا وأحيانا أخرى تصنعا. في الحقيقة إن بداية الزواج كانت سعيدة لها رغم محاولتها ألا تبدو، المرأة بطبيعتها متمنعة وتزداد تمنعا إذا طلب منها خلاف ذلك، كان فرق المعيشة واضحا، قضت خمسَ سنوات عجافا تزداد جفافا عاما تلو عام قبل انتقالها لبيتها الجديد، عامها الأخير على سبيل المثال لم تذق فيه اللحم، تقطع آخر فساتينها وصارت تلبس بعض ملابس أمها القديمة، بيتهم صار لا تطاق رائحته، فضلا عن حمامهم بل وأجسادهم التي فارقها الصابون والعطور. رغم كل الحساسيات النفسية إلا أنها ارتقت درجات في السلم المعيشي تجعلها تبتسم حقا حين تجلس مع أمير ويداعبها أو يحتضنها، تلك الابتسامة خففت بدورها شعور أمير بالذنب، لم يكن يرغب أن يبدو الأمر كمساومة وسعر مقابل سلعة لكن أباه بعقله التجاري جعلها كذلك، وقال له:

"أية تجارة ومساومة، أنت من ساومتني أولا أيها الخبيث حين قايضت ذهابك لسراييفو بالحصول على الفتاة!".

لماذا أحبها بالذات؟ لماذا لم يستغل ذهابه إلى سراييفو لينساها لا الحصول عليها؟ ولماذا حين علم أن الفتاة لا تريده أصر على الحصول عليها، هي أنانية أم عقلية تاجر لا يريد أن يخسر صفقة! لكنه قدر أنها صغيرة لا زالت قليلة الخبرة ستشكلها الأيام والبيئة الجديدة، اختار لها بيتا رائعا في سراييفو يطل على النهر، كان يسهر معها كل ليلة مرة في الخارج ومرة في الداخل، أحضر لها خادمة سرعان ما طردتها قائلة إنها ستعتمد على نفسها في أعمال المنزل وإلا لماتت مللا. كان يرسل لوالدتها كل شهر فتأتي وتذهب تاركة إياها أكثر تقلبا ثم أدرك أن ناتاسكا نفسها لا تريد رؤية والدتها، كل ما يذكرها بماضيها يستثيرها لكنها كذلك ما تفتأ تذكره:

"هل تتشدين الماضي أم تكرهينه؟ تشتاقين إليه أم تنفرين منه؟"

"كل ذلك!"

"وما يرضيك يا حبيبتي؟"

"أن لا أذكره بخير أو بشر"

"لا تفعلي إذن، أنت الآن في مكان وزمان ورفقة مختلفة أليس كذلك؟"

"بلى"

"قدرنا أن نعيش سويا في سراييفو الجميلة يا ناتاسكا الجميلة. أليس كذلك؟"

لا ترد كالعادة، فقط تبتسم، رزقا بأدمير بعد عام. كانت تعول عليه أن يكون بنتا وأن تشبهها، لكنه كان ولدا شبيها بأبيه، وعندما رأت في نفسها أحيانا أنها تكره أدمير عرفت أنها جنت تماما. وازداد عبوسها وقل ابتسامها، تدريجيا... تتغير للأسوأ بينما أمير كما هو يحبها ويلتمس لها العذر بل ويلقي اللوم على نفسه، انشغل في تجارته، وكلما ازداد غمه في البيت ارتفع مكسبه في السوق، معادلة ناقصة... حياته عبثية، كاد أن ييأس بدوره ويصير مسخا كزوجه لولا أن تدين، صار يصلي باستمرار ويصوم رمضان عندما يدرك دخوله وأكثر من صدقاته للفقراء، انعزل كثيرا عن زوجه بعد ابنهما الثاني دراجان ثم انعزل تماما بعد ابنتهما الثالثة أديلسا وظل ما يربطه بها جلسة العصر في الشرفة حين يقول لها كدأبه:

"قدرنا أن نعيش سويا في سراييفو الجميلة يا ناتاسكا الجميلة أليس كذلك؟"

لكنها لم تعد تبتسم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دراجان

تقع المدرسة الثانوية الأولى في سراييفو في الجزء القديم من المدينة، كانت في منتصف المدينة من قبل لكن الآن وبفعل التوسع في البناء صارت تعتبر في شرقي المدينة، الجنوب الشرقي على سبيل التحديد. طرازها المعماري القديم تم تجديده مؤخرا قبل إعلان الطوارئ في البلاد تحسبا لهجوم نازي أو فاشي، لم يحدث الهجوم حتى الآن وظلت الدراسة منتظمة لا تعنيها الحرب إلا في نقاشات الأساتذة العميقة وسجلات الطلاب التافهة، ورغم أن المدرسة يدرس بها عدة صفوف إلا أن كل صف كان منفصلا في فصوله وفي إدارته، ولمزيد من التحديد نقول أن حديثنا عن الصف الأخير ذي البوابة السوداء في عطفة الشارع المبلط، هنا حيث يأتي دراجان بدراجته ويحاول ولوج الشارع دوما فيصطدم كاوتش العجل ببعض البلاطات البارزة المنزلقة فيختل توازنه ويسقط عن دراجته ساخطا فيقول:

"هؤلاء الأغبياء!"

يشاكسه بعضهم أحيانا فيسألونه عمن يقصد:

"إنهم كثيرون جدا بداية ممن بلط هذا الشارع ومن تركه على حاله لم يصلحه حتى الآن ووصولا إليك أنت يا من تسأل!"

عندها لا يجرؤ أحد أن يرد عليه ويمكننا أن نقول مطمئنين أن دراجان أحد المتنمرين البارزين في المدرسة ككل وليس في الصف، هو يعترف بذلك ويفخر خاصة وأنه على سبيل المثال حين رد عليه أحدهم قائلا:

وأغبى الأغبياء أنت؛ الذي يحاول يوميا ولوج الشارع الوعر بدراجته فيسقط ولا يسأم يكرر!

لم يكمل كلماته، باختصار لقد أمسكه دراجان من رأسه وأسقطه أرضا كي يذيقه ملمس البلاط الوعر حتى رفع ذراعيه مستسلما. عادة لا يستعمل دراجان العنف في فرض سيطرته لكن لسانه السليط وسخريته التي تحط من شأن كل ذي شأن في حضرته أو غيبته، وكان دراجان متنمرا على الناسِ أجمعين، أصدقائه، أعدائه، أساتذته، مدرائه، أمه وأخيه، حكومة بلاده وبلاد غيره.

"ساخط للأبد ناقم على الجميع!"

قالها عنه أحد أساتذته يوما في تقريره عندما تدخل ليحكم في شجار دب بينه وبين فريقه الرياضي، لم يكن ماهرا في اللعب لكنه لا يكف عن توجيه الأوامر، وعندما خسروا وأجمع الجميع أنه كان السبب سب آباء الجميع وأمهاتهم وانصرف. كان عقابه الفصل لمدة شهر لكنه ظل يأتي متحديا مستغلا أن ذلك الأستاذ قد انتقل بعدها للتدريس في مدرسة أخرى، ولم يكن يعلم أن الأستاذ الجديد الذي سيحل محله سيغير حياته، كان الأستاذ نيقولا رجلا وقورا له طليعة شعر بيضاء كاذبة فبقية شعره فاحم السواد، لكن هذا لا يمنع أنه كبير بالسن ومع ذلك كان نشيطا للغاية، يدرس التاريخ فلا يكف عن الحركة والتمثيل بيديه، تمتلئ السبورة من خلفه بالكتابة فيمسح ويكمل كتابة حتى تمتلئ وعادة ينتهي زمن حصته قبل إكمال الدرس المقرر. في الحقيقة هذا لسبب بسيط، أنه عادة ما لا يلتزم بالمنهج المقرر دراسته، إنه يتطرق كثيرا للواقع... ويتطرق أكثر لآرائه الشخصية.

"يعجبني هذا الرجل"

يقولها دراجان لأصدقائه حين يخرج وفي الحقيقة أصدقاء دراجان هم مجموعة من المهرجين فارغي العقول، تعجبهم سخريته ويحتمون بلسانه وربما وجهوه أحيانا لملاقاة أعدائهم، كان دراجان يعلم هذا لكنه لم يجد من هو أضل منهم ثم من أين يجد من يسمعونه بلا جدال ولا نقاش كهؤلاء فيقول آراءه كما يحلو له خاصة السياسية منها.

"الحرب ستنتهي خلال عام أو عامين وسيحصل هتلر على بغيته ويحكم العالم"

"الإنجليز سينهزمون كما انهزمت فرنسا. الفرق فقط أنهم يظنون"

"إنهم أفضل من الفرنسيين"

"نحن نكرة ولن ينظر إلينا هتلر ولن يضيع وقته وجيوشه معنا، المستفيد الوحيد حكومتنا الخانعة التي تنهبنا باسم الاستعداد للحرب"

كانت معلومات دراجان مستقاة من الراديو وجريدة أسبوعية يقرؤها في الآحاد ليمضي وقت فراغه، ولم يجد من يناقشه في آرائه قط. في المنزل أخوه الأكبر متغيب دائما، أمه لا تقرأ ولا تهتم، أخته صغيرة تافهة تحيا في غيبوبة من المثالية، وفي المدرسة ينبذه الجميع إلا الحمقى من لا رأي لهم، وكان أول من ناقشه هو الأستاذ نيقولا... كان يشرح لأصدقائه متحمسا:

"هتلر عبقري، لقد بنى بلاده من الصفر، وصنع جيشا فاجأ به العالم، المستقبل لألمانيا لا شك. قد نتحدث في يوم بالألمانية"

"ولماذا لا تنظر شرقا؟"

انفض المتحلقون من حوله حين دخل الأستاذ نيقولا على حين غرة، بينما هو لم يتفاجأ بل على العكس نظر إلى الشباك اتجاه الشرق فضحك كل من بالفصل ثم التفت قائلا:

"وماذا يوجد في الشرق؟"

فرد الأستاذ:

"سيكون هذا موضوع حصتنا اليوم"

وفي إجراء غريب اتجه للباب فأغلقه ثم فتحه ثانية وكأنه تذكر شيئا.

"من يريد الخروج فليفعل، هذا درس اختياري وسيكون طويلا ومملا!"

لثوان لم يتحرك أحد ونظر الطلاب بعضهم لبعض ثم قام أحدهم مترددا يختلس النظر لزملائه ولأستاذه وغمغم بشيء ثم خرج، تبعه آخر ثم آخر، حتى كلود المتفوق خرج وقال مبررا:

"عليّ الذهاب لدورة المياه، كنت أتوق لذلك"

فكر دراجان أن يخرج للحظة ثم تذكر أنه كان سببا لهذا النقاش وربما كان هو المقصود، لعن شيئا ما ونظر في الجوار ليجد أنه لم يتبق سوى ثلاثة حتى جماعته قد خرجوا، في حين تنحنح الأستاذ مستعدا للكلام:

"حين خرج كارل ماركس بنظريته وهو ألماني بالمناسبة ظن أن الثورة الحتمية لجماهير القوى العاملة ستبدأ من بلاده الصناعية لكنها في النهاية خرجت من بلاد إقطاعية زراعية في الأساس، روسيا القيصرية أعني. إنها في الشرق أليس كذلك؟"

ضحك دراجان.

"مهلا حسبتك ستتكلم عن شرق آخر، الأديان وما إلى ذلك... روسيا ليست الشرق. نحن روس في الأصل أليس كذلك؟ علمنا الأستاذ سلفستر هذا. إنه كان يدرس نفس مادتك"

"الأستاذ سلفستر ها؟ لستم على وفاق لكنك التقطت منه شيئا، هذا عظيم!"

قبل أن يتحدث دراجان أكمل نيقولا:

"لكني بالطبع لم أقصد روسيا لأنها روسيا أو لأن لنا أصلا مشتركا أو لأن لغتنا لها نفس الحروف، أنا أتحدث تحديدا عن الثورة الشيوعية!"

أخفض صوته وهو يقترب من الطلاب الأربعة وجلس بالقرب منهم وقد انحنوا للأمام كذلك وقد أحسوا بخطورة الكلام، فالشيوعية محاربة في يوغسلافيا الملكية قدر الفاشية وقدر الديمقراطية... إن الأستاذ نيقولا يغامر الآن.

"كانت روسيا هي الشرارة، الاتحاد السوفييتي قائم الآن وسيتوسع، لكن الثورة التي توقعها ماركس لم تقم بعد"

قال بولس لأستاذه:

"تقصد الثورة الشيوعية في أوروبا؟"

"بالضبط!"

انفلتت ضحكة من دراجان قائلا:

"أية أوروبا؟ لقد قلت لهم منذ قليل هتلر سيكتسح العالم، ليس فقط أوروبا تلك العجوز!"

ضحك نيقولا هذه المرة وقام ثانية من مجلسه لكن دراجان بادره:

"لا تنظر لما أقول باستخفاف. أنا أعلم ما أقول، أنا صغير السن لكن كبير العقل، ثم ألا تسمع الراديو يا أستاذ!"

"أسمعه لكننا نسمع ذات الكلمات والأنباء ويختلف رأينا وتفسيرنا، أتعرف ما هي مشكلتك؟"

"ماهي؟"

"إنك تفكر وسامحني كفتوة كمتنمر، إنه ذات تفكير هتلر لكنه يفعله بشكل أوسع على الكرة الأرضية"

"هل تشك لحظة أن القوة هي من تحكم في النهاية؟"

"وهل تظن أنت للحظة أنها تفعل؟"

"بالطبع"

"إذن لماذا لا تحكم أنت تلك المدرسة إذن. ها؟"

ساد الصمت للحظة وبدا لدراجان أن المقارنة غير منطقية وتدافعت الحجج التي يمكن أن يسوقها لكنه فضل السؤال:

"ماذا تقصد؟"

"القوة ليست كل شيء، الفكرة أقوى، التنظيم أقوى"

"بالفعل، وهذا سر قوة الألمان، ألا ترى أنهم الأكثر تنظيما والأكثر اقتناعا بفكرتهم؟"

"حقا إذن، فليحكموا ألمانيا وليس العالم"

قالها بصوت مرتفع ثم اكتشف ذلك حين سمع صدى صوته فاقترب ثانية وجلس جوارهم قائلا:

"هل يمكن أنتم أن تقتنعوا بتفوق الجنس الآري؟ هل يمكن أن يتم تنظيمكم لتخدموا تلك الفكرة؟"

ظلوا صامتين فأردف:

"بالطبع لا، لن تحكم ألمانيا العالم بفكرة ليس مقتنعا بها، ولو فعلوا ستهزمهم أفكار أقوى"

ابتسم دراجان بطرف فمه:

"الشيوعية مثلا؟"

ابتسم الأستاذ واتجه إلى السبورة من جديد وقال:

"ثورة الجماهير ضرورة حتمية، هي نهاية تاريخ حكم النخبة من الأغنياء والأنبياء، إنهم يقولون إعادة توزيع الثروة وأنا أقول إعادة توزيع التاريخ، الدرس سيبدأ الآن...

زفر الطلاب خلفه فقال دون أن ينظر:

"قلت إنه درس طويل وممل!"

لكن دراجان قال في سره:

"ليس مملا للغاية!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صار دراجان شيوعيا نشطا، لقد وجد أخيرا ضالته، هذا العالم البائس سيجد أخيرا من يغيره، أقنعه الأستاذ نيقولا أنه يجب أن يستغل طاقته بشكل أفضل، أن تنمره لا يعني أنه يريد أن يفسد بل العكس، إنه يتمرد على وضع فاسد ليصلحه، إذا كان ساخطا للأبد ناقما على الجميع كما يقولون فلا بأس، هذا ليس عيبا. هو ما يجب أن يكون... لكن العيب ألا يحاول تغيير العالم أو يحاول تغييره بشكل فردي خاطئ، إنه يشبه هتلر الذي يريد العالمية بفكرة محلية، كذلك لا يمكن تغيير الشعوب إلا بأفكار شعبية فتكون الثورة جماعية لا فردية.

"كنت طليعة ثائر والآن أنت طليعة ثورة"

عرف دراجان أنه ليس وحده ولا نيقولا كذلك، لقد كانت المدرسة وبالتالي البلد ككل تعج بالشيوعيين، ولولا قيام الحرب والخطر المحدق لتصدى الملك لهم بشكل أفضل أو استطاعوا هم تنظيم أنفسهم بشكل أفضل...

"تبا للحرب"

"بل أهلا بالحرب!"

قالها له نيقولا ثم فسر قوله:

"إنها حرب يقوم بها غيرنا ليسقطوا نظاما نسعى لتغييره. إنها فرصه ذهبية"

"لكن ماذا عن الاحتلال الذي سيحدث؟"

"الاحتلال لا يدوم حتى لو كان نازيا ومقاومته ستكون سند استحقاقنا للسلطة بعد رحيله. إنها فرصة ذهبية أخرى".

وسرعان ما دقت الحرب أبواب يوغوسلافيا، فقد حاول الفاشيون الطليان أن يبدؤوا غزو البلقان من الجنوب فاقتحموا اليونان لكنهم وجدوا مقاومة غير متوقعة أخرتهم كثيرا، لكن الجميع أدرك أن الدور قريب من يوغوسلافيا وحاول الحكم إظهار الحزم، فما بدت إلا الفوضى التي استغلتها الدعاية الشيوعية خير استغلال بمنشوراتها التي لا تتوقف، وصار دراجان بوقا للشيوعية بين طلاب الصفوف التي لا يصلها صوت المدرسين الشيوعيين، فكان يتسلل إلى الفصول الأخرى يوزع كلماته تارة ومنشوراته أخرى ولم يجد أي مقاومة فقد كان اليأس يخيم على الجميع أو اللامبالاة. ناقشه كثيرون بشكل عابر وسخر منه آخرون لكنه لا يذكر إلا تلك المرة حين أمسك بيده أحدهم في الصف الذي يصغره بعام وقال له:

"هلا تجلس من فضلك؟"

كانت عيناه تبرقان مبديتين حماسا وذكاءً وأمره بالجلوس فجلس على المقعد الأمامي الخالي ملتفتا برأسه إليه قائلا:

"هل تسأل عن شيء ما بالمنشور؟"

ابتسم قائلا:

"لا. في الحقيقة لقد قرأته من قبل، لكن لم أزر هذا الصف من قبل"

ابتسم ثانية..

"هناك طرق أخرى للاطلاع على أفكاركم"

"وماذا وجدت؟ هل أعجبتك؟"

"بالتأكيد, لقد خلخلت أفكاري الشخصية عن الإنسان والعالم، أنا الآن في منزلة بين المنزلتين؛ أفكاري الموروثة وأفكاركم"

ابتسم دراجان هذه المرة وقال بزهو:

"أفكارنا حديثة أليس كذلك؟ إنها التطور الطبيعي للتصور التاريخي"

كانت تلك الجملة بالذات قد أعجبته من كلمات الأستاذ نيقولا لكنها ربما لم تعجب الفتى الذي قال فجأة مغيرا دفة الحديث:

"لكن هل وجدتم حلا لمعضلة (الله)!"

الله! منذ متى لم يفكر بتلك الكلمة، لقد نسي أساسا أنه شبه مسلم، ولولا أبوه الدرويش لأعلن كفره، لكنه قال مجادلا:

"لحظة. وما دخل الله بالأمر؟، نتكلم عن بلدنا. عن حياتنا"

"في الأديان، هذه الحياة لا قيمة لها والآخرة هي الحياة الحقيقية"

ضحك دراجان وقد ظن للحظة أنه يمزح، تأمله ثانية... بريق عينيه محير. هو لا يمزح وفي نفس الوقت هو لا يسخر منه ولا يتحداه. إنه يبحث بصدق عن الإجابة.

"يا صاح، إن الأمر بسيط، إننا نحيا الآن هنا وحين نحيا في الآخرة لو وجدت فلهذا شأن آخر".

ضحك الطالب وحرك رأسه لكن لم يتحرك من جلسته، وقال:

"تلك الأديان أيضا تتحدث أن مصيرك في الآخرة يعتمد على حياتك في الأولى"

"هراء، محض هراء"

كان قد فقد أعصابه كما يفعل مع أبيه أحيانا حتى لاحظه الطلبة الذين كانوا يتضاحكون قريبا ورموا منشوراته أرضا، هل قرؤوها أم حتى لم يفعلوا؟ نظر إليهم فنظروا إلى بعضهم ثانية، ثم التفت ثانية ناحية محدثه وقال:

"أنت تتحدث من الماضي، انظر للعالم حولك، لا حاجة للدين ورجاله الآن، هناك العلم والعلماء"

"أنت على حق، إن معضلة الدين وحدها قد تحل، أنا قد أتخطاها بل اعتبرني قد فعلت، لكن ماذا عن الله؟"

علا صوت دراجان ثانية:

"أمرك عجيب، أين المعضلة! أين الله من الأساس! نحن نحاول إصلاح العالم الذي يدعي الله أنه صنعه، هل لو كان موجودا حقا لكان العالم بهذا السوء؟ العالم لا يحكمه الله لكن يحكمه حفنة من المحتالين، تحرير الناس من عبوديتهم يبدأ بتحرير الناس من إيمان كاذب تم استغلاله!"

تكلم كمناضل شيوعي... ويبدو أن كلماته لم تعجبه وحده بل أعجبت الطلبة إياهم فتحلقوا حوله يسمعون لكن محدثه ظل هادئا وقال:

"كل ما قلت حول العالم والناس والعدالة ما أهميته أو قيمته بدون الله؟ نحن تراب وحياتنا عبث، بدون اتصال بصانعنا الأعظم فما هي ماهيتنا؟! العلم الذي تتحدث عنه كم كشف من خفايا المادة والكون! إننا شديدا الضآلة أمام خلق الله الذي لا بديل عن وجوده ليفسر الحياة، أما سوء العالم فهذا سوء البشر. لكنك لو تمشيت في الغابة القريبة وجلست تحت شجرة تتخللها أشعة الشمس وتسكنها العصافير لعرفت جمال العالم".

سكت دراجان لا يعرف كيف يرد وسكت من حوله وأحدهم هتف بحياة السيد المسيح، وكأنه لا يعلم أن المتحدث مسلم بل والسامع كذلك، نظر بعيدا للحظة مفكرا ثم سأله:

"لم تقل لي حتى الآن ما اسمك؟"

"علي عزت بيجوفيتش"

ابتسم وقال:

"إذن تعال معي يا علي عزت إلى الأستاذ نيقولا. لا شك عنده حل لمعضلتك"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سقطت اليونان في أيدي النازيين علم اليوغسلاف أنهم لم يعودوا بمأمن وأن سقوط المملكة اليوغسلافية صار مسألة وقت، كان الشعب يائسا في كل الأحوال. أحوال الملك سيئة بالفعل، فهل يمكن أن تسوء أكثر مع دول المحور؟ في ذلك الوقت كانت دول المحور متقدمة على كل الجبهات بقيادة ألمانيا بقيادة هتلر، وكان الكثيرون معجبين بهتلر ومن لم يكن معجبا لم يكن يمانع أن ينضوي تحت جناح الطرف المنتصر، الحلفاء مهزومون، هذا بالإضافة للبعد الجغرافي، البلقان ككل في مناطق النفوذ الألماني الإيطالي بالفعل، وحتى حين حاولت إنجلترا التدخل لإنقاذ اليونان فإنها فشلت وعادت أدراجها، ولم تكن ثمة رياح شرقية كذلك. فالسوفييت بقيادة الروس عقدوا اتفاقهم الخاص مع هتلر، هدنة بالإضافة لتجارة روسيا مواد الحرب لتجعلها ألمانيا آلات حرب، لكن كان رأي الأستاذ نيقولا مختلفا في تلك المسألة، فحين سأله دراجان وهما جالسان في الفصل بينما غادره الطلبة في وقت التريض قال:

"المواجهة محتومة لكن كليهما يؤجلها للنهاية"

"ولماذا لا يتصالحان كقوتين عظيمتين؟"

"كلاهما يريد أن يكون القوة العظمى الوحيدة"

"إذن لم التأجيل؟"

"كل له أسبابه، هتلر لا يريد الحرب شرقا وغربا بنفس الوقت. أما ستالين فهو يريد أن يثخن هتلر بالجراح، حينها يكون القضاء عليه سهلا،كما أنه سيقضي له مجانا على باقي القوى".

هز دراجان رأسه مقتنعا ولم يكن هذا كل ما يشغل باله، بل أن يشغله ما اعتبره هزيمة في ميدانه، كأن الدعوة الشيوعية قد بدأت تؤتي أكلها بين الطلاب لكنها فجأة اضمحلت بفعل من لم يتوقعه قط. علي عزت بيجوفيتش... ذلك المتغطرس بثقافته، ود كثيرا أن يضربه ضربا مبرحا وتخيل نفسه وهو يكيل له اللكمات حتى سال الدم من أنفه حتى يرجوه أن يكون رفيقه في الكفاح الثوري، لكنه يفيق وقد تذكر أنه لم يفعلها من قبل حتى يفعلها مجددا، كان علي عزت حين قابله منذ شهرين مترددا في حبال الشك، وعندما داهمه اليقين كان يقينا عكسيا. يذكر حين أخذه للقاء الأستاذ نيقولا ذلك اللقاء المطول الذي دام لساعتين، حتى أنه لم يتحمل وخرج بعد الساعة الأولى وهو لا يفهم شيئا مما قيل وقرر الانتظار بملل في الخارج كبديل أفضل من الاستماع لمناقشات فلسفية لم ترق له قط، وحين خرج علي عزت أخيرا واصطحبه بلهفة خارج المدرسة ووقفا جوار دراجته يتحدثان:

"ها. ما رأيك في الأستاذ نيقولا؟"

"إنه أشبه بأستاذ جامعي ممن نسمع عنهم في جامعات براغ وفيينا"

"ألم أقل لك أنه القادر على إجابة كل تساؤلاتك؟"

"لكنه لم يجب كل تساؤلاتي!"

"حقا! ساعتان من النقاش لم تكونا كافيتين،كم عدد تساؤلاتك بالضبط؟"

"سؤال واحد، لقد سألته لك من قبل"

"نعم عن الله"

"لقد أجاب نيقولا عن كل شيء وشرح كل شيء لكنه عجز عن إجابة هذا السؤال"

"بالطبع يا عزيزي، لأن هذا السؤال إجابته قد تجدها عند مشايخ جماعة الهداية"

"لا. بل سأجده بنفسي"

"إذن جده بنفسك واجعل إجابته لنفسك، أما إجابات الأستاذ نيقولا الأخرى هي مستقبلنا يا صاح، لقد أثبت لي ذلك ولا بد أنه قد أثبت لك"

"لقد أثبت الأستاذ نيقولا اليقين الذي كنت أبحث عنه"

"وما هو؟"

"أنه لا أحد يعرف عن الله أكثر من الله نفسه وأني يجب أن أسأله هو لا أن أسال غيره".

لم يفهم دراجان حينها ماذا يقصد لكن في الأيام التالية علم أن عزت انضم مع ثلة من الطلاب الدراويش إلى ما أسموه جمعية الشبان المسلمين، قد لا يكون عزت هو الفرد الأهم فيها لكنه لا شك العقل المفكر لها، وحين نافست منشورات الجمعية منشوراته الاشتراكية خاصة في أوساط البوشناق وهم الأغلبية في سراييفو وقرأها مرارا ومرارا، علم أن أسلوبها يذكره بأسلوب سمعه من قبل. نصحه الأستاذ نيقولا أن يتحاشاه وقد فعل، لكن باقي الطلاب لم يفعلوا وصار النفوذ الفكري في المدرسة بعد أن كان اشتراكي الهوى إسلامي الاتجاه، العجيب برود أستاذ نيقولا، وحين سأله عن السبب:

"لطالما كان المسلمون مختلفين ومتخلفين، لا أمل منهم!"

"لكني مسلم أيضا يا أستاذ، أو هكذا تقول هويتي"

"هناك فرق. أنت تنتمي لهنا. هم ينتمون للصحراء، هم جاؤوا منها ويريدون العودة لها زمانا ومكانا، دعهم فإن سفينتهم لن تبحر في الرمال".

لم يكن موضوع هويته هذا يؤرقه من قبل، بطريقة ما هو ينتمي لأمه الصربية المسيحية غير المتدينة، يشبهها خلقا وخلقا. أما أبوه المسلم المتصوف فله أدمير أخوه الأكبر. هذا هو التوازن في ذلك البيت المنقسم بالفعل منذ زواج أبيه وأمه، ربما هذا هو ما يقصده نيقولا... لطالما حيره اختلاف العادات بين الأب والأم وحين كبر وفهم مسألة اختلاف الدين وجد مبررا، لكن الآن المبرر مختلف. الأب ينتمي للثقافة البدوية المسلمة والأم تنتمي للثقافة الأوربية المتحررة، لكن أليس الأب البوشناقي جذوره أوربية تماما وأجداده عاشوا في حوض السافا لقرون مضت؟ لم يشغل باله بهذا السؤال. كان

يرضى بالقليل ليريح باله من ضوضاء الأسئلة، لكن الضجيج الآن في ذهنه إذن ما فائدة ما يفعل أو يعتنق؟

"وهل هناك أمل يا أستاذ نيقولا؟"

يسأله فيرد باسما:

"يا بني، أنت هنا وسط البوشناق المسلمين لكن لو نظرت لصربيا وما حولها وكرواتيا وما حولها لعرفت أن يوغسلافية أوسع بكثير من هؤلاء الهمج، المقاومة الشيوعية الآن تنظم صفوفها في طول البلاد، كنت أتمنى مشاركتنا هناك لكن قدرنا للأسف ها هنا في انتظار أن يبحثوا عنا ليجدونا، دورنا قادم فاصبر!"

لم يتذكر دراجان تلك الكلمات إلا بعد سنوات كانت هي الأصعب عليه. لقد استسلمت يوغسلافيا في أبريل ١٩٤١ للسيطرة النازية وحين تخرجه من المدرسة الثانوية وجد نفسه مجندا إجباريا ويا للعجب في صفوف دول المحور لكن الأهم، لمواجهة من؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبيعة دراجان الساخنة تجعله قد يتأقلم على الحياة العسكرية التي ربما ترضي غروره في إظهار القوة والحماس وربما العنف، كما أنه كان غير مبال دائما ولم يكن ينظر كثيرا للماضي ولا يفكر في المستقبل ولا يشعر بالحنين لأحد، إنه أشبه بالحيوان البري لا يأنس أو يستأنس لكنه يعيش منطلقا يبحث عن صيد يومه، فقط علق بذاكرته الماضي القريب في حماسه الشيوعي الذي جعله يجول أحيانا في مستقبله الموعود كما أخبره نيقولا بإيمان حقيقي أشبه بإيمان المتدينين. المستقبل لهم وحتمية التاريخ ستأخذ مجراها وحينها سيحين دورهم، وكان الأستاذ نيقولا الوحيد ربما الذي شعر حياله بشعور وإن كان أقل درجة من الحنين، لكن مع ذلك غلب عليه عدم المبالاة في الوقت الذي غلب كل زملائه من المجندين شعورهم بالإحباط والخوف وأن ذلك ليس ذنبهم وأن تلك ليست حربهم. لامبالاته استمرت حين بدأ يشعر بالأرق وذلك عشية إعلان هتلر الحرب على السوفييت والتكهنات في معسكر المستجدين على الحدود المجرية، إن أول حروبهم ستكون شرقا لا غربا كما كانوا يتوقعون ويخمنون، كانت تلك من المرات القليلة التي تذكر فيها كلمات أستاذه نيقولا، هل أخطأ الأستاذ في تقديره أم هتلر الذي أخطأ؟! وهل التكهنات صحيحة؟! هم بالفعل من أقرب النقاط إلى السوفييت، هل سينطلقون في حملة الغزو؟! أم أن المتكهنين مخطئون أيضا؟!

بعد عدة أيام عرف أن الأمر حقيقي وأن معسكرهم بالكامل سينضم لفرقة مجرية ستشارك فيما أسموه (الجبهة الشرقية)، وبمعنى أدق جنوب الجبهة الشرقية، الخطة بالطبع لم تكن معلومة للجنود لكن بدا واضحا أن الخطوة الأولى ستكون الوصول للحدود السوفيتية في أوكرانيا. كانت الحركة سريعة والفرقة لا تكاد تتوقف والقيادة أكثر صرامة وإن أعاق قسوتها عدد الجنود والسرعة المطلوبة للحركة فلا وقت للتأديب للقادة، كما لا وقت للراحة للجنود، ألهاه التعب وقلة النوم والتغذية عن التفكير مطولًا في مصيره وقد علم أن المعسكر كان رفاهية، كما كان يصر قائده في حديثه لهم، وأن خطوط النار جحيم حقيقي فما باله يتضرر وهو فقط في الطريق لتلك الخطوط ولم يصل بعد! بدا له

أن الحرب ليست قتالا بل ماراثونا، فقد عبروا رومانيا بكامل قطرها مشيا على الأقدام، بل أنهم توغلوا في أوكرانيا دون أن يدروا، وكانوا يقابلون فرقا في طريقهم توحد المسير وبدون أي مقاومة.

بدا له أن العالم تحول إلى بيت أشباح أو مقبرة، فرغم الجو الصيفي والشمس الساطعة لم يقابل أحدا في المزارع والطرقات، فقط من وراء النوافذ كانوا يلمحون العيون التي تلمحهم بدورها؛ عيون مذعورة كسمة مشتركة ثم تختلف السمات بين فضولية ومشجعة ومستهجنة. ذات مرة وأثناء مروره بمزرعة صغيرة ترعى الأبقار حول منزل صغير محاط بسور قصير إذا بطفل ينطلق خارجا ينطق كلمات بلغة لم يفهمها، كان يجري باتجاه الفرقة التي تسير ولا تفعل شيئا غير ذلك لا يلوي على شيء، لكن دراجان توقف ولا يعلم لماذا وأمسك بالطفل قبل أن تدوسه الأقدام، وحمله ليضعه خلف السور من جديد إلا أن أمه سرعان ما جاءت مهرولة، كانت بسيطة للغاية ممتلئة قليلا حافية الأقدام عارية الذراعين نهداها يهتزان تحت عباءة صيفية، لم تكن النساء تروق لدراجان كثيرا حتى تلك اللحظة التي شعر فيها أنه قد بلغ البلوغ للتو، لقد غير سرواله فيما بعد وهو يتعجب مما حدث. ثم اكتشف ببساطة أنه لم ير نساء منذ عدة شهور، لقد كان شعورا مخجلا. هل دراجان صار يخجل؟! هل صار يعبأ ويبالي؟! نعم ففي راحتهم القصيرة التي ليس لها موعد ليلا أو نهارا، كانت تأتيه تلك المرأة في الصحو والمنام، بصيغه أدق؛ عيناها الخائفتان اللتان نظرت بهما إليه وهو يمسك ولدها وكلمتها التي قالتها دون أن يعرف معناها حينها، غير أن لحظات الهيام تلك لم تدم فقد صاروا على مشارف كييف وحينها بدا أن المعركة على وشك أن تبدأ، توقفوا فجأة... توقفوا عن أية تمارين أو هتافات،كان مطلوبا منهم الصمت بالنهار بدون كلام والظلام بالليل بدون نار، تم إعادة تقسيمهم لفرق صغيرة، وتم تقسيم الفرق لموجات، وكان نصيبه في الموجة الثانية، وفي تلك الليلة خلع بعض الجنود ستراتهم دون أن يراهم قادة السرايا ولما مر أحد القادة ورأى هؤلاء لم ينهرهم قط، بل ضحك وقال:

"افعلوا ما تشاؤون الليلة، المهم ما تفعلونه في الغد"

"وماذا في الغد أيها النقيب؟"

قالها دراجان، فرد عليه النقيب:

"ربما لن يكون بعضكم ها هنا"

لم ينم أحد ليلته وبالنهار بدأ الزحف البطيء وبدأ الرصاص ينهال وطلقات المدافع، كانت هناك فرقة من المدفعية ملتحقة بهم فلم يعلموا أي صوت يسمعون، مدافعهم أم مدافع السوفييت! وبعد صمت مفاجئ بدأ الأمر بالزحف السريع، انطلقوا يجرون... إلى داخل تلك القرية على مشارف كييف. كان الصمت ساريا ما زال، هل مات الأعداء؟ أم هربوا؟ أم أنه الصمت قبل العاصفة؟! وبمجرد تجاوز الموجة الأولى لخط السكك الحديدي الذي كان هناك انفجرت ألغام لا عد لها وتحولت الأرض إلى براكين صغيرة من اللهب، رأى دراجان ذلك بعينه، النار تخرج من الأرض والأشلاء تخرج من الرجال. ظل يردد اللعنات ولم يكن وحده وحين أتى الأمر للموجة الثانية بالاقتحام نظر حوله وكاد أن يولي مدبرا، لولا أن رأى الرصاصات في الخلف تحصد من حاول الفرار، كانت الفرقة الألمانية التي ليست مهمتها قتل أعدائهم بل قتل من لا يقتل أعداءهم، هكذا انطلق يتلمس طريقه بين الأرض المشتعلة ويطلق الرصاصات دون تمييز أفي صدر عدو أم صديق! كانت الرصاصات كذلك تحصد

من حوله وإحدى الشظايا أصابت فخذه فسقط وزحف لأقرب كوخ قريب، انكفأ يحاول إيقاف الدم من الجرح ويبحث عن شيء ليربطه، لكنه أحس بحركة داخل الكوخ وحين التفت وجد ثلاثة رجال لا يرتدون زيا عسكريا ولكن يحملون البنادق وهذا معناه أنهم سوفييت، فلاحون ربما تم تسليحهم أو سلحوا أنفسهم. حاول أن يقوم واقفا رافعا يده لكن أحدهم قال بسخرية بالروسية التي يعرف طرفا منها:

"لسنا جيشا لنأسرك، نحن ندافع عن أرضنا وسنقتل كل من يحاول أخذها"

"لكني صربي، صربي... لست ألمانيا. اللعنة على الألمان، أنا صربي أقرب إليكم، أنا أعرف الروسية"

كان مترددا وكلماته كذلك، بينما بدا عليهم التردد هم أيضا، وهم ينظرون من شباك الكوخ الصغير ليقنصوا المتقدمين، قال أحدهم:

"لا وقت لدينا نضيعه"

وصوب على رأسه بينما أسرع الآخر خافضا بندقيته قائلا:

"على رسلك. هذا شاب صغير لا ذنب له، جنده الألمان أولاد العاهرات"

"ماذا تريد؟ أن نتركه لهم فيقتلنا ويقتل أبناءنا ثم يقول لا ذنب لي ويلعن الألمان"

سكتوا للحظة بينما الثالث لم يتحدث قط، فقط ألقى نظرة عليه وبمنتهى البرود قام بالتصويب إلى موضع الجرح تماما وأطلق رصاصة فانطلقت صرخة دراجان ولم يكد أصحابه أن يسألاه عما يفعل حتى أطلق الرصاصة الثانية في فخذ دراجان الآخر فانطلق صراخه من جديد قائلا:

"هذا حل وسط. لن نقتله ولن نتركه، هل أنتم راضون الآن..."

ثم نظر لدراجان قائلا:

"وهل أنت راض أيضا؟"

اقترب الرصاص من الكوخ فانخفضوا جميعا بينما انخفض دراجان رغما عنه، فإنه فقد الوعي ولم يستيقظ إلا بعدها بأيام محملا في عربة متجهة به وبمثله إلى سراييفو من جديد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فضل الله

لم تفارق صورة المدرسة مخيلته حين دخلها أول مرة، وليست الصورة إلا واجهة يسترجع بها شعورا أليما لذيذا. يذكر حين رأى أنوارها من بعيد والمئذنة المرتفعة من خلفها القبة التي كان يظنها شكلا مقدسا للإسلام،كان سعيدا ولم تكن سعادته أنه سيصل أخيرا بعد تلك الرحلة الشاقة التي استمرت منذ شروق الشمس إلى مغربها، ولكن سعادته أنه سيأوي إلى مكان مغلق يقيه سموم البرد الذي كان ينخر ضلوعه حتى صار على مشارف قلبه، كانت العربة التي يركبها متهالكة كثيرا عاتية

القدم نوافذها مكسورة وسقفها يخر منه ماء المطر، الأحصنة عجوز والسائس كذلك، لا ريب أنها أرخص عربة في البلدة بل ربما في البوسنة كلها. كان يعذر أباه، بل ويمتن له، لقد أشفق عليه أبوه من العمل في تلك السن وأشفق عليه من الجوع والجهل في قريتهم النائية. لذا، كان هذا هو الحل الوحيد، لا زال يذكر كذلك كلماته الأولى والأخيرة، أما الأولى:

"بني، لقد أتممت الرابعة عشرة وربما تبلغ مبلغ الرجال قريبا، لم يعد يحل لك أن تلهو وفقط، الحياة جهاد. كان يفترض بك بعد أن تعلمت القراءة والكتابة والحساب أن تتعلم حرفة أو تعمل في حقول القمح، لكني دبرت لك أمرا أفضل من ذلك، سأرسلك لتتعلم العلم الشريف في سراييفو".

لم يكن يعلم معنى ذلك على وجه الدقة، ورغم بكاء أمه الذي لم يفهمه بدا له الأمر مسليا، سيذهب إلى سراييفو التي طالما سمع عنها، بل وسيصبح شيخا ويتعمم ويخطب في الناس. سيفضل أخاه وابن عمه وأقرانه، مرحى... ومضى يخبر من يلقى بأنه راحل، حتى نسي هو الأمر ونسوه. فقد مضى شهر وربما اثنان حتى وجد أباه يناديه من جديد، ويقول له بتأثر متظاهرا بالثبات:

"حان وقت الرحيل يا بني، غدا في الفجر ترحل مع خوان العجوز، أمك ستصنع لك غذاءً للطريق، لن تحمل إلا ملابس النوم أما بقية شأنك فستتكفل به المدرسة. إن الشيخ شريفيتش سيستقبلك ويعتني بك وستدرس على يد العلامة الخانجي، إنه رجل مبارك درس في الأزهر ويتقن العربية وصنف المصنفات، أتمنى أن أراك مثله يوما"

ربت على كتفه وقبل جبينه وقد امتلأت عيناه بالدموع، فهم حينئذ بكاء أمه لكنه لم يبك، بات ليلته دون أن ينام، وفي الصباح كاد أن يختبئ في جرن القمح حتى لا يراه أبوه ولا خوان العجوز، لكنه لم يفعل. لقد تذكر كلمات أبيه الأولى، لقد صار رجلا. وهكذا كان أول المستيقظين ووقف في الخارج يستقبل الندى وبعض قطرات الأمطار، ودعه أبوه وأمه وأخوه ووعده أبوه بالزيارة، لثوان كره أباه وكاد أن يقول له أنه لا يريد أن يراه، وحين ركب في العربة ومضت في الطريق خارجة من بلدته التي لم ير غيرها بكى. بكى بشدة، كالمطر المنهمر من فتحات السقف، حتى نام أو أغشي عليه وحين صحا كان يتجمد بردا. وحين حل الليل بدا أنهم يعبرون جسرا ثم بدت الأنوار تتراءى له؛ أنوار متراصة وبيوت كثيرة بل وبنايات من عدة طوابق، شوارع ممهدة وناس يرتدون زيا أفرنجيا ونسوة سافرات الرأس والأطراف، أخذ يتهجى حروف المحلات ثم انتبه للأمر. هذه البلدة كبيرة جدا وهؤلاء الناس كلهم أغراب، هذا لا يدعو للبهجة بل للخوف! عصف به الشوق، في مثل هذا الوقت كان يعود لمنزله بجوار الفرن بينما أمه تصنع الخبز وهو يتدفأ بالنار، قد ينام مكانه وقد يختلس الخبز من أمه، ثم يناديه أبوه ليصلي معه العشاء في جماعة فيقوم متكاسلا. وساعات أخرى كان يعود أخوه من العمل باكرا فلا يناديه أبوه ويكتفي بأخيه، آاه... يتمنى الآن لو صلى كل الفروض مع أبيه بشرط أن يظل هناك، في الطفولة مكانا وزمانا، عاد يتجمد من جديد والليل يزداد ظلمة، حتى ناداه أخيرا العجوز قائلا:

"مرحى. ها قد وصلنا"

اقترب من النافذة ينظر فأردف السائس:

"تلكم الأنوار والقبة والمئذنة. إنهما المسجد والمدرسة"

ظل ينظر وينتظر الوصول الذي صار على بعد دقائق ليستشعر لذة الدفء وينسى ألم الرحلة من الديار والطفولة، وحين نزل من العربة وهو لا يشعر برجليه من طول الركود لسعه البرد فأجبره على الإسراع، كان مكانا عريقا حقا، لم ير مثله قط، هذا الطوب وتلك الأعمدة وهذه الأبواب... يا للعظمة.. وحين دلف وسأل عن الشيخ شريفتش، فإذا برجل وضيء يخرج من إحدى الغرف ويقول له:

"ابن سلاجيتش أليس كذلك؟ أنا في انتظارك منذ العصر"

ابتسم وتلعثم وهو يحاول شرح سبب التأخير لكنه أشار له أن يهدأ وقال له:

"أنت مرهق للغاية وجائع بالطبع، سآخذك إلى منزل الطلاب، ثم سأحضر لك الحساء الساخن. تعال معي"

وقبل أن يرد مشى أمامه فتبعه مسرعا، لكنه سرعان ما التفت إليه ثانية وقال:

مرحبا بك في مدرسة الغازي خسرو بك يا فضل الله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا أحب خسرو بك سراييفو إلى ذلك الحد؟ أحبها قبل أن تولد كأنها ابنه المنتظر، فلما ولد اعتنى به كأب وأم، لقد أفنى عمره من أجلها وماله وجهده، بناها حتى الكمال وأوقف عليها مئات الأوقاف من ماله ولم يتزوج أو ينجب انشغالا بأحوالها والذود عنها واتساع مملكتها، كان واليا عثمانيا لا شك بل وعثمانيا مقربا. لكنه كان بوسنيا حتى النخاع، هل لأنه بالفعل ولد في البلقان؟أم لأن أمه كانت بوسنية كما يقال؟! أيا كان، لقد كان خسرو بك رجلا من أهم رجال البوسنة ويمكن القول إنه من بنى سراييفو بل البوسنة كلها، ولا سيما مسجد خسرو بك الذي لا زال أهم مساجد سراييفو ومكتبته بها من المخطوطات ما يفوق مثيلاتها في بلاد المسلمين، أما مدرسته فهي لا تزال تصنع العلماء والنجباء، وها هو العلامة محمد الخانجي البوشناقي أو كما يعرفه البوسنيون قبل شهرته في الأمصار بـ (محمد خانيتش) يتربع على سدة التدريس في مدرسة الغازي.

لكن لماذا أحب العلامة الخانجي مدرسة الغازي خسرو لهذا الحد؟ هل لأنها المدرسة التي درس فيها ما تعلم من علوم القرآن والحديث والسير؟أم لأنها ملحقة بمكتبة الغازي خسرو التي قضى فيها جل ساعات نهاره بين قارئ ومصحح ومصنف؟ أم ربما لأنها جزء من سراي البوسنة التي أحبها وألف الكتب في ذكر أعلامها؟! أيا كان، لقد كان خانيتش أحد أهم علماء سراييفو بل البوسنة كلها، ولم يُر متفرغا أبدا بل أن وقته بين المكتبة والمدرسة والمسجد ولقاء السائلين وإملاء المقالات.

لكن لماذا أحب فضل الله الشيخ الخانجي لهذا الحد؟ كان فضل الله يعتبره ملاكا لا شك، فبعد أن تعود على المدرسة في أسابيعه الأولى وتعرف كل مشايخها وطلابها علم أنه الخانجي هو حقا الجدير بالاهتمام، وبعد أن أعجب بحياته الجديدة تضاعف إعجابه بهذا الرجل فظل يتبعه كظله، ولم يكن الشيخ يعلم عنه شيئا ولم يكن يدرس لصفه الأول سوى مبادئ العربية التي يتقنها الشيخ كأهلها بل كشعرائها وهو بالفعل واحد منهم، لكنه كان أحيانا يتسلل وينصت لصوت الشيخ وهو يقرأ أحد كتب

الحديث على حلقة من الطلاب الكبار، لم يكن يفهم شيئا لكنه كان يريد أن يرى الشيخ بعد انتهائه بينما يقبل الجميع يده. وكان الشيخ متسننا أي ينأى بنفسه وبالعلم عن ما يراه من خرافات الصوفية المنتشرة في البلاد، وكان أسعد لحظات فضل الله حين يبين عوارها فيبرز له أحد المتأثرين بالتصوف فتنشب مناظرة لا يفهمها، لكن ظاهر ما يفهم انتصار ساحق للشيخ يعجز خصمه عن الرد وتتصاعد صيحات التكبير والتهليل إعجابا برد الشيخ. صار يتبعه حتى في خلواته، ينظر إليه من شباك المكتبة يذهب ليصلي في المسجد بقربه، صار بطله، لماذا ولماذا يبحث عن بطل من الأساس؟! وماذا يريد منه؟ لكن هذا السؤال الأخير لم ينتبه له إلا عندما سأله الشيخ بنفسه، ولذلك قصة أخرى، فحين كان ذات مرة يصلي العصر في مسجد خسرو بك بعد أن أنهى دروسه اليومية ولم يلحق بأقرانه بعد الصلاة وبقي جالسا يرقب الشيخ خانيتش كعادته وكيف أقبل عليه المقبلون والسائلون، وكان عادة حين يلاحظ انفضاض الناس عن الشيخ وقرب رحيله فهو يسبقه إلى الرحيل، وحين قام مقتربا من الباب سمع من يناديه:

"أيها الطالب الراحل، فيمَ كان بقاؤك؟"

لم يكن ثمة غيره فنظر فوجد أنظار الشيخ ومن بقي حوله معلقة به بالفعل، شعر بالرعب. لم ينطق وأسرع الخطى هاربا.

"أمسكوا هذا الفتى!"

انطلق بعض المتحلقين حول الشيخ في أثره، لم يصدق، هل يطاردونه؟ ولماذا؟ ولماذا يجري هو كذلك، مم يخاف! كانت لحظة من الجنون وحين أمسكوه وقفلوا به للشيخ في المسجد كانت المرة الأولى التي يراه غاضبا، وأول ما قال متلعثما:

"أأأأ أنا لم أفعل شيئا، لا شيء"

قال أحد الممسكين به:

"إذن لماذا تجري؟"

أشار له الشيخ بالصمت، وكان هذا إيذانا أن يسكت الجميع ثم قال الشيخ بهدوء السؤال الذي لا يعرف له التلميذ إجابة:

"ماذا تريد مني؟"

"لا أريد شيئا"

"أنت تراقبني هنا وفي المكتبة، أتحسب أني لا أراك؟"

"لا أحسب شيئا"

"قل ما عندك"

"أنا... أنا فقط... أحبك يا شيخنا"

ضحك الواقفون بينما ابتسم الشيخ:

"بني أنا أحبك أيضا ما لم تكذب علي"

"بالله إني أحبك"

"لماذا؟"

تلجلج قليلا وقال:

"الناس كلها تحبك"

"أنت صغير يا بني، لا يجدر بمثلك أن يحب أمثالي"

"إذا أحب حب الناس لك!"

لكن الشيخ بدا غير مصدق، وقال:

"يا بني قل لي إذا كنت تحبني من أرسلك لتراقبني؟"

"لا أحد، أقسم لك"

"هل هم الصوفيون هداهم الله أم الكفار حاربهم الله؟"

"أنا لا أعرف أحدا من هؤلاء، أنا لا أعرف إلا شيوخ المدرسة وطلابها، أنا لم أر سراييفو إلا مرة واحدة"

ظهر العجب على وجه الشيخ للحظة ثم سأله:

"من أين أنت؟"

"باهيتش"

"حسنا، ابق معي"

وحين انصرف تابعو الشيخ فرغ هو لفضل الله، وحين تعرف عليه عن قرب قربه، وصار يناديه بالاسم في دروس صفه وأحيانا ينتدبه ليحضر معه شيئا أو يساعده في حمل شيء. ومرت سنوات الدراسة على هذا الحال وكان أبوه يأتي ليراه مرة كل شهرين أو ثلاثة، وكان يقضي الصيف عند أمه مساعدا لأخيه، لكن في السنة الأخيرة بدأ يشعر بالقلق، لم يكن يدري كثيرا عن العالم الذي يسوء أمره ويقبل على حربه العظمى ثانية، ولم يكن يعرف سبب تدهور حال بلاده التي علم فيما بعد أن أكثر ما يتدهور بها أحوال المسلمين، فالمدرسة التي صودرت بعض أوقافها وقلت مواردها وعطاياها وضُيّق عليها بل على الأئمة جميعا بدت له علامة سيئة لمستقبله الذي بدا كأنه ولد ميتا. كان أمله بعد التخرج أن يعين إماما لكنه الآن يسمع عن حل لجنة الإفتاء والأئمة من الأساس، وتأكد لديه هذا السماع حين زار شيخه مرة في المكتبة فوجده متجهما يمسك بالريشة بيد مرتجفة سريعة الكتابة، عادة يتركه حين يجده مشغولا لكنه اقترب منه تلك المرة سائلا:

"مالك يا شيخنا حفظكم الله؟"

نظر إليه ثم واصل الكتابة مع الحديث.

"ألا تسمع ما يجري؟! لقد ألغوا منصب الإفتاء العام في بوسنة"

"إنا لله وإنا إليه راجعون، من فعل؟ ولماذا؟"

"تلك هي المصيبة، من فعل ذلك ممثلنا في جمعية الحكم، محمد سباهو يهادن الكفار والمنافقين على حساب الدين، أنا أكتب ردا سريعا الآن لأرسله فورا"

سكت وقد بدا له هذا شنيعا بالفعل، يعلم أن الشيخ يتكلم عن أثر ذلك على الأمة لكنه يفكر الآن في أثر ذلك عليه، ولما وجده الشيخ صامتا عاد ليسأله هو تلك المرة بحنان:

"مالك!"

"أنت تفكر في بوسنة وأنا لا أفكر إلا في نفسي"

"لا بأس يا بني أن يذكر المرء نفسه، قل لي فيم تفكر؟"

"شيخنا، أنا سأنتهي هذا العام من الدراسة ولن أستطيع أن أعود ثانية لأبي فأثقل كاهله، إن ما لديهم يكاد يكفيهم وأخي الأكبر يكاد يتزوج ولم يعد لي حتى مكان في المنزل، لو لم أجد عملا هنا فأنا ضائع"

سكت الشيخ للحظة ووضع الريشة مفكرا.

"أفهمك يا بني، لا شيء مضمون الآن ولا نعلم حتى من سيكون مسؤولا عن تعيين الأئمة وتوزيعهم، قد يأخذ هذا سنينا في ظل الكبوة التي يمر بها المسلمون وبلادنا والعالم أجمع. إن الفوضى تعم يا بني"

عاد الصمت من جديد لكن تبعته ابتسامة الشيخ الهادئة.

"إن الله يدافع عن الذين آمنوا يا بني فلا تقلق!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن فضل الله رغم قضائه في سراييفو ما يقارب الأربع سنوات يعلم الكثير عن أحيائها، كان أغلب العطلات يقضيها في سكن المدرسة، فهو لم يكن يملك نقودا لينفقها خارجا في النقل أو الطعام وإن كان أحيانا يخرج مع بعض زملائه بعد إلحاحهم.

ولكن كانت وجهتهم غالبا لا تتغير كثيرا، الجزء الأحدث في المدينة المبني على الطراز الأوروبي وتنتشر به العلامات الأجنبية والنساء السافرات، لم يكن يحب ذلك كثيرا فمن جهة هو من الريف ومن جهة هو أمام أو في طور التكوين. لكن نزق المراهقة وكبت المدرسة كان يدفع بعض زملائه للذهاب هنالك، ورغم قرب الجزء القديم من المدينة أو ما يسمونه المحلة العثمانية من المدرسة إلا أنه لم يذهب هنالك هو أو زملاؤه، وكانت أول مرة في آخر يوم للمدرسة بعد أن حصل على الإجازة للخطابة والإمامة، حينئذ ذهب لشيخه كما طلب منه ليذكره بأمر هام، وحين رآه من بعيد بش له وقام

معه وخرجوا من المدرسة ومشوا سيرا على الأقدام دون أن يسأل فضل الله عن الوجهة. وما هي إلا دقائق حتى كانوا فيما يشبه السوق، لكنه سوق قديم الطراز حتى بضاعته ورواده، اسمه سوق بيزيستان، ظل ينظر للناس من حوله وكأنه لم ير من قبل بشرا، حتى توقف الشيخ فتوقف معه أمام دكان يجلس أمامه رجل متوسط العمر لكنه أبيض الشعر، وبمجرد أن رأى الشيخ قام واقفا مرحبا بل وحاول الانحناء مقبلا يده فامتنع الشيخ بشدة، وحين نظر له حانت لحظة التعرف عليه والتعرف على سبب وجوده. قال الشيخ:

"هذا ابنك الجديد فضل الله، يحفظ ثلث القرآن ويعلم العربية وقرأ على متون الحديث، إنه ولد صالح، سيعينك في الدنيا والدين".

تحولت نظرة الاستفهام في عين الرجل إلى محبة مفاجئة، وضم فضل دون سابق إنذار بينما ينظر لشيخه هو هذه المرة مستفهما فقال:

"هذا شيخ أمير، أبوك الذي لم يلدك، رجل طيب يبجل العلم والعلماء حتى الصوفية هداهم الله وهداه".

وحانت منه التفاتة إلى الرجل الذي تجاهلها وحول نظره لفضل الله قائلا:

"أهلا بك"

لأول مرة وجد فضل الله نفسه مضطرا أن يسأل السؤال الهام:

"ماذا أفعل هنا؟"

ضحك أمير وقال للشيخ معاتبا:

"ألم تخبره يا شيخنا؟"

"فلتخبره أنت"

"انظر يا بني، أنا في حاجة لمساعد لي ها هنا، إن ابني أدمير في مثل سنك وسأرسله للدراسة في الجامعة وبعد أن كان يساعدني من سيفعل، هل توافق أنت؟"

لم يرد فضل للحظة وكأنه يستوعب.

"ماذا؟ هل تريد الذهاب للجامعة أنت أيضا؟"

قالها أمير، فرد الشيخ:

"لا حاجة له. إنه يحمل العلم الشريف يسمو به فوق كل علم"

"أعلم شيخنا. والله لو استطعت أن أعود بالزمن وأجعل ولدي يدرس على يديك لفعلت".

ابتسم الشيخ وودعهما، بينما بقي فضل الله لا يعلم ماذا يفعل، لكن السيد أمير علمه كل شيء من البداية، بعد أن أراه المحل المتخم بالبضاعة واستقبل زبونين، حكى له عن الحال الذي لم يعد كما كان، حال التجارة الدنيوية المتردي وحال طاقته الروحية المرتفعة وكأن الاثنين نقيضان، وهما

بالفعل كذلك، كانت زيارة أمير للحضرات تؤتي ثمارها، وبعد أن كان حزينًا على تجارته وأسرته المفككة صار لا يهتم إلا بروحه فإن خلصت خلص ما حوله، فالنفس مرآة الوجود كله، لكن مع ذلك لم يخلص له في النهاية إلا أدمير الذي وجد فيه عرق جده، كان وفيًّا حنونًا، ساعده في المحل وفي المنزل، وكان يذهب معه للصلاة ويستأجر له العربات للذهاب إلى الحضرات البعيدة. أما الشيخ الخانجي فقد تعرفه صدفة، فقد كان زبونه وهو لا يعلم يشتري منه بعض العطور الشرقية، ولما تصادف وجود أحد مشايخ الصوفيين قامت مناظرة فمشادة لكنه عرف قوة الشيخ في العلم وزاره بنفسه بهدية قيمة عطر خاص من المغرب فرضي الشيخ وصاروا أصدقاء وإن لم يغير توجهاته الصوفية وهو يفسر ذلك بقوله:

"لقد وجدت روحي هناك ولن أخاطر أن أفقدها"

"أريدك يا بني أن تحل محل ولدي أدمير، ليس فقط في التجارة".

ولم يكن فضل الله ولدا له، قدر ما كان هو والدا له واعتبره أدمير آخر، علم كذلك أن له أبناء آخرين، ابنه الأوسط دراجان وهو أشبه بعدو وليس بصديق، لم يهتم كثيرا به ولم يره إلا قليلا رغم زياراته المتكررة للبيت حين كان يدعوه أبوه للغداء فقط، الأم يراها وهي تضع الطعام والصغيرة أديلسا المبتسمة دائما تجلس مع أبيها أو أمها لا يهمها، أما أدمير فقد كان من يأتي إليه كلما أتى من جامعته وقد نشأ ود متزايد بينهما، فأدمير كان في جمعية مسلمة ورغم توجسه من تلك الأمور كما كان يحذره شيوخه إلا أن يُعرف شخص بإسلامه أو اهتمامه على الأقل بذلك لهو شيء نادر في أيام الفتن تلك. اعتاد حياته الجديدة، فقد جهز المخزن كغرفة لإقامته وبين الفينة والأخرى يراسل أباه، زاره مرة وزار أخاه وفوجئ بأولاده، اشتعلت الحرب في العالم بعد ذلك بعام لكنه لم يهتم كثيرا وحتى حين اقتربت من بلده بل وطالتها لم يهتم كذلك، ولا يذكر أنه رأى في حياته جنديا مقاتلا، لقد ظل في المحل طوال الأوقات ولم يهتم بشيء طوال تلكم السنوات إلا بمرض أمه ومرض السيد أمير، فأمه المريضة كانت تنذر بالموت حتى فعلت في نفس أسبوع وفاة أبيه الروحي السيد أمير، كان أسبوعا أسودَ، فحين ذهب لعيادة أمه وجدها قد ماتت وحين عاد يشكو حاله للحاج وجده قد مات... وما زاد شقاءه أنه لم يجد وقتا ليحزن، فقد ألقى عليه أدمير الشاب مسؤولية المحل قبل أن يعود لجامعته وامتحاناته، دارت به الأيام وحسابات الداخل والخارج، الموردون والزبائن، وصار يبيت في الدكان نفسه دون المخزن وبقي على هذه الحال حتى بات ذات ليلة يفكر في حياته ويتساءل متى ستتغير فجأة ثانية كما كانت تتغير دائما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزت

١٩٤٥

كان المشهد أمامي يبدو كلوحة رسمها فنان من عصر النهضة، المثالية والكمال يتدفقان كما يتدفق النهر في قلب المشهد الذي أراه،كان عصر النهضة هو القنطرة بين القرون الوسطى والعصر الحديث في أوروبا، القنطرة بين الغيبية المطلقة والمادية المطلقة وذلك عن طريق تصوير الغيبية ماديا وبشكل حرفي وليس سريالي، الملائكة والشياطين، الله والمسيح والمشاعر الإنسانية، وأنا أؤمن أن الطبيعة هي خير قنطرة بين الغيب والمادة كذلك، فأنا أرى الآن النهر وضفتيه عند إحديهما غابة خضراء من أشجار السرو وعند الأخرى حقول فسيحة من القمح الأصفر اللامع في أشعة الشمس تتوسطها حقول من الأزهار يرتع فوقها النحل وتسمع صداه، بينما الطيور في الغابة ليست أقل دويا، أستطيع أن أذهب لأعوم في النهر أو أقطف بعض الأزهار وحينها قد يقرصني النحل مسببا لي بقعا حمراء أشعر بآلامها، ويمكنني كذلك أن أتمدد تحت أشجار الغابة متكئا عليها بينما تسقط عليّ فضلات طائر أحاول أن أخمن كنهه من صوته، هذا مشهد مادي تماما لكن لو نظرت وراءه وتساءلت، من أين أتى النهر؟ وكيف نما الزرع وكيف تلونت الورود؟ وأين تعلم النحل؟ وكيف تطير الطيور في المهد؟ مهما كانت الإجابة علمية فهي تشرح الكيفية ولا تعرف السببية، هذا هو الغيب المنبثق من مادة، أو المادة المنبثقة من الغيب، كما هو عقلي الذي لا يكف عن العمل والمنبثق من مشاعري، كنت أشعر بالراحة والاطمئنان والأمن والسكينة، والأهم بالحرية، الأفق البعيد حيث التقاء السماء بالأرض، أشعر أنه أفق تفكيري وحركتي وهذا الالتقاء هو ما إليه أسمو فهل له أصل؟

أشعر أنه قد مرت عدة ساعات وأنا جالس أنظر إلى ما أنظر وأشعر بما أشعر حتى حدثتني نفسي أن أبقى هنا للأبد أو حتى يحدث الله أمرا، وبالفعل شعرت باختلاف جعلني أعدل نظري وشعوري، فثمة ظل ضخم قد أطل من جهة الغابة، هل هو مغيب الشمس؟! يا له من سريع ومفاجئ! ثم مهلا، أليست الشمس هنالك بالفعل من الجهة الأخرى فوق الحقول؟ هكذا قمت واقفا متربصا، بدأت أسمع أشجارا تتهاوى وأرى أسرابا من الطيور تفر، إلى أين وممّن؟ بدا التراب يتعالى من الغرب ويغطي شمس الشرق، هل هو جيش؟ بل جندي! نعم جندي واحد عملاق، طوله يصل إلى عنان السماء، إنه يهوي على أشجار الغابة ببيادته الثقيلة، في يده بندقية بينما ينظر أمامه دون أن يرى ما يدهس، هو ليس بوعيه أو هو لا يرانا، هو عملاق حقا أم نحن الأقزام؟ بدأت أنظر حولي كيف يمكن إيقاف هذا المجنون، ولأول مرة ألاحظ وجود البشر. لقد جاؤوا من خلفي وعن جنبي، لكنهم لم يكونوا ينظرون إلى الجندي المتعملق بل لي أنا، ماذا يريدون؟! كان الجو يزداد ظلمة واختناقا، وقبل أن أشير للناس حولي إلى الخطر الداهم إذا هم يحملونني ويسيرون بي باتجاه الوحش الآدمي وهم يهتفون، عزت... عزت.... عزت!

"عزت، عزت!"

ظل اسمي يتردد على حافة النوم واليقظة أو بمعنى أدق في النوم واليقظة إلى أن انقطع النوم تماما وانقطع نداء اليقظة حين صحوت وقال المنادي:

"ماذا، هل كنت تحارب أثناء نومك؟"

أغمضت عيني وفتحتهما عدة مرات حتى تبينت ملامح دينو وملامح الغرفة والسقف الخشبي والأثاث القديم والكتب المتناثرة والشباك المفتوح، قلت بخمول وأنا أحاول النهوض:

"كنت على وشك الحرب"

"الحرب انتهت رسميا بالأمس هل نسيت؟"

قالها وقام خارجا دون أن يغلق الباب، بينما قمت أنا متكاسلا نحو الحمام وحين خرجت يتساقط الماء عن وجهي وذراعي، خرجت من الباب المفتوح ذاته لأجده واقفا يتأمل ساق شجرة قيقب وليدة قمت بزراعتها مع بعض أخواتها في الفناء الأمامي للمنزل الريفي الخشبي المطل على السهل، كانت كل الحقول إما خضراء أو صفراء لذا وجدت من المفيد زراعة شجرة حمراء الأوراق لتكمل دائرة الألوان الأساسية لا سيما والسماء الزرقاء فوقنا، لا يحدنا شيء من رؤيتها فالبيوت هنا من طابق واحد وعلى مسافات متباعدة.

قال لي:

"هل تروي تلكم الشجرة أسبوعيا؟"

"بل كل يومين"

"ما زال الماء يتخلل تربتها"

"هي تحب الماء"

"وأنت تحب العناء!"

التفت دينو إلي واقترب هازا رأسه.

"لو سمعت نصيحتي وزرعت الطماطم لما احتجت لريها من الأساس وستعطيك اللون الأحمر الذي تريد"

ضحكت وقد تذكرت الأمر، أن دينو يفكر كفلاح يريد أن يزرع محصولا ويحصده بل ويبيعه ولو كان شجرة طماطم واحدة أو اثنتين.

"لن أزرع طماطم لتحصدها أنت!"

"بل احصدها أنت ووفر ثمن ما تحتاج من طماطم"

"وهل تهون نفسي أن آكل ما زرعت؟"

"ولماذا تهون نفسك فتأكل زرع الآخرين؟"

ياله من سؤال عويص! سؤال مثل هذا قد يحتار فلاسفة العالم في تحليله ولو كان ديكارت ومنهجه اللعين، سؤال من فلاح يزرع الشوفان في سهول البوسنة، كان دينو ابن عم لي في مثل سني، لا أذكر

أني رأيته في الطفولة، فقد كنا نقطن سراييفو بينما ظل أعمامي في الريف، ربما جاؤوا لزيارتنا لكن دينو لم يفعل وهو يفخر وهو ابن عشرين عاما أنه لم يزر سراييفو إلا مرة واحدة لإثبات أنه موجود فقط، أي لعمل بطاقة المواطن، يقول أنه لا يعرف ماذا أفاد من الحكومة لكنه يعرف ماذا أفادت منه، أنهم يشترون محصوله أو محصول أبيه بمعنى أدق، بثمن بخس ثم يفرضون ضرائب على هذا الثمن. ورغم أن هنالك مدرسة في الجوار، إلا أنه لم يكمل تعليمه بها، لكنه يقرأ ويكتب جيدا، لا تفوته الجرائد، وهو مهتم حقا بأخبار العالم، خاصة أنه وعى مثلي وكان العالم يشتعل مع بداية الحرب وجنون هتلر، بالأمس كانت نهاية الحرب وانتحار هتلر، لم أره سعيدا هكذا من قبل... رغم أن الحرب تكاد لا تمسه في شيء، لكنني أظن أن نفسية رجل يعيش وسط الحقول وظيفته حصد الثمار لا يمكن أن يقبل أو يتخيل حربا بالنيران تحرق المقاتل والمسالم المقاوم والمستسلم، اليابس والأخضر. ولقد فهمت هذا المعنى من أبيه، عمي، فقد كان يقول:

"بالأمس كان القتال بالسيف، ما أجمله! لا يمكن أن تقطف وردا بالسيف أو تقتلع شجرة أو حتى تقتل حيوانا لأنه سيفر منك بسرعته ولا تستطيع أن تقتل آلاف البشر الآمنين لأنك تحتاج لقتلهم أياما وشهورا، أما الآن فما تحتاج سوى لضغطة زر!"

صدق. فرغم أنه للوهلة الأولى يبدو القتال بالسيف خطيرا وبربريا لكنه في الواقع شاعري للغاية، يبدو أن البشرية على عكس ما تعلن دوما تذهب للخراب السريع وليس للسلام، لكن بمناسبة تلك الخاطرة.

"أين عمي؟"

سألت دينو، فقال:

"كعادته كل صباح في برتشكو"

"لكنه تأخر هذا اليوم"

"أنا أنتظره أكثر منك فسيأتي بجرائد اليوم"

"ككل يوم"

"لكن اليوم مختلف"

"ألم تقر عينك بالأمس؟!"

التمعت عيناه كأنه يتذكر.

"بلى، لكن الأجمل دوما من النزال، التعليقات حول النزال"

"لا زلنا داخل النزال. أنت تتحدث لأنك لا تعرف أن الحرب تدور في بلادنا أيضا"

"النازيون يهربون منذ شهور، لقد مر بعضهم بنا"

"نعم رأيت ولكن هذا ليس النزال الحقيقي"

نظر إليّ مستفهما فقلت:

"النزال سيبدأ عندنا ما زال، من يخلف النازيين في حكم تلك الأرض الطيبة؟"

نظر إليّ ولم يرد بينما دخلت أنا إلى البيت هربا من أشعة الشمس الآخذة في التصاعد والتعامد، وحين نظرت في الساعة علمت أني تأخرت كثيرا عن الرحيل، أخذت ألبس ملابسي على عجل بينما رتبت كتبي مترددا، أآخذها معي الآن أم أتركها؟! فلست أدري هل سآتي ثانية إلى هنا أم لا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قسوة الاستيقاظ من نوم عميق لا يخففها حنان اليد وصدق القلب، ألا تنسى أمه موعد صلاة الفجر أبدا؟ ألا تنسى إيقاظه؟ يقوم متكاسل الخطى والإرادة، يخشى أن يلمس الماء البارد للوضوء لكنه يتوضأ، يخشى أن يتلقفه الهواء البارد حين الخروج لكنه يخرج، يخشى الصمت والظلام أثناء سيره للمسجد القريب لكنه يسير، يخشى الانتظار الطويل قبل أن يقيم الشيخ الصلاة لكنه ينتظر، وحين يستعجل جزاء هذا الصبر الطويل يأتيه صوت الشيخ الخاشع: (الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان) حينها يرضى ويتعلم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثمة تناقض بين ضجيج القطار والقدرة على انعزال العقل فيه، فتتوارد الأفكار والخطط والذكريات والترتيبات، بل لا جناح في توارد خواطر لتكتب أو تتلى، ولعل السبب في ذلك هو اختلاط الضجيج بعضه ببعض فلا مميز لعناصره أو مكوناته، صوت الماكينات وصوت البشر، حركة العجلات وحركة الركاب، الهواء المندفع مع مشاهد الطريق والمحتوي على صخب مماثل، لكن ذلك الخليط غير المتجانس يظل سمة مشتركة في ضجيج القطار وتوارد أفكاره، أليست أفكاري الآن مزيجا سرياليا كأنه حلم عابث بين خواطر متباينة؟! ما العلاقة بين تفكيري في الفلسفة وتفكيري في طعام أمي الذي أتوق إليه؟ وماذا يربط بين انتهاء الحرب ولقائي بخالدة؟ ولماذا أتساءل عن مصير جماعتنا وفي نفس الوقت نوع دراستي القادمة؟

لا شك أن ذلك ضجيج داخلي كذلك لا يقل عن ضجيج القطار، لكنني أحسست أن الرحلة هذه المرة مختلفة، إنها لا تفصل فقط بين محطتين جغرافيتين بل محطتين تاريخيتين كذلك، إنه تاريخي القصير حقا، الذي يتغير بسرعة ولا أكاد أجاريه رغم أني البطل والمؤرخ. في البدء كنت طفلا لأبوي العظيمين بدينهما وعقلهما فورثت تدين أمي وحكمة أبي، لكن سرعان ما تحولت بعد البلوغ وفي المراهقة الثانوية لطالب أهوج تساوره الشكوك حول ما يعتقد، في الحقيقة كانت أفكاري متقلبة دوما، لقد نشأت متدين القلب، ولكن عقلي لم ينضج بعد وكان أول اصطدام له مع الشيوعيين في المدرسة الثانوية، بدت فكرة مقنعة وبدا التدين غريبا على هذا العالم، لم يكن من متدينين في مدرستنا ولم تكن تعاليم الدين المتوارثة لتجاري تسارع الزمن وتصارع القوى، بدا كأنها تتكلم عن العدم والشيوعية تتكلم عن المادة فأيهما أولى بالاتباع! قابلت دراجان والأستاذ نيقولا، والأستاذ نيقولا مدرس للتاريخ وكان مغرما بالتحدث عن حتمية التاريخ والتغيير القادم وكيف سيكون العالم شيوعيا خلال عقد من الزمان، فعندما قامت الحرب الثانية قال أن هذا يعني سرعة فناء الإمبريالية وأعداء الشيوعية، كانت بلادنا بل ومعظم بلاد العالم تئن تحت وطأة التمييز وعدم العدالة والمساواة فكان إعجابنا بالثورة

الحمراء طبيعيا تلقائيا، إنها المستقبل وليس لغيرها مكان. وفجأة التقفني تحول آخر يقول: بلى، الإسلام له مكان! وكأن هذا شعار الجمعية الشابة التي حولتني ثانية، الشبان المسلمون، هكذا اسمها، فتحولت ثانية لطالبٍ متدينٍ عن اقتناع وليس عن ميراث هذه المرة وذي نشاط جماعي في جمعيتنا الشابة، ولم يطل زمان النضال حتى صرت هاربا من بطش وتجنيد النازيين ومن عاونهم حين احتلوا البلاد في الريف عند أعمامي وهي من الأيام السعيدة لي، فلم أكسب فقط هربي من النار بل كسبت كذلك لجوئي إلى الجنة في مسقط رأسي؛ شامتس تلك البلدة الصغيرة الطيبة الصافية التي علمتني الطيبة والصفاء بدورها ولكن وكما خرج آدم من الجنة ليشقى وخرج كل طفل من بطن أمه ليبكي ها أنا الآن أخرج لأبدأ طورا جديد لم أعلم بعد ملامحه، بل لعل ذلك سبب خروجي، كي أعلم.

"هللويا!"

خرجت تلك الصيحة عن مزيج الضجيج فأخرجتني من مزيج الأفكار لأتبين الدرويش يسير، هذا الرجل العجيب الذي يتحدث بالعهد القديم ويضع الصليب على صدره والعمامة على رأسه، وكان القطار قد خفت حمولته وقل ازدحام ركابه، فمن كان واقفا جلس ومن كان جالسا نزل في محطته، فناديته كعادتي فأنا وحيد وهو كذلك، جلس إلى جواري وقال:

"الصبي العنيد!"

"لست صبيا، ولكن كيف عرفت أني عنيد؟"

"أنت لم تساوم قط على مقعدك"

"لكني أقدمه طوعا لمن يحتاج"

"إذن عنيد ومجنون!"

ضحكت. هل أنا المجنون حقا؟ إن بعض الركاب قد يطلق عليّ هذا اللقب لمجرد أن أجلس جوار هذا الرجل لكنه قال مردفا:

"لماذا تجالسني إذن؟"

هل قرأ أفكاري؟ أم أنه سؤال عابر؟ أم لعله تفسير لسبب جنوني؟ ترددت لثانية ثم قلت:

"أنا أحب نبوءاتك، إنها تتحقق. ألم تتنبأ بهزيمة هتلر؟"

"لم أتنبأ. فقط أتاني الخبر باكرا"

ابتسمت واقتربت من أذنه.

"هل أنت من أهل الكشف؟"

"اثنان لا أحبهما. من يدعون الغيب ومن يكرهونه"

"قل لي أنك تقرأ العهد القديم واليهود قلة، فأين العهد الجديد والمسيحيون كثر؟"

"إن العهد الجديد مليء بالشفقة على الناس أما القديم فهو حازم مع كل نزوة أو هفوة"

"أولا يحتاج الناس لبشرى؟"

"هل هم يبحثون عنها أم أنهم يسبحون في الوحل كالخنازير؟"

"ولماذا لا تقرأ القرآن إذن؟ إنه كلاهما بشير ونذير"

"القرآن لا يمكن اجتزاء نصوصه، إنه ليس نصا بل روح"

تعجبت منه، إن هذا الدرويش يفهم الإسلام أكثر مما يفعل علماء جمعية الهداية حرفيو النصوص.

"ألن تخبرني عن ديانتك؟"

"كما ترى..."

أشار لصدره ورأسه والكتاب في يده.

"هل تدعو لتوحيد أديان إبراهيم؟"

"بل أقول إنهم لا يزالون مختلفين"

قام فجأة كعادته فهتفت به:

"على رسلك، هذه ربما آخر رحلة لي"

ضحك وقال:

"بل أول رحلة"

قمت أسلم عليه وسألته:

"هل تلك نبوءة أخرى؟"

"بل خبر لم يأتك بعد"

وذهب مختفيا عن ناظري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان دائمًا أصغر الجالسين في تلكم الجلسات، فالجميع أعمارهم أضعاف عمره ولولا وجود أبيه لفارقهم جبرا أو خجلا، لم يكن يريد أن يجالسهم أو يسمعهم بل يريد أن يجالس أباه ويسمعه، أي نعم. هو على فراش المرض وقد أعجزه الشلل لكنه هنا القاضي والحكم، أي نعم هو الضيف على هؤلاء من أهل زوجته لكنه الآن مضيفهم في محكمته لينهلوا من حكمته، ينظر لأبيه طويلا وهو يتكلم ليدرك أن ملامحه لا تشبه ملامحه لكن كلامه يشبه كلامه، وحسبه ذلك من أبيه، فالكلمة فكرة والفكرة تكفيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وصلت سراييفو كان يبدو عليّ ما عانيت منذ الصباح، نوم غير كاف وإرهاق إثر الطريق وهندام غير جيد لما أحمل من حقائب ولما صدمني من حقائب أخرى في قطار الصباح، بدا لي أن منظري يلائم بعضه. فتركته كما هو واتجهت رأسا إلى العنوان المعطى لي، كنت أكاد أعرفه قبلا، كيف لا وهو في ذات الشارع الذي تسكنه خالدة خطيبتي أو هكذا أزعم! وحينما ضربت الجرس ووضعت حقائبي جوار الباب مرت دقيقة حتى فتح لي وجهان، كلاهما أعرفه لكن أحدهما لا أحبه، ويبدو أن العكس صحيح، فحين سلمت على أدمير واتجهت لدراجان متناسيا مشاعري السلبية أشاح برأسه قائلا شيئا لم أفهمه، أحمد الله أني لم آت لأجله بل أتيت لأدمير، وأدمير شاب يكبرني بأربع سنوات وأظن أنه في سنته النهائية الآن في جامعة زغرب حيث يدرس الاقتصاد، ولقد تعرفته في أمر لا يتعلق بجغرافية أو دراسة، فأدمير أحد الرواد النشطين في جمعية الشبان المسلمين، بل قبل الحرب كان من مؤسسيها الذين كادوا أن يتموا إجراءات إشهارها لولا انطلاق الحرب وسقوط البلاد في فخ النازيين وأعوانهم لاحقا. باتت الجمعية غير رسمية وباتت مهمتها الأساسية أثناء الحرب المساعدة في أعمال الإغاثة.

لكن ظل هذا هدفا آخر غير هدف الجمعية الأول الذي هو ببساطة الحصول على حقوق المسلمين خاصة في أراضي البوسنة التي فقدت الاعتراف بها إثر قيام المملكة اليوغسلافية بعد الحرب العالمية الأولى وتقسيمها للأراضي البوسنية وكأنه لم يعد هناك وجود للبوشناق وأن عليهم أن يصيروا صربا أو كرواتا، وكما كان قيام الحرب سببا لوقف نشاطنا كانت نهايتها سببا لإعادة شملنا وها أنا ذا أذهب لمقابلة أدمير العائد لسراييفو بعد غياب كذلك، ونحن بانتظار حسن بيير المنسق العام للجمعية، لكن أين هو الآن؟ قال أدمير:

"أشك أنه جاء ولم يتعرف على المنزل، لم يأت هنا من قبل"

أنا أيضا تعجبت من مكان الاجتماع، هو ليس اجتماعا واحدا، بيبر ورفاقه يديرون عدة لقاءات اليوم استعدادا للغد.

فكرت قليلا ثم سألته:

"عذرا لكنك تعلم أني للتو مودع للريف، قل لي ماذا سيحدث في الغد؟"

"في ساحة المدينة احتفال الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذي يقوده تيتو ومتوقع أن يكون تمهيدا لإعلانهم تشكيل الدستور والحكومة"

كان الحزب الشيوعي هو الأكثر تنظيما أثناء الحرب وقد قاوم الألمان والطليان بعنف أقوى حتى من التشتنيك والأستاشا وهو يبحث الآن عن جزائه وهي يوغوسلافية كاملة بكل عرقياتها، أخرجني أدمير من صمتي وهو يردف:

"دورنا كالعادة إثبات وجود المسلمين والدعوة ضد الشيوعية".

تنهدت، نظرت له طويلا ثم قلت:

"لا أظن أن دورنا قد يفلح تلك المرة"

بدا الذهول على وجهه وقال:

"حتى أنت تشعر باليأس!"

"ليس اليأس ياعزيزي لكنه قانون الكون، سنة الله، كانت حربا. إذن المنتصر يسود"

"وهل انتصر الشيوعيون وحدهم؟"

"واقعيا نعم، لم يقاوم غيرهم وعصابات الصرب والكروات وسرعان ما سيتم احتواؤهم"

سكت فأردفت:

"أنت تريد إثبات وجود المسلمين لكن هذا كذب، أين المسلمون! إنهم لم يقاوموا ولم ينظموا أنفسهم وكانوا يقتلون ولا يقاتلون، أنت في الغد وفي تلك المدينة المسلمة غالبيتها لن تجد سوى الأقلية من المسلمين بينما آثر الباقون البقاء في المنزل"

"لذا نحن هنا ممثلون عنهم"

"يجب أن يختارونا هم أولا، ولكي يحدث هذا لا بد أن نخاطبهم أولا، لا أن نخاطب غيرنا"

سكت وبدا الكلام لا يعجبه، كما أني بدوت عصبيا في حديثي دون داع أمام من هو أكبر مني في داره.

"آسف للغاية. لقد جرفتني الانفعالات"

"لا عليك. سأذهب أتقفى أثر حسن لعله قريب في الأسفل، فلتبق هنا"

خرج مغلقا الباب وتركني أتفحص غرفته من جديد، صغيرة بعض الشيء وبها مرآة منخفضة عن مستوى رأسه، اتجهت نحو الشباك في الجدار المقابل، أجمل ما في هذا البيت موقعه. يقع في قلب مدينة لكنه يطل على أشجار ونهر، المزيج بين الحضر والطبيعة سمة سراييفو، بل سمة البوسنة كلها، البوسنة! هل حقا ثمة بوسنة؟ أم أنها انتهت للأبد؟ كان تاريخها متقلبا. انفصلت ساعة وانضمت ساعات للشرق والغرب والشمال والجنوب، ما أنا متأكد منه أن هناك شعبا بوسنويا، البوشناق منذ الهجرة الأولى من شمال آسيا وهم مختلفون، ليسوا صربا ولا كرواتا ولا حتى ألبانا، وبالطبع ليسوا أتراكا، حتى ديانتهم كانت مختلفة دوما، تاريخ طويل من الديانات الخليطة بين المسيحية والمانية تارة وبين المسيحية والإسلام تارة، ولما غلب الإسلام أخيرا سرعان ما انطفأ نفوذ العثمانيين الفاتحين وتركونا وحدنا وسط أمم ومذاهب متناحرة لم تتجمع إلا على كراهيتنا. خرجت من أفكاري على صوت غليظ يأتي من جهة الباب ميزت أنه حسن بيبر. قصير مدور الوجه ينحسر الشعر عن مقدمة رأسه بينما يرسم شاربه خطا فوق شفتيه، قال لي مازحا:

"بيجوفيتش المثقف"

"بيبر المتحمس"

قلتها له فضحك هو وأدمير، فحسن هو كتلة من النشاط يتحرك بلا توقف ولا أعلم كيف لم يوقفوه أو يعتقلوه حتى الآن، كان أكبرنا رغم صغره، قال وهو يجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة خلف المكتب بينما أتى أدمير بكرسيين من الخارج فجلسنا مقابلته:

"أنتم آخر المنضمين لمجموعة سراييفو"

قاطعته:

"نحن فقط عدنا من جديد، أحدنا من ريف البوسنة والآخر من أرض الكروات"

"ونحن قد بدأنا من جديد، لقد مرت أربع سنوات منذ آخر نشاط سياسي لنا"

هززنا رؤوسنا.

"الوضع الآن مرتبك، من قبل كنا نناضل في دولة موجودة بالفعل، سياستها وحدودها متفق عليها، أما الآن فنحن لا نعرف ما نحن مقبلون عليه، ونحن كمسلمين عامة أضعف الأطراف.

قلت ملتفتا لأدمير:

"ألم أقل لك؟!"

تابع بيبر:

"لكن هناك علامة إيجابية وحيدة، أن الشيوعيين سيعاملوننا كقومية مستقلة غير الصرب والكروات لكن هذا لا يعني أنهم سيكونون رفيقين معنا بل على العكس، قد يكون ذلك مقدمة الاضطهاد، مهمتنا الضغط في اتجاه مقاوم للشيوعية قد يسمح بتقليل خسائر اكتساحهم.

استغل أدمير الفرصة ورد عليّ بسرعة غامزا بعينه:

"ألم أقل لك؟!"

لكن بيبر المتحمس لم ينتبه لكل ذلك وأردف:

"ليس أمامنا خيار، غدا تجمع هائل وينتظر فيه إعلان مستقبل يوغوسلافيا، لا بد من استغلاله"

وقام واقفا عابثا بجيوبه وأخرج ورقة مطبوعة وأعطانيها.

"هذا بياننا بمناسبة انتهاء الحرب والاحتلال وهو كما ترون موجه لكل اليوغسلاف"

أعطانيه أولا فقرأته متصفحا متسرعا، بدا لي ركيكا بعض الشيء لكنه ليس سيئا وإن كان لم يغير لدي شيئا من اليأس والتشاؤم حتى أني قلت:

"هل يمكن أن نعول على هذا البيان؟ هو للعوام والعجائز وسيلقى تحت الأقدام فور توزيعه!"

مط شفتيه وقال:

"أخشى أن ما تحتقره أنت لا يحتقرونه هم وعندها..."

مط شفتيه فهتف أدمير:

"ماذا؟!"

"يصطادوننا قبل حتى أن نسدد عليهم!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين يسمع الجميع صافرات غارات الحرب يدخلون بيوتهم بينما يخرج هو، يبحثون عن المخابئ بينما يبحث هو عن مقعد ملائم في الشوارع، الذعر يملأ الوجوه بينما البشر قد زار وجهه للتو، ينظرون له باعتباره مجنونا وينظر لهم باعتبارهم مساكين، يجري يساعد العجوز والطفل على اللحاق بطوابير المخابئ وحين ينظر حوله فلا يجد غيره ممن تظلهم السماء بلا سقف. يجلس منتظرا بفارغ الصبر، يضع يديه على أذنه حتى لا يصيبه صوت الطائرات بالصمم بينما يطلق العنان لبصره في النواصي القريبة مستكشفا، وحين يجد خالدة قادمة مسرعة الخطى أخيرا يعرف أنه ليس وحده من خرج ليختبئ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجماهير هي الجماهير، لن تختلف الطباع والأشكال ولو اختلفت المناسبات والبلاد، ستجد دوما ذلك الاكتظاظ وتلك العيون الباحثة عن شيء أو شخص وهؤلاء المتحمسين وهؤلاء الناقدين وهؤلاء الذين يبتسمون وكأنهم يشاهدون مسرحية، لكنهم محقون حقا فالعرض اليوم وإن كان سياسيا وإن كان في الشارع فقد أقاموا له مسرحا، لذا كان الاكتظاظ والانتظار والملل والابتسام، ولم يكن العارضون بالطبع هم هؤلاء الأطفال المعتلين للخشب المرتفع ولا تلك الفرقة الموسيقية المزعجة التي تبث بعض أهازيج النصر وبعض السيمفونيات وذلك بعد استبعاد الألمانية منها بل الذين لم يأتوا بعد ولم نعرفهم عن قرب وسيصدعون الدماغ بشعارات ماركس، لكن ألم يكن ألمانيا هو الآخر؟! إن الشيوعية فكرة أممية لا تعترف بالقوميات والحدود ولعل هذا اشتراك فريد مع الإسلام، لكنهم لن يقولوا هذا بالطبع. لا نريد منهم على أية حال سرد حقائق، فقط الكف عن الأكاذيب وغمط الحقوق، وقفنا نتابع من بعيد والناس ما زالت تتوافد، بدا لي بعضُ الريبة فيمن ينظر إلينا بريبة كذلك، قلت لحسن:

"انظر!"

نظر تجاه ثلة الواقفين هناك، كان كل منهم متأملا كضابط لا كضيف أو كمشاهد، ضيق حسن عينيه كعادته حين يفكر وقال:

"يبدون مثلنا"

"ينوون شيئا؟"

"نعم"

"لن يوزعوا منشورات بالطبع!"

قلتها ساخرا متحسسا حزمة الورق في شنطتي داكنة اللون، فرد:

"بل لن يسمحوا بتوزيع المنشورات، بالطبع!"

تأملتهم ثانية، كانوا أقوياء البنية متوسطي العمر يدخنون السجائر وينظرون بشك، التفتُّ عنهم كي لا أثير لديهم مزيدا من الريبة، وفي الركن البعيد وجدت ثلة مماثلة لكن حسن سبقني بالإشارة وقال:

"أترون؟"

هززت رأسي وهز أدمير رأسه.

"ألا ترى أن نبلغ بقية الشباب بأن ينسحبوا؟"

قال أدمير المتحمس:

"لا، فلنجلعهم يوزعون الآن بشكل أسرع وبشكل فردي وسط حركة الناس قبل أن تستقر..."

لم أعلق أو بمعنى أدق لم أجد فرصة فقد انطلقوا وانطلقت في الاتجاهات كما نظمناها قبلا، وقابلنا زملاءنا المنبثين بالداخل وأشرنا ببداية التوزيع، لا بد أن تنسيقنا كان مربكا لكل مراقب ولا بد أنهم احتاجوا لوقت كي يفهموا ما الأمر، لكن سرعان ما بدأت حركة مضادة في البدء، سمعت مشادات قريبة ورأيت أوراقا تتناثر في الهواء، تسارع قلبي وخطواتي ويدي التي توزع على من يقابلني دون تمييز، تتصاعد أصوات الصدام والشجار والصفير، بدا لي للحظة أن هذا عين ما نطلب، إرباك للصفوف في أهم يوم أرادوا به توحيدها، ولم أعد أهتم كثيرا بمن يقرأ الورقة أو بمن يرميها حتى اصطدمت باثنين أوقفاني وأخذا ورقاتي، ثم قيدا يدي بسلاسل قبل أن أصرخ بهما، اكتشفت أنهما من الشرطة، أخذاني لسيارة قريبة بينما بدا في الخلف تعالي الهتافات التي تنادي بسقوط الملوك والأموال والأديان، الهتافات التي لم ألاحظها من قبل لانشغالي بالترويج لما أروج، ثم زج باثنين آخرين جواري من مجموعتنا وانطلقت العربة دون أن ندري وجهتنا حتى نزلنا في ساحة المخفر، وهناك ميزت حسن ولم أميز أدمير، لم تتح لنا فرصة الاقتراب من بعضنا فقد كنا مقيدين، فقد اصطففنا وساقونا للداخل لزنزانة عملاقة استوعبتنا جميعا وكادت تقول هل من مزيد! ظللنا مكاننا نسأل أنفسنا ماذا بعد! توقع معظمنا أن يتم معنا تحقيق وظللنا مترقبين متأهبين بل أخذنا نلقن أنفسنا ماذا ثم نقول، لكن لم يحدث أي استجواب أو أي تعديل بل وبتنا في مكاننا ونمنا دون شربة ماء لنصحو على ضربات غليظة بأدبار البنادق فقمنا واقفين، أغلبنا لم يستوعب ما يحدث ولم يتذكر ما حدث ولو لثوان من فرط التعب والصدمة، لكنهم سرعان ما فكوا قيودنا وتركونا نخرج!

"بهذه البساطة!"

قلتها لحسن حين التقينا خارجا أخيرا ونحن نتحسس مكان القيود في أيدينا فقال مضيقا عينيه كعادته:

"إن في الأمر أمرا"

"ماذا؟"

"الفوهة مصوبة إلينا ولكن الرصاصة لم يأنِ أوانها بعد!"

لم تثنني كلماته عن البشر بالخروج ولم أتذكرها إلا حين قبض علينا بعدها ثانية، لكن تلك المرة لم نخرج بعد يوم أو بعض يوم، لكن بضع سنين!

هامش

ساد سكون طويل وقد بدا أن كلا من السيد والسيدة قد أرهقهما الكلام والاستماع، لكن العيون بدت شغوفة بالمزيد، شرب السيد من كوب مجاور وأشار للسيدة لكوب من الماء قريب منها كي تشربه، مدت يدها متناولة إياه بينما هو ينظر إلى لا مكان قائلا بخفوت:

"لقد انفصل قلبي وجسمي الآن يا سيدتي، فقلبي عاد شابا يكاد يقفز من مكانه بشجن يذكره ولو من ستين سنة، أما جسدي فهو ابن سنة بل لعله شاخ قليلا في تلكم اللحظات من الذكريات"

تنهدت وقالت:

"لا تحدثني عن السن يا سيد عزت، أنت ترى أمامك مومياء كما يتندر بعض الأطفال المشاكسون"

"بل أرى أمامي أديلسا تلك الشابة البريئة، إن نافذة تطل منها أراها في عينيك، إنها لا زالت تنظر وتتحير، لا زالت غريبة في هذا العالم الذي ألفها ولم تألفه"

"قل لي يا سيد عزت هل ألفت أنت العالم؟"

"نعم ألفته على عيبه، لا أنكر أن ذلك كان مريحا أن تدرك أن النقص طبيعة كامنة في الأشياء. حينها لن تبحث فيه عن كمال بل ويقودك ذلك إلى التوحيد الفطري، وإلى الكامل الوحيد"

"ولكن حين يضرك هذا النقص وتدرك أن تعديله كان سهلا، هل تلوم إذن الأشياء والأحداث والأشخاص؟ أم تلوم الكامل الذي ترك العالم ناقصا؟!"

لبس نظارته وسكت هنيهة وتلاقت عيناهما مليا ثم خلع النظارة وعاد لنظرته للاشيء.

"بل أنظرُ في حكمته، أبحث عنها... إن الله يا سيدتي يختبرنا، لم يفرض علينا المعرفة، فقط البحث عنها، ولا ينبغي أن نعلم كل شيء في حياتنا تلك، فكما مثلا تغيب عنا حكمة أشياء لسنوات وقد تغيب لقرون فحين تنتهي حياتنا الدنيا وقد غابت عنا أشياء فسنعرفها في حياتنا الأخرى ولو بعد ألف سنة"

"إنه لانتظار طويل"

"لكنه يمر سريعا كتلك السنوات التي طويتها لي في حديثك، إني أشعر أني عدت إلى الماضي بل أنك من الماضي، أكاد أذكرك!"

"هل تذكرت فعلا أدمير ودراجان...؟"

"طبعا ماذا تظنين؟"

"إذن عرفتهما كما حكيت"

"هما كما قلت أنت، لن أزيد حرفا ولن أنقص، حتى حلمك كان حلمي! ألم تلحظي، غير أن الوحش صار جنديا"

"لكنك كنت تواجهه وأنا أحاول الهرب"

"واجهته تحت ضغط وأنت كذلك"

"كنت شجاعا دوما، هكذا قال لي أدمير، خاصة حين صار يتذكرك وأنت في السجن"

أغمض عينيه للحظة كأنه يتذكر.

"كان سجني الأول مفاجئا فلم تكن إلا أياما ذقنا فيها الحرية ولم يسعنا العالم وقتها"

"لكنك كنت متشائما عكس أدمير"

"كذبت نفسي كثيرا قبل أن أجد نفسي في زنزانة طالت لثلاث سنوات"

هزت رأسها بتأثر.

"أشعر بقسوتها في لهجتك لكن على الأقل بعدها خرجت أنت من السجن وأنا من دخلته..."

بدا عليه الفضول وقال مستحثا إياها:

"احك لي إذن"

تنهدت وثمة دمعة أخرى تسللت وهي تقول:

"إنها أحداث كثيرة ولها ما بعدها، هي أصل حكايتي ومهما حاولت تناسيها لا أفلح قط!"

أديلسا

١٩٤٩

هل لو انتظرت كل يوم شروق الشمس، وذقت بطرف لساني قطرات الندى فوق أوراق النباتات، وأمسكت بمروحة يدوية يديرها النسيم القادم من النهر، هل أكون بلهاء؟ هل لو لم أستيقظ باحثة عن فطور وقهوة ولم أمسك بجريدة أتابع كيف يكيد الناس بعضهم لبعض ولم أبحث في معارفي عن حبيب أحاول جذب انتباهه، هل أكون بلهاء؟ لم يعد يهمني الأمر. كما أن العصفور على شجرة البلوط القريبة لا يهمه ظن صياديه أنه قليل الحيلة، الحزين في الأمر أن الصياد ينجح في النهاية بينما العصفور الذي عاش حرا مات غدرا. فالقضية أن العصفور لا يستطيع أن يهتم بهذا، ولا جناح عليه أن اللوم يقع على الصياد لكن من القاضي الذي سيحكم؟ للأسف إنه الصياد نفسه! إنه أمي ودراجان وانجا.

تقول أُمي: "لا أُطالبك بالطبخ بل أُطالبك بالأكل، أنت لست طفلة، لونك الشاحب يعني الأنيميا ولا شك".

ويقول دراجان: "لا أُطالبك بتغيير العالم بل أطالبك بمشاهدته يتغير، أنت لست طفلة وعليك أن تنضمي لفريق وليكن الفريق الفائز".

وتقول انجا "لا أُطالبك بتأمل الشباب بل أنت دعيهم يتأملونك، أنت لست طفلة، إن لك جمال طلعة ودوران جسد أحسدك عليهما".

أما أدمير فلا يقول شيئا، عادة فقط يقبل رأسي وينادِيني بطفلته ويحضر معه حلوى وبتلات، أنا أُحب أدمير حقا ولعلي الوحيدة التي تفعل هنا كما كنت أُحب أبي وكنت الوحيدة كذلك في ذلك في غياب أدمير، لكن هناك فرق، أن أدمير يفهمني أما أبي فهو من كونني، لست لأنني ابنته بل لأنني ما وعيت إلا على تحوله المفاجئ، كان تاجرًا فصار زاهدا، كان يهتم بالناس فصار يهتم بكل شيء عداهم، كان يحاول تغيير ما حوله ثم سلم له أمره. لا زلت أذكر أول مرة حين أتى بنبتة، فلو قد أنبتت ساقا صغيرة وكادت أن تُكون ورقتها الأولى، ناداني وكنت ألعب بإحدى العرائس فتركتها وذهبت إليه في الشرفة حيث الشمس المشرقة، وقال:

"انظري... هذا طفل وليد حقيقي ليس كعروستك، هل تذكرين الآن الرضيع في البيت المجاور؟ إنها مثله غير أنها لا تبكي فتزعجون منها".

لم أفهم ماذا يقصد أبي لكن في الأيام التالية حين كنت أخرج فأجد أن الساق تستطيل وأوراقا جديدة تتكون حينئذ فهمت، أن تلك النبتة حية مثلنا. إنها تتنفس وتشرب كما أن الشمس ترعاها، وبعد ذلك حين علمت بالمدرسة أن الشمس تلك ما هي إلا نار انقبض قلبي وعدت للمنزل أطمئن على النبتة، وحين جاء أبي سألته كيف أن نار الشمس ترعى هذا المخلوق الرقيق.

"في الحقيقة يا ابنتي إن الشمس والنبات شيء واحد، لا اعتبار للحجم أو المكان أو التكوين، إننا جميعا شيء واحد، جميعا خلق لله".

لم أفهم كذلك قصد أبي ساعتها لكن في المدرسة علمونا أن هناك ذرات تكون كل شيء. النار والماء والهواء والأحياء، إن الخلق واحد كما يقول أبي لكن من الخالق ومن الله؟

"الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

قالها أبي مفسرا، لكني ظللت في حاجة إلى المزيد لأعرفه، وقررت أن أعرفه من الله نفسه. ففي الليل عكفت بعد نوم الجميع أن أصعد إلى سطح البيت حيث الفراغ التام، لا صوت ولا ضوء ولا حتى قمر فقد كانت ليالي معتمة، سألت الله أن أنظر إليه أو أن أسمعه أو أسمع أوامره للخلق، لكنه لم يفعل. لماذا كلمت موسى ولم تكلمني؟ ألسنا كلنا خلقك يا رب؟ وحين أخبرت أبي بما فعلت ضحك، وقال:

"الله يقول ما وسعتني أرضي ولا سمائي لكن وسعني قلب عبدي المؤمن".

لكن لم يطمئن قلبي قط، وقررت أن أترك البحث في الله إلى البحث في الخلق، ولم يكن الخلق هو دليل الله عندي بل الجمال، فالخلق القبيح قادرون عليه بنو الإنسان، أما الجمال فهو ومضة إلهية أو لعله هو الإله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن دراجان لا يؤمن بهذا الهراء على حد تعبيره، إن الضعفاء فقط من يؤمنون بقوة عليا أو بأن الكون وحدة لا فرق بين أطرافها، إنهم يحاولون أن يجدوا الحماية من ربهم أو يطلبوا المدد من أصدقائهم في الطبيعة، بينما منافسوهم يتزودون بالمال والسلاح والنفوذ. ورغم أن دراجان هو من بدأ ضعيفا للغاية حين أصابه ما أصابه نتيجة هذا التنافس، إلا أنه بدأ مختلفا الآن في الفجر الجديد كما يقول، كان دراجان شرير النفس منذ عرفته لكنه لم يفعل شيئا شريرا، أما الآن فهو يدعي الإصلاح ويفعل الشر، يقول:

"من أجل الخير والعدالة والمساواة نعمل، لا استعباد بسبب المال أو الإقطاع والملكية ثانية، هكذا نحارب الشر لا ندعو الله بأن يحاربه، في الحقيقة إن من يدعونه الآن هم هؤلاء البرجوازيون".

بدا لي متناقضا للغاية، لو كانت الحياة تنافسا بعيدا عن الكون المستقيم أو الأخلاق الدينية، فما معنى الخير والعدل! إن هذا الغني والإقطاعي والباحث عن المصلحة الشخصية هو خير من طبق مبدأ التنافس ذلك، فلم تحاربونه! لم أصرح بالطبع برأيي هذا لدراجان، كنت لا أستطيع أن أخاطبه في ضعفه، فهل أناقشه الآن في نشوته! دراجان الذي لم يخرج من البيت لفترة تصل لعامين صار يخرج بعد انتهاء الحرب وحتى اليوم كل يوم، صار له أصدقاء مهمون أتوا له بكرسي جديد ومكتب وآلة كاتبة وفانوس إنارة وراديو، سيارتهم تأتي في الصباح لتنقله إلى مقر الحزب الحاكم ثم تعود به عند المساء، هل هي وظيفة؟ تسأله أمي السؤال وهي تجهزه كل يوم ليرتدي البنطال والحذاء، لكنه يقول متأففا:

"إنه دور، دور ثوري".

لكنه بالطبع دور له ثمن، لقد صار لدراجان عدة بذلات، صار يأكل بالخارج، بل وصارت له ساعة ثمينة يتعمد إظهارها، بينما لم أكن أفهم حقيقة وظيفة دراجان، ليس له موهبة وهو عاجز عن الحركة وعبء على كل من يشاركه، لكن ذات مرة وحين كانت أمي تستمع للراديو على عكس عادتها لتبدد الملل، سمعنا صوت دراجان، كان مؤتمرا شعبيا، كان يتكلم فيه عن تجربته في الحرب وتضحيته في سبيل إخوة الفكر، كان يتحدث -عكس القصة التي حكاها لنا أنه هو من رفض إطلاق النار على الفلاحين السوفييت، وأن من أصاب رجليه كان النازيون عقابا له، وحين أنهى كلمته قدمها لمقدم بأنه رمز مهم للإخوة في المجتمع الشيوعي، ثم صار يصب اللعنات على هؤلاء الخونة الذين يعيشون بينهم وأن الويل لهم، وهكذا صفقت الجماهير، إذن هذا هو الدور الثوري، كانت أمي متأرجحة المشاعر، هي لا تهتم بتلك الفوضى، لكنها تحب دراجان، كانت تشجعه أحيانا ولا تبالي أحيانا، لكن مع الوقت بدا عليها الضجر وهي تسأل دراجان حول تدهور البلاد ونقص السلع، إن دكان أبي الذي يديره فضل الله شارف على الإغلاق، لكن دراجان يتأفف.

"العالم كله كذلك، ولكننا الأسعد حظا، ألسنا المنتصرين!".

وكأن هذا النصر باق للأبد، ثم يمضي لغرفته يسمع الراديو أو يكتب شيئا لا نعرفه لكن نسمع صوته على الآلة الكاتبة، وأحيانا يقابل بعض الأصدقاء تتصاعد ضحكاتهم وتعد لهم أمي العشاء، بينما أنا في غرفتي أخشى أن يوقظ صوتهم نباتاتي النائمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ساسكا هو أذكى أصدقاء دراجان، يبدو عليه اللطف والظرف، بهي الطلعة حلو الصوت والأداء والكلمات، يكبر دراجان بعدة سنوات وهو ابن الأستاذ نيقولا حامل الشعلة الحمراء بين شباب سراييفو كما يسميه، كان دراجان قد حكى لنا كثيرا عن الأستاذ نيقولا، أحبته أمي بظهر الغيب لأنه احتوى عدوانية دراجان المقيتة، أما أنا فكرهته حد الموت، لأنني حين حكيت عنه للمعلمة لينا قالت:

"لا أصدق أن معلمًا يبث بين تلاميذه دعاية سياسية أيًا كانت، إن العالم سيء بالفعل بأجياله الحالية، فهل نزيده سوءا بأجيال أخرى قادمة!".

وكانت كلماته إلي مقدسة حتى ولو لم أفهمها جيدا، لكن أين أيام المدرسة تلك، فلقد أنهيت دراستي وها أنا لا أجد شيئا أسمعه غير كلمات الكابتن ساسكا كما يحب أن ينادى والتي كنت أفهمها جيدا لكن لا أحبها، إنها كلمات معسولة لدرجة جعلتها لا تطاق، منمقة فبدت متبرجة متكلفة وكأن صاحبها قد سهر ليله ليحضرها. من يدري، ربما فعل، وربما هي كلمات مكررة يحفظها، فهي لا تختلف كثيرا عن كلمات الشبان لانجا التي تحكيها لي، لكن الفرق هنا أنهم مجموعة من الصعاليك وهذا نقيب، لكن أي نقيب:

"بالطبع ليس الجيش، ربما أقرب للشرطة لكنها ليست شرطة، كذلك كما يمكنك أن تفهميها".

أرنو إليه مستفهمة فيقترب مني ليهمس، فأبتعد أنا لكني أسمع الهمسة تقول:

"شرطة سرية".

في البداية تعرفت إليه عبر الشرفات، أنا عبر شرفة غرفتي بعد أن نقلت إليها نباتاتي، وهو عبر شرفة المنزل التي اتخذها دراجان امتدادا لغرفته، أنا أحاول إجراء تزاوج بين أزهاري الخجولة، وهو يحاول أن يزاوج عينيه لعيني لكن عيني ترفض، فقط أنظر إليه حين يلتفت يحادث دراجان الجالس أبدا ومستوى عينه لا يعلو السور، وحين دعاني دراجان ذات مرة إلى شرفتهم علمت أن هذا تم بلا شك بإيعاز منه، عرفني بنفسه وأبيه وسألني أسئلة ليست ذات قيمة وأجبت باقتضاب، لكنه قال لدراجان:

"ممتاز أن رأي الجماهير لا بد أن يوضع في الاعتبار، أقترح أن تنضمي إلينا دائما آنسة أديلسا، أليس كذلك دراجان؟"

لا يقوى دراجان أن يعارِض له رأيا، فقط يبتسم ويؤكد لهما يقول، إن شخصيته كاسحة وحضوره طاغ حتى لو كان الطرفَ الآخر عصابي المزاج وصاحب الدار، وفي حالة دراجان هناك عامل آخر، هو رئيسه في الحزب كما أنه ابن الرجلِ ذي الفضل عليه، فلا مجال للمقاومة، وأنا أيضا لم أرَ مجالًا للمقاومة، لا داعي لاستثارة دراجان كما أن الملل يبعث على مجالسة الأغراب، وهكذا صرت أجلس معهم كثيرا، وحين يذهب دراجان ليفعل شيئا أو يستقبل أحدا، لا يكف لسان الكابتن ساسكا عن اللهج بالمحاسن التي يراها فيّ، هل هذا هو الغزل الذي تتحدث انجا عنه؟ مع الوقت اعتدت عليه، مع الوقت صرت أنتظره، زادت اهتماماتي واحدا، لكنه حين عرض عليّ ذات مرة اللقاء بالخارج قلت بحزم:

"لا!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكعادة أدمير فإنه يعود فجأة، جاءنا التلغراف أنه قادم اليوم، من زغرب التي وجد فيها عملًا بعد أن أنهى دراسته، إن الشتاء شارف على الإنتهاء وكان ينبغي له أن يأتي في أوله، لكن بتلغراف تلو آخر يقول إن أعماله لا زالت مستمرة بينما أمي تقول إن لهوه هو المستمر، أما دراجان فهو لا يقول شيئا فهو لا يدري ولا يسأل، لكنه عندما عرف تلك المرة بقدوم أدمير بدا مهتما، عجبا! في البدء كان لا يذكر أدمير إلا بسوء ثم عاد لا يذكره والآن ينتظر مجيئه، المشكلة أن أدمير كان يعامل دراجان كأخ صغير مشاغب، ولا بد له أن لا يفعل الآن بعد كل هذا التطور الصائر لدراجان، إن دراجان رغم أنفه وأنوفنا صار أقوانا مركزا، سنه صغير وعقله أصغر لكن هكذا تدور الأمور، وهكذا اختلط اشتياقي لأدمير بقلقي، ولأول مرة لا أفكر بالحلوى التي أحبها أو بتذكاراته الغريبة أو بضمته التي أنتظرها، هل كبرت على كل ذلك؟! أم أن عواطفي هي من هرمت؟! أم أن إدراكي هو من حاصر قلبي؟! لا يشقى الإنسان إلا حين يدرك أنه شقي، وحين تعدت الساعة الظهر بقليل، سمعت الدقة المميزة لأدمير، خبطتان بظهر الكف وخبطتان بباطنه. لم تلحظ أُمي الخبطات، فهي تعد الغداء باكرا اليوم لكن من لاحظ كان دراجان، اقترب من الباب لكني تعديته وفتحت أولًا، لأتلقى حضن أدمير، لم أنظر لوجهه أول ما نظرت لكن جسده بدا أنحف وكتفه أقصر وتتصاعد منه بدلًا من عطره المميز رائحة التراب! هل كان في معركة لتوه! أما حين خرجت من صدره بدا لي جرح غائر فوق حاجبه وعدة جروح بسيطة في جبهته وخديه.

"ماذا حدث لك؟".

"سقطت من القطار، لا تخشي شيئا".

قالها لكن دون بسمة حقيقية وبعيون ثملة، اجتازني ودخل ليجد دراجان كعادته على كرسيه ينظر إليه كعدو قريب وليس أخ جاء من بعيد، قبله على رأسه دون كلمة ودخل مسرعا، لكن دراجان بادره قائلًا:

"تبدو كأن لم تسقط من قطار بل سقط عليك قطار!".

تنهد أدمير وجلس على الأريكة العثمانية وقال:

"نعم كان ثقيلًا جدا ومن طراز قديم، لكني رفعته عني دون مساعدة".

ابتسم دراجان بجانب فمه، واقترب بكرسيه قائلا:

"ظريف أنت يا أخي، غير أنك صرت أنحل من أن تستطيع رفع غطاء النوم عنك، ماذا جرى لك؟"

لم يرد أدمير وقرر توجيه السؤال لي:

"كيف حالك يا أديلسا؟"

"أنا بخير حال"

واقتربت منه أجلس جواره فأحاطني بذراعه، وقال:

"عذرا لم آت لك بالحلوى التي تحبين تلك المرة".

كدت أن أرد لكن دراجان التقط الخيط.

"لماذا؟ هل عجزت عنك أموال فضل الله؟"

نظر إليه أدمير قاطبا، فأردف:

"لا تحسبني غافلًا عما بينك وبينه وعن الإيراد المفقود ربعه"

هز أخي رأسه وقال:

"لا يا سيد دراجان يا أيقونة التضحية، فالحلوى لم تعد متوفرة إثر تحقق شيوعية الفقر".

بدأ التعجب على دراجان فأردف أدمير:

"لا تحسبني غافلًا كذلك عن نشاطك السياسي، طالما سخرت منك لكنك صرت محقا، الدهماء تسود!"

وقبل أن يرد دراجان الذي احمر وجهه غضبا، قام أدمير واتجه للمطبخ ليسلم على أُمي لكنه عاد سريعا وقال:

"بالمناسبة، الربع المفقود هو نصيبي الطبيعي من متجر أبي، وفضل الله ينبغي عليك أن تشكره. لولا إخلاصه وأمانته لكنا ما جنينا أموالا بل ديونا".

"أنت تحابيه لأنه شيخ، انتهى زمنكم يا سيد، تذكر هذا الخيار. إما السكوت أو النفي أو الموت!"

"أنا لا أتعجب من اختياراتك بل أتعجب من أن تقولها لأخيك، لم أسمع من قبل عن أخ عاق"

"ولن تسمع، لأن المجتمع اليوم سيكون هو الأسرة، ولا مصلحة تعلو مصلحته"

"ليتك برعت في الدراسة كما تبرع في الشعارات"

"ولعلك أنت انكفأت على الدراسة التي حصلت عليها ولم تنكفىء على المشاغبات التي تدبرها أنت وجماعتك".

بدا السأم على أدمير وقرر اللجوء لغرفته، لكن دراجان ناداه قبل أن يفعل.

"أدمير أنا أحذرك، أن سراييفو الآن تتطهر ثانية. إياك أن تنشط هنا فأنت مراقب"

"أنت من تراقبني؟"

"لو كنت أنا لقبضت عليك الآن، لكن هناك آخرين لا ينامون"

"أما أنا فسأنام ملء جفوني!"

ودخل غرفته دون أن يغلق الباب، علمت أن تلك إشارة أنه مسموح لي بالتسلل فتسللت، وهذه المرة أنا من جلست بجانبه على السرير وأحطته بذراعي، وقلت بحزن:

"أخبرني ماذا يحدث يا أخي؟"

"أديلسا أنت لم تعي إلا على الحرب وها أنت تعين الآن حكما أسوأ منها، أنا أتطلع إلى الأفضل وهذا جزاء المصلحين"

لم أرد وكدت أن أبكي وقال بحنان:

"لو قرأت القرآن كما أُخبرك لرأيت مصير الأنبياء"

"لسنا أنبياء يا أخي"

"علينا أن نكون مثلهم"

بل علينا أن نكون مثل البشر"

"ويتحكم علينا دراجان وأمثاله"

"لا تتمرد الأوراق على اليوم الغائم"

"لكنها تذبل وتصفر"

"إلا من صبر!"

ربت على كتفي وأشار لجروح وجهه وقال:

"أليس هذا صبرا؟"

"إذن هذا لم يكن سقوطا من قطار"

"بل فرارا إليه من حفنة أوغاد"

"وإذا قبضوا عليك يا أخي ماذا نفعل!"

اتجه إلى النافذة فأغلقها ثم قال:

"اصبروا!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لطالما لم أفهم كيف تكون ذلك البيت وتلك الأسرة وكيف عاشوا سويا وتربطهم أسماء ودماء، كيف تزوج شخص مثل أبي امرأة مثل أمي! كيف شخص كأدمير هو أخ لدراجان! كيف إني أشبه أمي خلقيًا وأبي روحيا! ثم إن التفاصيل أكثر تعقيدا، إن أبي يحب أمي وأمي لا تحبه، إن أبي يفضل ابنه الأكبر وأمي تفضل ابنها الأوسط، الأخ الأكبر يفضلني والأخ الأوسط لا يفضل أحدا، لكن ماذا عني أنا؟ لا زالت ذكرى أبي هي الأعز عليّ فأنا لم أعه إلا قليلًا، وخلصت أنه أحن من رأيت، لكن أدمير كان امتداده الشاب وهو الباقي لدي، ولا أخفي أني لا أحب دراجان وإن كنت أشفق عليه كما أشفق على أمي لكني حقا أحبها، إن طيبة أمي الكامنة تجعلها تنافس أبي على لقبه الحنون، لا تربت أمي على كتفي ولا تحتضنني إلا قليلًا ولا تكلمني بلين إلا لساعات معدودة لكن قلبها أشعر بأنه ينبض باسمي أحيانا، أنا أظن أن أمي تحبني حبا جما ولكنها تخفي ذلك بدون داع، هل هناك أي سبب بأن تخفي الأم حب ابنتها الوحيدة؟ هل سيلومها أحد على ذلك؟ بالطبع لا، إلا واحد قد يفعل، هي نفسها! إن نفس أمي المعقدة تلومها على حبها لي، هي تظن أن أمها لم تحبها قط، فهل صارت تلك لديها القاعدة؟ لا أم تحب ابنتها، ولو حصل ذلك فلا بد من إخفائه ودفنه في ذلك القلب العاجز عن العمل. ليست نفسك قاعدة يا أماه بل استثناء، وها أنت تكرهين أمك بينما أنا أحبك، لم يكن غيرنا على مائدة الطعام في ذلك اليوم، أدمير خلد إلى النوم دون طعام ودراجان دخل غرفته ولم يخرج، جلسنا نراقب الطعام بدورنا، أمي تتظاهر بالمضغ وأنا أحرك الملعقة في الطبق الفارغ، ثم قامت فقمت وجلست على الأريكة بينما أخبرتها أني سأصنع لها بعض الشاي، صنعت شايا خفيفا بلا سكر كما تحبه أمي وأعطيته لها بعد أن جلست جوارها فقالت:

"وأنت ألا تشربين شيئا؟"

أشرت برأسي أن لا أريد.

"لا أدري مم تتكونين حقا؟ هل أنت من لحم بلا طعام ويجري فيك الدم بلا شراب؟"

ضحكت لسخريتها وقلت:

"لعلي قديسة!"

ضحكت، فأردفت:

"أو لعلها كرامة كما كان يقول أبي".

"هل تذكرين خزعبلات أبيك الأخيرة، أنت لم تعي على غيرها"

"وكيف كان أبي قبلها إذن؟"

"تاجر بن تاجر يجيد صنع الصفقات والمساومات، يريد أن يحوز الدنيا لا العالم الآخر"

"وكيف تحول هكذا؟"

"لقد نجح في كل صفقاته لكنه فشل في أهمها رغم كل مساوماته، وحين فشل يئس، وحين ييأس المرء من حياته يموت حقيقة أو مجازا"

"لكن أبي يقول إنه وجد بغيته فيما عند الإله"

"ألا يدل ذلك أنه كاذب؟ إنه الآن فقط معه الريف، كيف عرف حين كان معنا أنه وجده!"

"إنها المعية كما يقول"

"أو الخرف يا ابنتي"

"إن قلبه كان منيرا"

"إذن فأين نوره هذا، هل رأيته؟ هل أنار لك؟"

"كاد"

"إنه السراب!"

سكت وقد أحسست أني أهين ذكرى أبي بهذا الحوار، لكن أمي أردفت وهي تشير إلى باب غرفة أدمير:

"انظري... هذا هو ابن أبيك، ذهب ليتعلم فعاد ليجاهد"

"على الأقل هو ليس كدراجان"

"وماله دراجان؟"

أصابني العجب أن أُمي كانت من أكبر شكائي دراجان، ثم إن الفرق بين أدمير ودراجان لا تنكره عين ولو كانت متحيزة.

"هناك فرق بين من أخطأ في القصد ومن قصد أن يخطىء"

"العبرة بالمآل، لو أصابنا خير في ذلك الزمان فسيكون بفضل دراجان الذي تكرهين، ولو أصابنا شر فسيكون بسبب من تحبين!"

"وأنت يا أُمي ألا تحبين أدمير، أليس ابنك؟! أليس عطوفا بك؟!"

"أحبه كما أحب أباه، زوجي الذي أحبني واجتباني، لكن أحدنا لم يكن أهلًا لهذا الحب"

ترقرقت دمعة في عيني وفي عيني أُمي ترقرقت مثليها. سكتّ هذه المرة للأبد، وسكتت أُمي طويلًا وكدت أن أقوم إلى الغرفة فالشرفة، لولا ذلك الطرق العنيف المفاجئ على الباب، فزعنا، من قد يفعل! ولماذا بهذا الشكل! عادة كنت أنا من يفتح الباب لكني تجمدت مكاني، وحين كادت أُمي أن تنطق بشيء رأينا دراجان خارجا على كرسيه مسرعا ودون أن ينظر إلينا فتح الباب، فإذا بفوهات بنادق موجهة ناحيتنا، صرخت وارتميت في صدر أُمي التي لم تنبس ببنت شفة، لكن دراجان حافظ على هدوئه وقال لرئيس الفرقة:

"ماذا تريدون؟"

"أين أدمير أميرفيتش؟"

"لماذا تريدونه؟"

"أين هو؟"

"أنا دراجان من الحزب الشيوعي، فقط أخبرني ما الأمر!"

"تبا لك، أخبرني أين هو قبل تكسير المنزل!"

وقبل أن ينطق دراجان وقبل أن يرفع القائد يده إيذانا بالتفتيش خرج أدمير بكامل ملابسه متجها ناحية الباب قائلًا بهدوء:

"إنه أنا أدمير!"

شهقت، وكدت أن أذهب إليه لأثنيه لكني تجمدت ووضعت يدي على فمي وأنا أشهد جنديين ينقضان عليه ليساوياه بالأرض مقيدين يديه ثم يحملانه خارجا، احتبست الكلمات والعبرات بل النظرات وسقطت مغشيا عليّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل حزنت كذلك من قبل؟ لكن كم عمري لأقيس مدى المشاعر عليه؟! السؤال هو هل يحزنك الناس لهذه الدرجة؟! لكني أيضا كم أعرف من الناس كي أقيس عليه مدرجات الحزن. لعل تلك هي المشكلة، أعرف من الأحياء كثيرا لكن لا أعرف من البشر إلا قليلا، وأعرف من السلوك كثيرا لكن لا أعرف من خسيسه إلا القليل، فإذا بي أفاجأ بأخس الأفعال مع أعز الناس، لا يفارق ذهني مشهد سقوط أدمير أرضا، كأن جسدي من سقط من حالق وقلبي هوت به الريح في مكان سحيق، لم أره يسقط قط إلا للسجود في الصلاة، ولم أره يتألم قط إلا إثر تلك الضربة المفاجئة من هؤلاء الغادرين. لقد خرج إليهم مسلما فلماذا أبيا إلا تقييده؟ ولكن هل حقا هم الغادرون؟ هل يا ترى سيظل أدمير الأبي

مقيدا؟ هل سيحبس بعد أن كان يأتي راكبا فوق القطار ليصطدم بالهواء الطلق؟ ترى هل يضايقونه الآن؟! هل لا يقدمون له من الطعام ما يحب؟! إن أدمير حساس للصويا، يا لي من بلهاء حقا! فيم أفكر؟ بالطبع هم يضايقونه ويجوعونه وربما يضربونه، لا، أشعر بالدوار عند تخيل المشهد. هكذا بقيت في غرفتي لعدة أيام، أهملت الزهور أياما حتى ذبلت، أم لعلها ذبلت حزنا على أدمير أو عليّ. أمي تركتني كما أحب، بينما بقيت هي في روتينها اليومي وإن لم تستطع إخفاء الحزن في عينيها والأرق في الهالات تحت عينيها، أما دراجان فقد تحاشاني وتحاشيته. بقي يومان قبل أن ينزل ويعود، ويومان آخران قبل أن يأتي بأصدقائه يضحكون ملء فيهم، هل مقتّه كذلك من قبل؟ لكن في اليوم الخامس وحين أتى بالكابتن ساسكا، سمعت طرقات على الباب، طالت ولم أفتح، ولما سكتت حسبت الطارق قد رحل لكنه دخل، كان دراجان، تحرك بكرسيه الثقيل الذي بدا صوت عجلاته كصوت سكين يمزق قلبي، وحين توقف نظر إليّ وقال

"ماذا بك، إن أدمير نفسه لا يرضى لك هذا"

التفتّ عنه ولم أرد، فتحرك ثانية ليصبح قبالتي وقال:

"هل لحزنك قيمة حقا؟ بالطبع لا، إنه بالضبط كأفعال أدمير، هراء لا يفضي إلا لشر".

تحفزت تجاهه حين أتى على سيرة أدمير بشر وقلت:

"عجبا، أنت من تتحدث بحكمة عن أفعال الآخرين، إن كل ذكرياتي عنك لا تتعلق إلا بسوء سلوكك، ألا تذكر قبل الحرب؟ أين كانت الحكمة أم لم تتلها إلا حين..."

وسكتّ، إنه يجرني كي أفقد الإحساس مثله، ماذا جرى لي، هل أعيره بعجزه؟ لكنه ابتسم بلا اكتراث وقال:

"هل هكذا تكلمين أخاك؟ إني أكبر منك، أنا مثل أدمير هذا الذي تقدسينه"

"ولماذا تتكلم أنت عنه كذلك إذن، أليس أخاك الأكبر؟"

"إنه الأكبر لكنه الأحمق، لقد حذرته في البداية وقبل النهاية"

قاطعته قائلة:

"وهل هذا يبرر أن تقدمه بنفسك لجلاديه!"

قال متعجبا:

"عم تتكلمين؟"

"أنا بلهاء لكن ليس لهذه الدرجة، أنت من أبلغ عنه!"

"تبا!"

"هي الحقيقة، ليس هناك غيرك، تشاجرتما ساعة وجاء المرتزقة"

قال بانفعال لأول مرة:

"يا مجنونة، متى أُبلغ عنه؟ لقد بقيت في غرفتي طوال هذه الفترة"

"ألم يأت لك الحزب بتليفون؟"

"لو أردت أن أفعل لفعلت قبلًا"

"أنت هددته أمامي بذلك"

"هددته عله يرجع عما يفعل لكن السيف قد سبق..."

سكتّ، ما جدوى الكلام مع من لا أصدق كلامه، بدا متحيرا هل يرحل أم لا! فليفعل ماذا ينتظر.

"أتيت إليك كي أطمئنك على أدمير، إن النقيب ساسكا عنده خبر عن مكانه والتحقيق معه"

رفعت رأسي إليه ليكمل لكنه قال:

"فلتنضمي إلينا إذن"

أطرقت برأسي ثانية فقال كأنه يحمسني:

"هناك موضوع آخر كذلك يريد أن يحدثك عنه ساسكا!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذت القرار في المساء، ولم أنم طوال الليل في انتظار التنفيذ في الصباح. قمت باكرة قبل أُمي وقبل دراجان بالطبع، تجهزت سريعا وأخذت ما أملك من نقود وهبطت السلم القصير إلى البوابة إلى الخارج، إن هناك سيارات أجرة تعمل بالموتور الآن لكني لن أبحث عنها فقط، سأنتظر أقرب عربة ولو كان يجرها حصان، فقط آمل أن يكون جميلًا، تمشيت قليلًا حتى قابلني واحد، كان الشارع هادئا إلا من أصوات أقدام المارة الباكرين، ولاحظت انتشار الأعلام الجديدة وصورا لشخص شرس، هل حقا يحب الناس هؤلاء الأشرار؟! هل زعامة الشر للدنيا عن جدارة أم عن تغلب؟! وحين توقف السائق وسألني عن وجهته فأخبرته:

"قسم الشرطة"

"أي واحد؟"

"ذلك القسم الذي فيه يجلس الضباط ويسجنون به الناس!"

ضحك وقال:

"نعم، أي واحد فيهم! هناك ثلاثة في تلك المدينة التعسة والرابع تحت الإنشاء"

حرت جوابا، ثم تذكرت:

"القسم القديم"

"فلتركبي!"

لم يتوقف ساسكا بالأمس عن السخف، هذا الوغد طالبني بجرأة أن أقبل الزواج منه، والوغد الآخر أخي لم يمانع وكأن أخاه الأكبر لم يعتقل منذ أيام وكأنني لم أبك حتى تقرحت الجفون، وحين أخبرته بالعار الذي يلحقه، أكمل ساسكا الهراء عن القانون والنظام وعدم شكه في عدالة الحكم والمحاكمة، وحين سألته أي محاكمة قال إن أخي قد تحددت له محكمة عاجلة بعد عدة أيام، ثم نطق جملته الوحيدة الجديرة بالسماع أن أدمير ما زال محتجزا بالقسم القديم، ثم إن له نفوذا، هنالك يقتضي حسن معاملة من وصى عليه وقد وصى على أخي، أي خسة! كنت قد بدأت أميل إلى ساسكا وكنت أكبره كما يكبر نفسه، أما الآن فأنا أجده صاغرا حقا، بينما أجد أخي شامخا. قررت أن أذهب إليه، لماذا! لست أدري، إن رؤيته كافية لي، سأطمئن عليه وأطمئن على نفسي، ما زال لي أحد يحبني ويهتم لي، لكن هذه المرة من يهتم للآخر وماذا بيد أخي ليقدمه لي، لثوانٍ ساورني الهاجس، إن اللقاء سيضاعف الهم لكلينا، هل أرجع؟

"ها قد وصلنا" قالها السائق منبها وحين انتبهت وجدت أن العربة كانت متوقفة بالفعل، بينما لم ألحظ ذلك، نزلت، أخرجت ما معي من عملات وقلت:

"كم تريد؟"

"أرضى بما تعطينني"

"هاك"

نظر للورقة وابتسم ثم قال:

"أنت كريمة للغاية يا آنستي، جميلة وكريمة، لكني قبيح ولا أستحقك لذلك"

وأخرج من جيبه ورقة أخرى بقيمة أقل وقال:

"الباقي لك!".

شكرته فانصرف ووقفت أتلفت، من خلفي المبنى العتيق، هل هذا سبب التسمية إذن؟! إنه مبنى أثري وكأنه من أيام خسرو بك، كانت بوابته الضخمة مفتوحة وعلى جانبيها جنديان، قادتني خطوات حذرة إلى أقرب جندي وسألته:

"هل لي أن أدخل؟"

"ظننت الباب مفتوحا"

"شكرا!"

دخلت لا أتلفت مستكشفة حتى وجدت لافتة (رئيس الشرطة)، وقفت محتارة ماذا أفعل، جاءني جندي آخر وسألني عمّا أريد.

"أُريد أن أرى أخي. إنه محتجز هنا"

"لا توجد زيارات هنا، هذا ليس سجنا دائما"

"لا بد أن أراه. إنه أمر ضروري"

قلتها بلهفة فقال لي برقة:

"للأسف هذا صعب، هو بيد رئيس الشرطة على كل حال، لكنه لن يقبل"

وآذن أن ينصرف فأخرجت من جيبي ما كنت أُخبئ، هذا الكارت الذي أعطاني إياه ساسكا متفاخرا ذات مرة بأنه يفتح أبوابا كثيرة، قدمته له وقلت:

"هل يمكن فقط أن تعطيه هذا الكارت؟"

نظر إليه مترددا لكنه قرر أن يفعل، كان كارتا صغيرا ليس عليه إلا كلمة كابتن ساسكا ماركوفيتش، فهل يفتح هذا الباب الصعب؟! وبالفعل انفتح الباب ودخلت لأقابل رئيس الشرطة، فتاة صغيرة لم تقابل يوما أي حكومي تقابل هذا الرجل مهيب الجسم والصوت والطلعة والرتبة الذي قال:

"أهلًا!"

غمغمت بشيء ولم أبن من الرهبة فقال:

"هل تعرفين الكابتن ساسكا شخصيا؟"

"آه، نعم بالطبع"

"بالطبع فهو يعرف نساء جميلات كثيرات"

لم أدر ما أقول حتى أردف:

"ماذا تريدين؟"

"إن أخي محتجز هنا وأُريد لقاءه"

"من هو؟"

"اسمه أدمير، أدمير أميرفيتش"

تنهد متظاهرا بالمعرفة ثم هز رأسه وقال:

"للأسف، إن الزيارات ممنوعة"

هز رأسه ثانية وقال وهو يشير بالكارت:

"حتى هذا الكارت لا يفيد".

أسقط في يدي ويبدو أني لا زلت كنت أملك دموعا، فقد تسللت واحدة لا أعرف من أين أحسست بها على خدي ورآها الرجل فقال:

"حسنا سأعطيك ما تريدين"

وأردف باسما:

"ليس من أجل ساسكا بالطبع، لكن من أجلك".

ابتسمت أنا أيضا لأول مرة، اجتاحني الأمل والخوف، سأرى أخي لكن بأي حال يا ترى؟ وحين أدخلوني لغرفة مغلقة وانتظرت فيها ساعة مرت كدهر انفتح الباب ليدخل أخي، أسرعت إليه محتضنة ولكنه لم يفعل، فقد كانت يداه مقيدتين،كان جسمه قد ازداد نحولا ووجهه ازداد شحوبا، ولولا تهلله لمرآي لحسبته مريضا على فراش الموت، جلسنا متشابكي الأيدي:

"كيف حالك يا أخي؟"

"كما ترين"

"هل لا يعطونك طعاما هنا؟"

"أنا من لا آكل"

"يقولون إنهم حققوا معك وسيحاكمونك!"

"من يقول؟ وكيف عرفتِ؟ وكيف أتيت؟"

"إنه أحد أصدقاء دراجان من أبلغني"

سيرة دراجان جلبت مزيدا من الدموع من مكمنها الخفي، لحظات من الصمت مرتقب لأن يقول:

"لا عليك يا أديلسا، إن أديلسا الجميلة لا ينبغي أن تبكي"

"لا أصدق أن يفعل دراجان ذلك، كيف يخونك هكذا؟"

نظر باستغراب قائلا:

"دراجان! لا، دراجان ليس السبب، أنا من أتيت إليكم مطاردا من زغرب"

مسحت دموعي وقلت:

"حقا؟"

"نعم، إن دراجان وغد، ليس إلى هذه الدرجة!"

احترت هل أبلغه بما عندي أم لا، كنت متحاملة على دراجان ربما لكنه لا زال وغدا. قررت أن أتكلم.

"لا أريد أن أزيد همومك أخي، لكنْ هناك أمر يدبر من خلفك"

"ماذا؟"

"إنه عني أنا"

"ماذا عنك؟"

"أحد أصدقاء دراجان كان يتقرب إليّ منذ فترة لكني لم أهتم به، وقد طلب يدي للزواج أمس ودراجان بارك الأمر"

انتفض وأراد أن يحرك ذراعيه لكنه اكتشف تقييدهما.

"من هذا الرجل؟"

"إنه نقيب في الشرطة السرية يدعى ساسكا"

"ساسكا، إنه صربي"

"نعم"

"ولا بد أنه أرثوذكسي"

"لا أدري"

"كيف لا تدرين، ألا تدرين أنك مسلمة ولا يجوز لك الزواج إلا بمسلمين!"

سكتّ وسكت، لم يخطر لي هذا الأمر ببال، ولم تكن تلك قضيتي، إن مؤامرة دراجان كانت أزمتي وها هو من التجأت إليه يغلق أزمة ليفتح أخرى، أنا مسلمة، للتو تذكرت هذا الأمر!

"أبونا كان مسلما هل نسيت! وأنا وأنتِ، ألم تصلي من قبل؟ إن أمك مسيحية وأخاك لا ديني، لكن أنت ينبغي أن تكوني من المسلمين، نحن من البوشناق أبا عن جد"

"نعم صليت لكني ما عدت، حتى الفاتحة أحفظها الآن بصعوبة، أما كوني لا بد أن أكون من المسلمين فلا أعلم لماذا، لماذا ينبغي للإنسان أن يكون له دين أو لا دين؟! هل لهذا الكون دين؟! هل للسماء والأرض والشمس والقمر دين؟!"

أخرجني أخي عن تأملاتي وقال:

"إن دراجان وغد ولا يهمه شيء ولا دين ولا شخص، وسيقنع أمك لا بد، إذن لا بد لنا أيضا أن نستبقه بأسرع وقت".

لم أفهم ما يقصد، بقي يفكر للحظات ثم قال:

"إن لي عرضا أفضل، لقد فاتحني فضل الله في الزواج منك منذ فترة، لكني أجلت الأمور لحين استقراري ولتأخذي وقتك في قرارك، لكن الآن لا استقرار ولا وقت".

أُلجم لساني، هل صرت سلعة في مزاد؟ هل جن إخوتي؟ دخل الجندي ليأخذ أخي، لا أذكر أني سلمت عليه لكنه قال:

"ما قولك يا أديلسا؟"

قلت بحزم:

"أنا لن أتزوج أحدا يا أخي!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اشتريت عند رجوعي بعض السماد للنبات، كان أدمير من يفعل دوما أو أُمي، وكان عندي فائض ولكنها حجة لغيابي المبكر، أُمي من فتحت لي الباب وحين سألتني أشرت لها بالكيس وانطلقت إلى غرفتي مرتمية على الفراش، ويبدو أنها دخلت عليّ ثانية لكني لم أشعر بها فقد غبت في سبات عميق، وكأنني أدركت أن النوم خير مهرب من أفكاري المختلجة. توقعت أن أحلم بكابوس معتاد لكن لم أفعل، كان نوما رائقا، وحين صحوت كانت الشمس تميل للمغيب. جلست مكتشفة أني لا زلت بلباس الخروج وأني فعلا أريد الخروج ثانية، كانت فكرة مجنونة، لكنها خير رد على الجنون الدائر، كنت أشعر أني في عالم سريالي روائي عجيب، البطلة التي تهب من قدر إلى قدر، تخرج من حفرة إلى نفق، تركب سفينة في بحر هائج ويخطفها القراصنة واحدا تلو آخر وحين تفلت منهم يلتهمها القرش أو يكاد. ما النهاية لست أدري، لكني قررت أن أتمرد قليلا وأن أرتجل دون انتظار ما يجود به الحبر والخيال، لن أظل الضحية ولن أظل رد فعل ولن أظل مجرد دفاع. لن أستسلم للفلسفة ولا للذكريات ولا للمشاعر، هم ليسوا سلاحي بل عدوي، سأحارب نفسي أولا وأحارب الآخرين ولو كانوا أقرب الأقربين، ثوان مرت وأنا أنظر بتصميم للمرآة قبل أن أتنهد خافضة رأسي قائلة بصوت مرتفع:

"ما هذا الهراء!"

أقل أعدائي كي أخلق عدوا جديدا هو نفسي تلك المرة؟ ثم من هم أعدائي؟ أحد إخوتي أم كلاهما؟ أُمي أم لا؟ ساسكا؟ فضل الله، فضل الله! غريب أمره حقا حتى هو! خرجت من غرفتي لكن لم أجد أحدا، إن الظروف تخدمني بشدة. أُمي لا بد أنها عند صديقتها ودراجان في الحزب، تسللت للمرة الثانية في يوم واحد مع أني لم أتسلل ولو مرة وإحدة من قبل، هذه المرة هنالك الكثير من المارة، كلهم ينظرون لي وأنا أحاول تجاهلهم كما نصحتني أُمي من قبل:

"ألا تلاحظين كيف ينظر الناس لك؟"

"كيف؟"

"إنهم مفتونون بك، أنت لست تملكين مجرد جمال، أنت تملكين جمالا بكرا وكأنك تطبعت بالطبيعة التي تتغنين بها، أنت للناس كالوردة والنهر والنسمة والشمس والعصفور"

أتحير وأسألها:

"أليس هذا شيئا جيدا؟"

"يا لك من بلهاء، إن الناس تقطف الورود وتصطاد العصافير!"

"إذن ماذا أفعل؟"

"لا تنظري إليهم، هذا يجعلهم يتمادون!"

تسللت في أزقة جانبية أعرفها جيدا، فكثيرا ما سلكتها مع أبي، حتى وصلت إلى قنطرة حين عبرتها إلى اليسار وجدت بغيتي، سوق بيزيستان، لم أكن أعرف ماذا سأصنع بالضبط وتركت الأمور تدير نفسها، وحين وقفت أمام محل أبي وجدت زبونين وفضل الله مشغول معهما، لم يرني بينما انسحبت للخارج أرقب المحل العتيق، لافتة قديمة مكتوبة بعدة لغات، اسم أبي وجدي لا زال كما هو، لافتة جديدة بأسماء المنتجات المتوافرة وأسعارها ويبدو أنه ليس هنالك الكثير. خرج الزبون الأول والثاني ثم فضل الله نفسه وكأنه خرج يستنشق هواءً مختلفا، لكنه فوجئ بمن لا يتوقع، لم أستطع فهم نظرته، بين المفاجأة والفرح والخجل والتوجس، كان هو بعمامته وقميصه الطويل، له شعيرات أسفل الذقن لا يقصها، وسواك في يده لا يتركه، قال بعد لحظات وكأنه انتظر أن أتكلم أنا أو فكر في تجاهلي أو الهرب:

"أهلًا آنسة أديلسا، إن عدة شهور قد مرت منذ زيارتك الأخيرة مع أمك، تفضلي"

قالها مشيرا بكلتا يديه خافضا بصره، لطالما حمدت غض بصرك لكن هل كان ذلك حقيقيا؟! هل كنت تغضه أمامي وتطلقه من خلفي! هل أنت ملاك تخفي شيطانا!

"وقد زرتكم منذ شهر وكنت ربما عند إحدى صاحباتك، هكذا قالت أمك، كيف حالها يا ترى! هل لا زال النقرس يؤلمها؟"

ما هذا النقرس أيضا ومتى أصاب أُمي! ولماذا لم تخبرني قط.

"إنها بخير، وأنت؟"

"الحمد لله وحده"

"هل الحمد لله وحده أم لأبي كذلك!"

قلتها بعدوانية تفاجأت منها قبل أن يفعل هو، ارتبك قليلًا ثم قال ضاما يده مقطبا حاجبيه:

"عذرا، لكن الله هو صاحب المنة، وما دونه هي أسباب مشيئته".

تفكرت قليلًا في كلامه ثم قلت:

"حين كنت تأتي دوما مع أبي للغداء، كنت تكبرني وكنت صغيرة لكن وعيي تشكل أنك أصغر الجالسين على الطاولة".

بدا عليه الإحراج لثوان فأردفت:

"كنت أنا من أناولك الطعام وأسألك إذا كنت تريد شيئا، إذن فمن يكبر من؟"

"كنت ضيفًا وأنت مضيفة"

"ينبغي أن تعلم أنه ليس هنالك ضيف يدوم لسنوات!"

"ماذا تقصدين؟"

لم أرد، فقد دخل زبون في تلك اللحظة يطلب شيئا، لعله من حسن حظ فضل وحظي كذلك، فقد أدركت أني لو تماديت لأسأت، يبدو أن الشريرة التي كانت في المرآة حقيقية، جلست وأمسكت بأحد المرطبانات الموضوعة، وحين خرج المشتري قلت مغيرة الموضوع:

"سمعت أنك تريد الزواج!"

بدا ذاهلا، لم يتكلم، هل لا يجد ما يقول؟ أم أن ازدحام الأسئلة أغلق طريق اللسان؟! بادرته بسؤال آخر:

"ما مواصفات عروسك التي تريد؟"

ابتسم وقال:

"لا أدري حقا ماذا تريدين، وكيف تعرفين ما تعرفين، لكني سعيد باهتمامك بي".

قلت متجاهلة ما يقول:

"هل تفضلها جميلة أم متدينة أم لعلها غنية؟"

ضحك وقال:

"يا ليتها تجمع كل ذلك!"

"وإن لم تفعل؟"

"الدين يمكن تعلمه، والمال يمكن تكسبه، أما الجمال فمن عند الله".

لم أفهم فهززت رأسي متسائلة:

"إذن؟"

أحسست لأول مرة بنظرة مباشرة متفحصة من تلك العيون الملونة وكأنني أراها لأول مرة ثم قال:

"أرجو ما عند الله!".

اجتاحتني رعدة خجل، كأنني هزمته في جولات عدة ثم هزمني في الجولة الأخيرة بالقاضية، لذا قمت متحاشية نظراته عازمة أن لا أتعرض لها ثانية أبدا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل هناك أكثر دراما أن يحاكم الإنسان إنسانا ليس أقل منه فضلا؟ هل هناك أكثر عبثا أن يعاقب الإنسان إنسانا مثله ليس أكثر منه خطايا؟! خاصة لو أن هذا يتم بمراسم خاصة يشهدها الناس ويباركها قانونهم المزعوم، لم أسمع قبلا عن ما يسمى المحكمة، وحين سألت أمي

"ما معنى المحكمة؟"

تعجبت وكأنها لا تعلم شيئا عن جهلي بعالم البشر، خبرتي تتركز على حياة ما دون الإنسان، وإني لأظنها حياة أعلى من مستوى الإنسان، فهم يقولون إن الحياة النباتية تطورت لحيوانية ثم تطورت لإنسانية، وأنا أظن العكس.

إن سلم التطور مقلوب وإن الإنسان هو أدنى الكائنات تطورا، فليست العبرة قط بالكلام والجدال والحراك والإنشاء، العبرة بغاية كل ذلك. السلام والاطمئنان، فهل يفعل ذلك أكثر من الكائنات البدائية والنباتات، لا أظن، ولا أظن أن هناك شجرة تسلطت على فرع فيها ولا وردة حاكمت إحدى أوراقها يوما وسط ورود شهود.

يقولون إن أخي قد أخطأ، حقًا؟! وأنتم هل لا تخطئون؟ هل تتفضلون بإبراز أخطائكم لنحاسبكم عليها أم أن خطأ أخي أنه رفع صوته بما يريد ويعتقد، يقولون إن أفكاره تؤذي المجتمع، فهل هذا مبرر كي تنالوا منه هو بالأذى؟! إذن أنتم تحتاجون محاكمة لمحاكمتكم إياه كذلك، وفي طريقي لحضور تلك المحاكمة لم يخرج عن ذهني تصور الأمر خارج تلك الأفكار، لذا مقتّها حقا لدرجة الرعب، كما أن رؤية أخي صارت من الأمور غير المحببة لدي منذ آخر لقاء، ولقد حاولت التحجج بعدم المجيء لكن أمي صممت ودراجان كذلك. أمي تريدني معها ودراجان يريد أن يتفضل علينا بالسيارة التي وفرها لنا، ودعت زهوري مشتاقة لرؤياها ثانية سريعا وركبت في الكنبة الخلفية لسيارة كابتن ساسكا، بينما دراجان ركب بجواره ووضع كرسيه في صندوق للسيارة، ركبت سيارات بموتور من قبل لكني لم أرَ لها صندوقا كهذا من قبل، تشاغلت بأفكاري عن ساسكا وتعليقاته، أما أخي فقد تظاهر بجدية حقيقية، أن أدمير برأه مما اتهمته به ولكني لا زلت أظن أن ما يحدث صادف هواه والتقيا، كانت المحكمة في الشطر الآخر من المدينة وحين ترجلنا أنا وأمي وساعد ساسكا دراجان على النزول ولحقا بنا فتحا لنا الطريق إلى الداخل حيث احتشد أناس كثيرون، زادت الرهبة عندي وحين نظرت لأمي وجدتها راهبة كذلك، لكن ساسكا قال معلقا:

"إنها قضية كبرى، متهم فيها كثيرون، والاتهامات خطيرة!".

دلفنا إلى قاعة المحكمة وجلسنا في أحد صفوف المنتصف، منتصف القاعة ومنتصف الصخب،كانت ثمة منصة مقابلة عرفت أنها خاصة بذلك القاضي والذي لم يأت بعد، وفي الجوار كان ما يشبه القفص، العديد من المتهمين، لكني تعرفت على أخي من بينهم، ازداد هزالا ونبتت لحيته، أشارت أمي إليه فأشار لها، تلاقت عيوننا منكسرة فالتفت كلانا في اتجاه المنصة وصادف ذلك دخول القاضي وهدوء الصخب، أغمضت عيني وفكرت في أبي، لا أعرف هل لأنه كان يشبه القاضي الكهل؟! أم أني أستجير به مما يحدث لأسرته؟! أم أني أستعيد فقط أيامه الهادئة! هل كان لأبي ذنب فيما حل لأدمير؟ لا أظن، لم يلتفت أبي أبدا لتغيير هذا العالم، حاول تغيير زوجه فقط وحين فشل عمل على تغيير نفسه، إن نفسه كانت تشمل العالم، ليس هذا العالم بل العالم الحقيقي، لم أفهم جيدا قصده دائما... كان يقول حين أكبر سأفهم فهل أفعل؟ ولماذا لم يفهم أدمير؟ إنه مؤمن أليس كذلك؟ إذن لماذا لا يتنازل عن هذا العالم مقابل عالمه الأفضل والدائم؟ لعله يفعل حين يعاقبه هذا العالم على تداخل العوالم لديه، هل ستكون تلك تهمته فعلًا؟

"إن تهمة هؤلاء قلب نظام الحكم الرشيد وإقامة دولة رجعية، إن التاريخ يتقدم للأمام وهؤلاء يعودون للخلف فلا مكان لهم بيننا!"

قالها رجل عصبي المزاج بصوت عال، ففتحت عيني لأراه، شاب طويل القامة ذو شارب وشعر مجعد وقف قبالة المتهمين ليدينهم بينما القاضي يسمع باهتمام، طالب رجل بلباس أسود أن يقول كلمة فلم يؤذن له إلا بتسليم الكلمة مكتوبة للقاضي الذي أخذها ليتفحصها، طال الوقت وأعتقد أنه ذهب لغرفة جانبية ثم عاد بعد مدة، فقد ارتفعت الأصوات والأعناق ولم أعد أرَى أو أسمع، أغمضت عيني ثانية مفكرة، ترى كيف سيحكمون عليك يا أدمير؟! هل يسجنونك كما فعلوا مع صديقك علي عزت؟ لقد سجنوه منذ ثلاث سنوات بل أكثر ولم يخرج حتى الآن، إني معتادة ألا أراك طويلًا يا أخي بل أنك ستكون أقرب إليّ، لو كان سجنك في سراييفو من أن تكون دراستك ثم عملك في زغرب لكن العبرة بحالك أنت... هل يمكن مقارنة بسمتك عند دخولك البيت بعينيك الزائغتين حين رأيتك في مركز الشرطة! لو كنت جوارك الآن لطلبت منك الدعاء لله فأنت مؤمن به وتعمل لأجله، سيساعدك لعلك تحصل على البراءة، بل أني سأدعوه لك، إنه يقبل الجميع كما تقول لي، يا رب هذا الكون العظيم الذي أراه ولا أراك، يا رب الأقحوان والتوليب والأوركيد المسكين التي بدأت ورداته في الذبول، كلم القاضي ليعفو عن أدمير، لثوانٍ جفلت، هل يكون القاضي هو الإله! وحين عم الصمت وجلس الجميع رأيت القاضي جالسا يتلو بياناً طويلًا، لم أفهم جل ما يقول عن الثورة والاشتراكية بل والحرية! ثم أطلق قراره بالحكم على البعض بالسجن، لم يكن أخي من بينهم، ثم الحكم على البعض الآخر بما فيهم أخي بالإعدام، شهق البعض جواري بينما ملت على أمي التي كانت ترتجف وسألتها:

"ما معنى الإعدام؟!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"هل حقا يتملكك الحزن على أدمير؟"

قلتها لأُمي بينما هي تجلس في الشرفة مثلما لم تفعل منذ عهد بعيد، كانت تقول أن هذا يذكرها بأبي وعهده، ولا أدري هل تقصد أنها ذكرى تخشاها خوفا منها أم تندما عليها، كانت تنظر للنهر كأن لم تره من قبل وتنظر لشجرة البلوط كأنما نمت بالأمس وترقب الناس كأنهم كائنات أسطورية، جلست بجوارها أنظر إليها ولا تنظر إليّ، قالت:

"هل من الممكن أن يتملكني الحزن دون وجه حق؟! هل يمزح الحزن وتلهو الدموع بينما يتظاهر القلب بالانفطار؟".

لولا أن عضلات وجهي متصلبة كمشاعري لاستطعت الابتسام، جال بذهني سؤال لم أسأله لكن أُمي أجابته دون أن أفعل وهي تقول:

"قبل أن أرزق أدمير كنت لا أزال طفلة، وحين رزقت بطفل أدركت أني لم أعد..."

سكتت ثواني ثم أردفت:

"كان شعوري أثناء ولادته شعورا دقيقا كشعوري حين تحولت من عذراء لسيدة، ورغم أني ولدت ثانية وثالثة لم أشعر بهذا ثانية ولا ثالثة، لذا فلو حسبت أن ابني البكر قد أكرهه مهما فعل أو لا أحبه

من أجل دينه وأبيه فأنت مخطئة بل إني لا أفضل عليه أحدا!"

هل تشير لدراجان أم لي؟! أنا أيضا لا أفضل عليه أحدا، ولا أنت يا أماه في تلك اللحظة التي أحسبك تبالغين فيها، حين علمت أنه راحل لا محالة سلمت أن الأفضل هو من يرحل، ولا أعلم أيهم آتي أولًا، هل كان الأفضل فرحل! أم حين رحل زادت قيمته فصار الأفضل! بل صار قديسا، لا شك أنه كان محقا في كل ما يقول ولا شك أنه لم يخطىء قط، إنه لم يظلم من قبل قاضيا أو ادعاء أو مستبدا بل ظلمه الجميع وأنا كذلك، ألم أتهمه يوما بمحاولة بيعي كجارية؟ ألم أتحاشَ النظر إليه في أحلك ظروفه وهو وراء سور وقيود؟ ثم ألم أر به من قبل فساد الرأي والسعي خلف السراب؟

"خبريني يا أُمي هل أن حياة أخي المهدرة ذهبت في سبيل اللاشيء؟"

"أخوك بطل، والبطولة حماقة!"

"يقول إنه ناضل في سبيل وطنه ودينه"

"بل وقف في وجه موجة قبل أن تنكسر، فانكسر"

"هل كان عليه أن يركب الموجة كما فعل دراجان؟"

ابتسمت بألم وقالت:

"أو يشاهد من الشاطئ مثلي أو لعله..."

نظرت إليّ نظرة ذات مغزى وأشارت ناحيتي قبل أن تردف:

"يتزوج منها!"

"هل تقصدين ساسكا! طيبة أنت أم ماكرة يا أُماه! لكنك على أية حال لا تدرين شيئا!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان فضل الله هو من رتب كل شيء،كان اتفاقنا سريعا، كأنها صفقة يبرمها كتاجر وأبرمها كزبون متعجل، غير أنه هو من اشترى وأنا من باع، السلعة نفسي والثمن رضا أخي الأكبر، توافر القبول ولم يتبق إلا إتمام العقد، وقبل موعد زيارة أخي الأخيرة قبل أن يواجه الموت وينفذ الحكم فيحيا حياة جديدة كما يظن، أو أراه في أوراق نباتات تنمو على قبره كما أظن، كنت مع فضل الله وصديق له يعمل مأذونا واثنين آخرين وحين سألته عن معنى الكلمة قال:

"إنه الرجل الذي يزوج المسلمين"

ثم أضاف مبتسما بحياء معتاد:

"الطيبين والطيبات...".

كان رجلا يلبس زيا غريبا أحسبه زيا عربيا أما فضل الله فقد كان في كامل أناقته تفوح منه رائحة زيتية، هل هو عطر أم زيت شعره الطويل المترجل! وقفنا في انتظار فتح أبواب السجن، وفي ترقب

أن يأتي أخي وأمي، كنت أعلم أن غيابي سيعطلهما بعض الوقت، لكني لم أستبعد أن يشهدا بأنفسهما عقد الزواج، وحين فتحت الأبواب كنا أول الداخلين، رأيت أدمير من بعيد فجريت أستبق الجميع لأدرك أن هناك سورا لا زال بيننا، لكنه أخرج يده ووضعها على كتفي كما يفعل دائما، أما العجب أنه أخرج من جيب بذلة السجن تلك الحلوى التي أحبها، انفجرت باكية، فانفجر هو الآخر، أسمع هسيس حزنه ينطلق من جوفه فتتسابق دموعي لأطلق هسيسا مثله، كيف فعلت ذلك يا أخي؟! كيف أحضرت الحلوى بل كيف لا زلت تذكرني؟! وحين أتى فضل الله وقف صامتا وحين رآه أخي مسح دموعه ومد يده مُسلِما وقال:

"أهلًا يا صديقي وأخي!".

كانت الدموع تترقرق في عين فضل الملونة، إني أحب عيونه ولكن لم أحبه بعد، وحين أخبر أخي أنه أحضر مأذونا وشهودا للزواج مني نظر إليّ أخي طويلًا وكأنه لا يصدق، وقال:

"لعل هذا أفضل شيء أسمعه قبل موتي".

نظرة عينه كأنها بلسمي، إنها تكفيني وما طمحت إليه مقابل ما أقدمت عليه، أما هو فقد مد يده في يد فضل وسمى الشيخ وأقرأهم عدة كلمات، بينما الشاهدان ينظران وفي دفتر كان يحمله دون شيئا ثم وقع الجميع، وحينها قال:

"مبارك!"

ولأول مرة ينظر إليّ فضل مطولًا هكذا، إنه لا يتأملني بل يلعقني لو صح هذا التعبير، ولم أدر بم أرد عليه؟، بتأمل مماثل لشريك حياة ساقه القدر؟ أم بتفكير عميق في عواقبِ ما قمت به؟ أم أنه ينبغي أن لا أضيع لحظاتي الأخيرة في وداع أخي؟ من بعيد رأيت أخي وساسكا وأُمي وقد قدموا فأشرت لفضل وصاحبيه كي يذهبوا، ووقفت ممسكة بيد أخي لا نقول شيئا بل تقول أعيننا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قررنا أن يكون زفافنا يوم الإعدام! هل هذا تفكير رومانسي أم مجرد من الشعور؟ لكننا قدرنا أن هذا سيسعد روح أدمير ويهدِىء من روعنا نحن، كما أنه يستغل فترة الصدمة لدى أُمي والتخبط لدى دراجان، لا زلت أذكر أُمي حين أخبرتها الخبر ببساطة، لم أحدد هل لم تفهم أم هل لم تأخذ كلماتي مأخذ الجد، لكنها قالت ببساطة مماثلة:

"مبروك"

علمت فيما بعد أن أدمير أخبرها حول رغبته، وحين تواجه شخصا ميتا لا تملك أن تجادله في رغبته الأخيرة، لكن دراجان بالطبع لم يعرف شيئا حتى اللحظة الأخيرة. وقبل ليلة الزفاف (الإعدام) ذهبت إليه في غرفته وأعطيته ورقة الزواج التي وثقها المأذون كأي زواج شرعي لدى هيئة المسلمين في البلاد والتي ستتخذ إجراءات التوثيق لدى الدولة، قرأها سريعا ولم يفهم فأعاد قراءتها وقال لي:

"ما هذا؟"

"كما ترى"

"تبا، أخبريني ما هذا!"

"زوجني أدمير لفضل الله منذ أيام وسأنتقل لأعيش معه في الشقة التي حازها لي"

جحظت عيناه وتحركتا في محجريهما يملؤهما الدم، وظننت أنه لو استطاع القيام لفعل إما لضربي أو لقتلي، ظل صامتا ينظر، ثم أخفض رأسه وهزه وقال:

"اللعنة على أدمير حيا وميتا!"

ثم أمسك بالورقة مقطعا إياها وقال "هل تظنين أن ورقتك تغني عنكما شيئا، لا مكان لفضل وأمثال هولاء لذلك الزواج المتخلف في العصر الجديد"

خرجت تاركة إياه فلحقني يقول:

"زواجك في حكم الملغي، وزوجك في حكم المفقودين!"

لم أرد بل ردت أُمي:

"دع أختك يا دراجان!"

وكأنه لم يصدق، أخذ يتلفت ويوزع النظرات بالعدل بيني وبينها ثم قال:

"ماذا تقولين يا أُمي، ألا تفهمين؟ لقد باع ابنك ابنتك لمتخلف رجعي مثله"

"لا تسب أخاك الأكبر"

"حقا، كنت تسبين أبي لنفس الأسباب"

غضبت أُمي لأول مرة منذ انتكاسة أدمير وقالت:

"أنا الأم والزوجة، وأنت الأخ الأصغر والابن العاق، لا مقارنة بيننا"

سكت دراجان كي لا يتلفظ بألفاظ نابية ربما، فأردفت أُمي:

"أمنية أخيك ورغبة أختك ليست ملكك أنت، ولا رئيسك، ولا ملكي أنا، ولو ملكي لمنعتها!"

"أنت تمنعينني أنا الآن"

"وأنا أحذرك، لو لم تمتنع عن إيذاء أختك وزوجها لآذيتك أنا"

التفت كل منهما في اتجاه، بينما ذهبت لغرفتي أبكي حتى النوم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت وصية فضل الله أن آتي بفستان أبيض ولا شيء آخر، كدت أن أسأله إحضار بعض زهوري معي لكنني لم أرد أي ذكريات قديمة أن تسكن بيتي الجديد، كان البيت في ضواحي سراييفو الغربية، كان شقة في الواقع لكنها الوحيدة المسكونة في البناية ذات الثلاثة طوابق، ذهبت أنا وأُمي في الصباح، البيت رقم ٨ في الشارع كانت مضاءة أنواره نهارا، هل فضل الله كان فيه سهرانا منذ الليل؟

دخلنا من البوابة الحديدية الضيقة نوعا، وصعدنا إلى الدور الثاني لنجد الباب مفتوحا كذلك، دخلنا دون أن نسلم أو نستأذن، الشقة أضيق كثيرا من بيتنا الفسيح لكنها شديدة التنظيم جميلة الألوان مريحة الأثاث، وحين جلسنا في الصالة وحاولت أن أفتح الشرفة جاءنا صوت فضل من إحدى الغرف مرحبا، سلمت عليه أُمي بلا روح بينما ظللت أتأمله في لباسه الغريب، هل هذه ألف ليلة وليلة؟! قميص طويل ملون مطرز لامع يعلو سروالا حريري المظهر مبهج اللون، بينما تفوح رائحة عطرها الشرقي من بعد مترين، ظل هو يتأملني كذلك حين جلس وقال:

"لم أرك قط غير جميلة يا أديلسا الحبيبة، في أي وقت كان وأي مكان فيه تلاقينا"

بدا علي الخجل وبدا على أُمي الملل فقالت:

"هل هذه شقتك يا بني؟"

"نعم"

"هل جهزت طعاما ومتطلباته؟"

"نعم، بالطبع"

"والملابس؟"

"كنت أرتبها للتو قبل مجيئكم"

"إذن لا تحتاجان شيئا لعدة أيام على الأقل؟"

"العمر كله بنعمة الله"

قامت أُمي واقفة وقالت:

"سأراكما يوم الأحد، زواج مبارك"

وتحركت نحو الباب، ابتسم فضل بينما تملكني الرعب. جريت على أُمي واستوقفتها، هل تتركني حقا الآن؟ هل سأعيش هنا بدونها؟ هل سيكون موقظي ومؤنسي ورفيقي هو فضل؟ نظرة أمي المتصلبة وكأنها تفيق من صدمة وخزتني بالذنب للحظة، إن أُمي بالطبع غير راضية لكنها رضيت لرضائي، فما معنى أن أكون أنا غير راضية الآن؟ لذا قلت لها متماسكة:

"أحبك يا ناتاسكا"

"وداعا"

قبلت يدها ومضت، بقيت واقفة عند الباب لا ألتفت، تمنيت للحظة أن لا أرى فضل الله حين ألتفت لكنه هو من جاء وحين وضع يده على كتفي فأفلتت مني صرخة فقال:

"لا بأس يا حبيبتي"

ابتعدت عنه وجلست في ركن بعيد بينما هو جلس بجوار الباب وقال:

"أعلم أنك لم تتمني هذا قط، لكني أصارحك. لقد تمنيته كل ليلة بل عشته بل دعوت به مجيب الدعوات في السماء والأرض وقد استجاب لي".

لم أرد بل ازددت نفورا وقلت في نفسي لو أن الله استجاب لي وحرر أخي لما كان قد استجاب لك، لكنه اختار أيسر الأماني وحققها، أم لعلها كانت أصعبها؟

"إن السعادة معدية يا أديلسا، لو أنك ملكت نصف فرحتي لكنت ثاني أسعد البشر، بعدي أنا بالطبع!"

لم أرد ولم أتجاوب بل ظللت في خواطري، فقام وقال:

"على الأقل ألا تريدين أن تري شقتك الجديدة؟ تعالي!"

أشار إليّ فقمت متمهلة. اقتربت منه فأمسك بيدي وقادني نحو المطبخ الذي فيه مشعل نيران وفيه مخازن خشبية، وأراني أطباقا من الطعام قال إنها من أشهر مطاعم سراييفو، وتكلم كثيرا وأراني أشياء كثيرة هنا وهناك، ولم أدر إلا وأنا في غرفة النوم على سرير كبير لم أرَ مثله وأنظر في مرآة فأتفاجأ بامرأة كأنها ميتة، لكنه جلس بجانبي وطوقني بيديه وأراد احتضاني فقلت:

"لعل أدمير يعدم الآن!"

تركني مباشرة ولم يدر ما يقول غير أنه قام وقال:

"لقد نسيت، لم أرِك الشرفة، لقد حضرت لك مفاجآت هنالك!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمر الأيام بل والشهور، كل يوم تشرق الشمس بكل تأكيد ولكن يبقى السؤال وإجابته على محمل التخمين على من تشرق هذا اليوم، في كل يوم يموت أناس ودواب ونبات، كائنات رأت الشمس من قبل ولن تراها ثانية، وفي كل يوم أيضا يولد المزيد، كائنات لأول مرة ترى الشمس والنور الكوني، لكن ماذا عن الأرواح التي تموت وتولد من جديد؟! وماذا عن الأرواح في البرزخ بين الموت والميلاد؟! هل ما تراه هو الشمس أم الأمل الصادق أم الوعد الكاذب؟! أجلس في الشرفة أتناول القهوة التركية وقد أدمنت التحويجة التي يستوردها فضل في دكانه الجديد وتعتبر سر شهرته، قهوة داكنة للغاية كثيفة للغاية، رائحتها كأنها البخور، طعمها كأنها دكان عطارة كامل، أشربها فتدفئ عروقي بينما الشمس تلسع بشرتي الحساسة، لقد حمت الشمس، هل انتهى الشتاء حقا أم أنه لا زال يراوغ؟! لكني لا زلت على عادتي الشتوية، شمس الصباح وقهوته وخواطر حول كليهما، كان الشتاء مناسبا بشدة لحالتي وتقلباتي بل وكوابيسي، حين يلي الشمس غيم أو يلي المطر صفاء ويلي البرد دفء ثم يلي الدفء رياح أشعر أني لست مجنونة وأن العالم كله مترنح المزاج، لكن معقد ومال ربيعه لينكشف جنوني أم لعله يذهب مع ليل الشتاء، أنا أنتظر الربيع على أية حال لأسباب أخرى، ففيه ستولد أولى أزهار نباتاتي الجديدة، كانت تلك مفاجأة فضل، فقد أوصاه أدمير بهذا سرا لكن بصمته الشخصية بدت في اختياره لتلك النباتات الشرقية، الورد الدمشقي والزهر الفارسي والياسمين الهندي، لفضل نظرة غريبة تجاه العالم، هو يحب كل ما يمت للإسلام بصلة، ولو كان الأمر جغرافيا، لذا هو يحب الشرق ويكره الغرب، ينظر جنوبا ولا يلتفت شمالا، يقول:

"أنا أدور مع القبلة".

عاطفة محمودة لكنها ضيقة للغاية، وقد كان أخي يفعل العكس تماما، وكذلك علي عزت كما حكى أدمير، كانا يريدان استزراع الإسلام في البوسنة بدلا من استيراده، كان الإسلام عندهما فكرة وعند فضل طقوسا، عندهما حقوقا وعند فضل واجبات، كنت أشفق عليه، إنه لا يكف عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن، لكني كنت أتعجب من قراءته، فقد كان يقرأ بسرعة وأحيانا بظهر الغيب، أعلم أنه يعلم العربية ولك نهل هذا يعني إلمامه بالمعنى! لم تفلح خطواته الأولى في تعليمي العربية، إنها صعبة للغاية كما أنها ليست واجبة وأدمير لم يكن يعلم عنها شيئا، اضطر لشراء مصحف بالبوسنية لكني كنت أفتحه في حضوره وأغلقه في غيابه، حين تصفحت القرآن وجدته يتكلم في أمرين مرعبين، أمور دنيوية للغاية تتعلق بالبشر وحياتهم ثم أمور غيبية للغاية تتعلق بالرب ومملكته السماوية، ولا أنا أحببت البشر ولا أنا رأيت الله، لا أنكر أني كثيرا صرت أكلمه في صلاتي التي علمها إياي فضل لكني لا زلت أشعر بأني لم أتلق ردا ولن أتلقى، لكن فضل يؤكد أنه يفعل، لم أكن أدري كيف أسمي شعوري لفضل، هل هي ألفة! هل هي مودة! هل هو حب بالإكراه ردا على إفراط فضل في حبه لي! لكن هل هناك حب بالإكراه؟ إن فضل رجل مستقيم عيناه أخاذتان كما أنه طيب وحلو المعشر ومعه ذقت حبا جسديا لم أفكر فيه قط، لكن ما أتساءل عنه هو إشراق الروح بالروح، لكن بالنسبة لي كواحدة قضت مراهقتها في تربية النباتات وتأمل الطيور وبغض البشر فلا بد أن هذه هي أفضل نتيجة قد أتوصل إليها، إنني لم أمل قط لغرائز البشر ولا طباعهم. أنا نبات في البرية بل نبات في حوض شرفة، أحدهم بعيدا عن موطنه الأصلي والذي للأسف لا أعلمه، وحين انتصفت الشمس السماء قمت إلى المطبخ أعد الأرز والمرق قبل مجيء فضل جائعا كعادته، كلما دخلت هنالك تذكرت أمي وغضبها المبرر لأفعالي الخرقاء بين حريق الطعام والثياب والأنامل، إن غدا الأحد، سوف تذهب لكاتدرائية الأرثوذكس حيث صارت تواظب على القداس ثم تأتي إليّ، إن بيتنا قريب من هنالك على كل حال، فاجأني صوت فضل وهو يفتح الباب ويقول:

"السلام عليكم"

خرجت إليه. قبلني فقبلته ثم أشار إليّ:

"لا تطبخي شيئا"

"لماذا؟"

"أحضرت لك الكباب الذي تحبين"

وأشار بيده التي لم أرها...

"شكرا يا عزيزي"

"إنه من باستشارشيا"

"هل ذهبت إلى هناك؟"

"نعم، عملية نقل بضاعة ولا بأس بنقل الطعام"

ضحكت، وضحك ثم قال مستفهما:

"هل صليت الظهر؟".

"نعم"

قلتها بخفوت وتسللت أُحضر الطاولة، جلسنا وسمينا الله كتقليدنا وبدأنا الأكل، كان يأكل سريعا كعادته فقلت له مداعبة:

"هون عليك. إن ملابسك تضيق على بطنك"

غمزني بيده وقال:

"على الرجل أن يكون عظيم البطن"

"والنساء؟"

"لا، أليس النساء عكس الرجال؟"

"بلى"

"إذن عليهن أن يكنّ بلا بطن"

"مثلي؟"

"بالطبع يا حبيبتي، إن قوامك لأخاذ"

ابتسمت خجلى لكنه سكت للحظة ثم قال:

"لكن عليك أن تفسديه قليلًا"

التفتّ إليه مستفهمة فأردف:

"لتسعة شهور فقط"

ازدردت ما في جوفي وصمتّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزت

١٩٤٩

قارب الشتاء على الانتهاء ولكن البرد لم ينته بعد، ورغم أن البرد هذا العام كان عاتيا إلا أننا كنا نستمتع بذلك على أفضل نحو، إن متعة الشعور بالدفء وسط الغابات الباردة تبعث الشجن بالنفوس، فالشعور بالأمان في سفينة حصينة يكتنفها بحر هائج لهو أمان بطعم الحمد، والحمد يعني استشعار النعمة وحينها ندرك كم هي جليلة، في الحقيقة ومنذ واظبت على شي البطاطا كل ليلة وأنا أتأمل ذلك المعنى، بالتأكيد تلك البطاطا التي يشويها المساجين مساء، والتي يزرعونها نهارا بالمناسبة. بالتأكيد ليست أشهى من اللحم المشوي بالفلفل والكباب المشوي بالبهار، والطيور التي تشوى بكامل أجسامها كأنها كانت تطير توا في السماء. تلك مشويات أصحاب الثروة وأصحاب النفوذ، ولقد رأيت كثيرا منهم لكني لا أذكر أني رأيت نظرة الرضا والامتنان كما أراها الآن على كينان وعاطف ونديم وهم يتضاحكون أمامي ماضغين ما أوزع عليهم من قطع بطاطا طرية مشوية تتلقفها أطراف أصابعهم فتلقيها في معدتهم فتجابه برد الخارج بدفء ينتشر من الداخل، إذن كان هذا يوما آخر من أيام المزرعة التي انتقلت إليها كجزء أخير من تاريخ سجني الحافل منذ ثلاث سنوات، بعد أن عملت في الهدم والبناء والترميم، وبعد أن كنت أموت جوعا وبردا كل شتاء في زنازين باردة فها أنا أنتقل للتحطيب والزراعة والحراسة أتمتع ببركة الرزق المباشر من يد الله، ليس هناك طعام جاهز يوزع ولا من أموال كوسيط لأشتري منها، فقط حبات البطاطا تستخرجها أيدينا بعد أن زرعناها بعلم الله وحكمته ونعيش غير عابئين بشيء، نستمتع بالشمس نهارا والقمر مساء، أو النار الموقدة بالحطب الذي نقطعه كذلك في الغابات، لو كانت تلك حياة الإنسان البدائي لحسدته عليها، لكن تطور الإنسان لم يكن رفاهية على كل حال بل قدرا محتوما، هذا إذن يوم آخر لكنه بعيد كل البعد عن بلدتي بل ووطني ككل.

كم بدت البوسنة حلما غابرا من هنا أما سراييفو فشبح صرت أشك في وجودها، فنحن في سجن زراعي بعيد على الحدود المجرية مع الجمهورية اليوغسلافية الوليدة، أحيانا كنت أفكر في إيجابيات الأمر، بالطبع اتحاد ست جمهوريات معا مكونة يوغسلافيا أمر مفيد ويدعو للفخر رقميا، أمة كبيرة بمساحة كبيرة، موارد أكثر وجيش أقوى، هذا بالإضافة أن البوسنة وإقليم الهرسك التابع له أعاد أمس تقلين ثانية كوحدة واحدة دون اقتسام الصرب والكروات، لكن حين تعايش الواقع تجد أن هذه ليست يوغسلافيا بل صربيا الكبرى، وكأنه احتلال متخف، يقول الشيوعيون أن لا تمييز في جمهوريتهم لكن ما بالي أرى حزبهم يحكم الصرب القبضة عليه؟ ومالي أرى حكومتهم من وزرائها إلى ضابط السجن هنا من الصرب؟! يقولون تيتو من كرواتيا لكن الحقيقة أنه يحكم من بلجراد، وما تلك الجمهورية إلا امتداد للمملكة التي كان يحكمها ملوك الصرب ويدرسون فيه أطفال البوسنة المسلمين قصص القديسين الصرب، لكننا المختلف الآن أننا لا نواجه الصربنة فقط بل مزيجها المر مع الشيوعية، هذا إذن مجرد يوم آخر من التفكير بلا تدبير، لكن الجديد أنه يوم أخير، فاليوم أخبرني آمر السجن في طابور الصباح بأن الغد سأرحل إلى مسقط رأسي ويفرج عني هنا لكل انقضاء مدة حبسي التي حكم بها القاضي بعد الرأفة كما قال وقتها، ثلاث سنوات فقط. يا للقسوة! لكن لم يكن هنالك من

وقت للتفكير في الماضي بينما المستقبل يفتح أبوابه -أو هكذا يبدو لا مجال لأفكر في حرماني من رؤية أهلي تلك الأيام و الليالي فها أنا خارج إليهم، لا مجال لأفكر في خالدة التي بادلتني الرسائل الورقية على مر الأيام والسجون فها أنا قادم أعوضها ثمن وفائها، لا مجال لأفكر في جسمي الذي هزل وعقلي الذي ذبل، فها أنا قد استعدت لياقتي البدنية في تلك المزرعة ولياقتي النفسية حين علمت بنبأ خروجي بينما لياقتي الذهنية التي تلتهم الكتب فغذاؤها في الخارج وها أنا شارٍ ومقترض.

"لا مجال لكل هذا الاستغراق ليلة خروجك يا فتى".

أخرجني من أفكاري عاطف بلكزة يده وصوته الهاتف بي ويا له من محق، فها أنا أفكر كيف أن عليّ ألا أفكر، أي عبث؟! كان هو الأقرب إليّ فقد انتقل معي في سجوني كلها وقد كان عضوا في جمعيتنا لكني لم أعرفه إلا خلف القضبان. وكنا نحن نواة مجموعة بوسنوية أينما رحلنا، فكنا نجتمع للصلاة وللثرثرة بل والغناء أحيانا، وهنا ورغم قلة المساجين البوسنيين وقلة المساجين السياسيين عامة لكننا كونّا مجموعة خاصة بنا.

"معك الحق لكن يبدو أن سجني لم يعلمني شيئًا"

"لا يمكنك أن تحكم الآن فأنا مثلًا قلت قولك حين خرجت من تعبئة النازيين، شعرت أن عامين من عمري قد ضاعا، وحين سجنت عرفت قيمة أن تذوق الوحل!".

ابتسمت بطرف فمي وقلت:

"هل لذلك قيمة؟"

"نعم، لن تتحرج بعدها أبدا أن تسير فيه وستعد ذلك ترفا"

فجأة أتى نديم من خلفي وجذب يدي فانسقت وراءه وصار يغني ويحرك يديه وأنا واقف جواره يقهرني الضحك غير مصدق، وانطلق صوته الأجش يقول:

"أيتها الأرض ذات الألف سنة

أنا أعهد ولائي لك

من السافا إلى البحر

من الدرينا إلى الاونا"

ثم بدأ يحرك رجليه كذلك، إنه يرقص! بينما تراص حولنا الناس من مجموعتنا ومن المجموعات الأخرى. ورغم أنها أغنية بوسنية قديمة ولا يليق بها الرقص ولا التصفيق خاصة من غير البوسنيين لكنه أكمل الرقص وأكملوا التصفيق ثم انتقل لمقطع آخر يقول:

"يصونك ربي

لقدوم الأجيال

أرض أحلامي

أرض أسلافي"

"يالك من مجنون!"

يقولها ويمط في حروفها، ثم صار يحركني معه في حركات دائرية والنار حولنا أو بيننا، لقد صارت أقرب لرقصة بدائية، استمر الحال لدقائق وانتشى الجميع بما فيه النيران التي تراقص لهبها كذلك، بدا علينا بوادر التعب فبادرت إلى رفع يدي لأوقف الجميع، فكفوا عن التصفيق وكف نديم عن الغناء بينما أتى نديم ومعه اثنان يحملان صناديق من المشروبات، كيف أتوا بها وكم كلفتهم؟!

جلست وأنا أمسك بشرابي وحينها أتاني نديم وقال:

"ما لك وكأنك أنهيت الاحتفال باكرا"

"أريد أن تكون اللحظة الأخيرة هي ذروة الفرحة فهذا ما سيعلق بالذاكرة"

وها أنا لا زلت أتذكر حتى طعم الشراب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"لماذا لا زلت تقف في الجوار، هل تريد الدخول ثانية؟"

قالها الجندي شرس الملامح والنظرة والصوت وكأنه يتوق بالفعل لذلك.

"لا بالطبع، شكرا!"

تحركت متثاقلا وأنا لا زلت أنظر حولي غير مصدق، كنت للتو قد خرجت من قسم الشرطة بسراييفو بعد أن انتقلت إليه هذا الصباح في سيارة روسية الصنع غير مريحة بالمرة لكن ذلك لم يفسد الشوق الجامح المتقد والذي انطفأ ببساطة مجرد خروجي من القسم ووقوفي مندهشا حتى قال لي جندي الحراسة ما قال، هل هذه سراييفو بالفعل؟ إن أعوام السجن تمر كأنها عشرات الأعوام وهذا على عكس المتوقع لا يؤدي إلى الشعور بجمود الزمن بل إلى الشعور بفواته كقطر سريع لا يقف، لقد تخيلت أن سراييفو سيتكفل الزمان الجامح بحداثتها وبتجميلها، لكنها بدت كشابة مر بها الزمان فصارت عجوزا عقيما، أو كعروس ذابت مساحيق وجهها ففقدت جمالها الطبيعي والصناعي معا، كل شيء كان مختلفا، ذبلت الجنائن، توسخت الطرقات، بهتت ألوان البيوت والبشر، حتى الملابس كأنها لم تتغير منذ ثلاث سنوات من على الأجساد، خرق بالية على أجساد خاوية، مشيت متلفتا لعلي أجد ما يبهج العين أو يسر القلب أو يزكي الذكريات، لكني لم أجد إلا قطعانا تسير ومحالا مغلقة وجنودا متشككين وصورة لرجل عابس تملأ الشوارع، فلأسرع إذن، لو ضنت عليّ سراييفو بترحابها فلن يضن عليّ بيتي وأهلي، تذكرتهم لكن تذكرت حملي، تلك الرسالة في جيبي والتي ظلت مغلقة فلم يفتشني أحد، وكأنها حق معلوم لصاحبتها، وكانت تلك خطتي من البداية، سأسلم الرسالة ثم أعرج إلى البيت، وشجعني أن محل السيدة في باستشارشيا وأنا أحب تلك المنطقة وإن كنت أخشى الآن كيف سأراها، هل ستكون مسخت كما سراييفو الجميلة؟! بصعوبة تبينت طريقي دون خطأ، كان الليل يقترب والجو يزداد برودة، فأحكمت المعطف حولي وأسرعت الخطى، وصلت باستشارشيا

ودخلت سوقها، أخذت أتأمل أسماء المحال التي اختلفت كثيرا عما عهدتها لكني أخيرا وجدت الاِسم المطلوب، عبرت الطريق وطرقت الباب المغلق نصفه اتقاء للهواء ففتحت سيدة متشككة وهي تقول:

"ماذا تريد؟!"

"مساء الخير سيدتي"

لم ترد وظلت تنظر بشك، أخرجت الرسالة المطلوب توصيلها وسلمتها قائلًا:

"إنها من كينان"

قطبت وكأنها لا زالت شاكة وحين فتحتها وتعرفت الخط بدا البشر عليها لأول مرة، جلست على كرسي لم أره إلا الآن في الداخل تقرأ ما في الورقة بلهفة، بينما ظللت أنا واقفا أتأمل دكانها لألاحظ أنه تقريبا فارغ تماما، ماذا تبيع تلك السيدة ولماذا تفتح نصف الباب؟، فلتغلقه تماما إذن! وحين انتهت من القراءة قامت وقالت:

"شكرًا لك، اعذر تجهمي معك فأنا أتعرض عادةً لمضايقات كثيرة"

"لا عليك يا سيدتي"

"كيف حال كينان؟"

"لابد أنه أخبرك أنه بخير حال مثلي تماما الآن، غير أنه بعيد عنك"

"لقد سئمت غيابه، وسئمت الحياة ولولا ابني لاعتزلت كل شيء!"

كانت الحياة قاسية معها لا شك في ذلك، إن ذلك باد على وجهها بشكل فاضح وكأن صروف القدر هي صانعة تلك الندوب البارزة والنظرات الزائغة، كدت أن أستأذنها لكن الفضول غلبني وسألتها:

"عفوا، لكن ماذا تبيعون هنا؟"

"كما ترى"

"أنا لا أرى شيئا!"

أشارت خلفها لجوالين في أحد الأركان، أجولة من اللفت الأبيض.

"هل هذا كل ما تبيعونه؟"

"بل هذا كل ما يوجد في سراييفو"

هززت رأسي أسفا لكنها أردفت:

"حين تأتي البطاطا التي تأكلونها في مزرعتكم ستجد هنا طوابير لكن هذا ليس موعد تموينها الذي حددته الحكومة".

لا بد أن زوجها أخبرها بشأن طعامنا وإن كنت لا أدري سر أزمة الغذاء إذن، هل هي ندرته وعدم كفايته للجمهورية المترامية أم سوء توزيعه؟ وهل سوء التوزيع مقصود تحت مسمى التموين المنضبط بمواعيد والحصص والكوبونات التي يقولون تضمن عدالة التوزيع للناس أم لعلها تضمن فقرهم؟ تصورت التدهور الشيوعي هذا مرارا قبل سجني لكن لم أتصور وصوله لتلك الدرجة، استأذنت السيدة ومشيت أبحث عن أقرب طريق مختصر للمنزل نافضا أفكاري العامة قليلًا، فذلك وقت المشاعر الخاصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين لبثت عدة أيام ملازما المنزل تخدمني أختي وآكل ما أريد وأنام متى أشاء ظننت أني لبثت دهرا، وكأن قصة أصحاب الكهف قد انعكست في قصتي، ولم أكن أتوقع أن حياة الإنسان التي نشأ عليها وأفكاره الموروثة بذلك الرسوخ وأن عوارض الزمان مهما طالت محض استثناء، فكأن فترة السجن تلك لم تحدث وكأنني عزت ابن العشرين، لا زلت يجرفني الأمل ويحركني الطموح وكأن هذا الأمل وذلك الطموح لم يكونا سبب سجني، كان الناس يسألونني وماذا قررت أن تفعل الآن؟ وهو سؤال يحمل طيه معنى خبيثا، أي هل كففت عن أفكارك الحمقاء التي أوردتك المهالك وتقرر أن تفعل شيئا يفيدك؟! حسنا، لا أملك الآن إلا نفس أفكاري وحتى تلك المهالك لا أذكرها وهذا قد يعني أني سأخوضها من جديد، هكذا صحوت صبيحة يومي الخامس في فراشي مفكرا كيف السبيل لحسن بيبر! خرجت لثاني مرة منذ دخولي البيت، بعد خروجي الأول لرؤية خالدة، خرجت منطلقا إلى منزل حسن بيبر ليس بغرض الوصول إليه لكن استكشاف أوضاعه، وكان ما توقعت وما حكاه لنا المساجين الجدد، إن المخبرين أكثر من المارة حول منازل الناشطين، إنهم كفخ عنكبوت في انتظار أي ذبابة تحاول التواصل مع ناشطهم ولولا ذلك لقبضوا عليه منذ حين، كان حسن منهم وبينهم حاطبا ذا نظرات متفحصة، إنه الأكثر أمنا لكن الباحث عنه الخطر يحدق به، رجعت سريعا إلى المنزل لكن قبل أن أصعد السلم نادى علي أحدهم وقبل أن أسأله عمن هو قال:

"بيبر سيقابلك عند الخامسة على الجسر اللاتيني".

قالها ومشى، تسمرت لدقيقة وصعدت أفكر حتى ساعة الغداء، من هذا وكيف عرف بيبر بي؟ وهل من الممكن أن تكون خدعة أو فخا؟ قررت المجازفة وعند الخامسة إلا الربع نزلت متجها إلى الجسر كأني سائح جاء يشاهد موطن بداية الحرب العالمية الأولى، هنا قتل أحد أفراد عصابات الصرب ولي عهد النمسا وكانت الشرارة، من يصدق أن سراييفو الجميلة عاصمة البوسنة المسالمة تكون هي شرارة حربين لم تنته آثارهما حتى الآن، كم هو بائس هذا العالم يتشارك الشر ولا يتشارك الخير، وقفت وكانت الرياح الباردة لم تكف بعد، لذا لم يكن غيري واقفا، فقط يمر الناس مسرعين، قررت إذن أن أقطع الجسر جيئة وذهابا فلا أثير ريبة، وماهي إلا جولة واحدة ذهابا حتى وجدت بيبر مقابلني لكن في الناحية الأخرى، كدت أن أشير إليه متهللًا لكنه مشى في اتجاهه كأن لم يرني، عرفت أنه يقصد أن أتبعه، فعلت، انعطف يمينا نهاية الجسر فتبعته، وصل شارع النحاسين المزدحم دوما ودخله، حاولت اللحاق به مسرعا لكنه اختفى عن ناظري، قلبت كفي ووضعت ذراعي بجنبي وحين التفتّ وجدته أمامي، شدني مسلما فاحتضنته، كان كما هو بشاربه وصلعته لكن صفاء عينيه حل محله توجس دائم كما يبدو.

"حمدا لله على سلامتك، هل أوحشك السجن بتلك السرعة؟"

قالها ثم بدأ يسير وأنا خلفه بخطوة.

"بل أنت من أوحشتني"

ضحك وسكت قليلا ثم قال:

"عزت، لم يعد الوضع كما كان، لقد توقف نشاطنا تقريبا من فرط الاعتقالات"

"أعلم، لقد توافد عليّ العشرات في محبسي"

"بل مئات حتى أني لا أدري لم مراقبتهم وما سبب خشيتهم"

حال بيننا بعض المارة، تخطيتهم وقلت وأنا أحاذيه:

"إنهم يخشون انضمام المزيد والبديل عمن يعتقلون"

"بل يخشون عودة المفرج عنهم!"

ابتسمت للحظة وهززت رأسي، حقا هل يخشونني أنا مثلا؟ كان الزحام يزداد بدخول المساء وهذا الشارع على عكس سراييفو لم يفقد حيويته وبطبيعة الحال بريقه، لأن بريقه حقيقي وليس مجازا مع كل منتجات النحاس تلك التي يأتيها الناس من كل صوب، إنه سوق شعبي قديم الطراز لكنه جارى التطور أو لم يتجاهله التطور باعتباره تراثا وأثاثا، وصلنا إلى السبيل في منتصف الشارع، سبيل عثماني أثري ما زال يدر المياه وحوله تحوم الحمائم في ميدان واسع، ما زال بعض الحمام مستيقظا ويرمي له البعض الطعام، أحب هذا المكان لكن لا أحب ما أشعر به الآن، اليأس...، قال بيبر وقد جلسنا متجاورين مستندين على جدار السبيل.

"إن الدور يقترب مني، أشعر بذلك وأنا أخطط للانتقال"

"أين؟"

"توزلا مثلًا، لنا قاعدة قوية هناك مع قيود أقل"

"لا أظن القبضة الشيوعية قد ترتخي"

"إذن ماذا ترى؟"

"حسبتك أنت من تملك الرؤية وجئت أستبصرك"

"حين أحصل على واحدة لا شك سأخبرك، مرحبا بعودتك"

"كيف سنتلاقى إذن؟"

"كما التقينا اليوم، تعال إليّ وأنا من سأرسل في طلبك"

"حسنا يا حسن!"

افترقنا وأنا لا تزال كلماته في ذهني، لم يعد الوضع كما كان...، هل هو يطلب مني أن أترك الأمر أم يخبرني أنه هو من تركه؟ وهل حقا سينتقل من سراييفو؟ فطنت أنه علي الآن التفكير فيّ أنا وليس في حسن. ولعدة أيام بل أسابيع حاولت تخطي الأمر لكن لم أستطع، أحاول أن أهرب بالقراءة بل والكتابة ولكن ما الجدوى إذا كنت لا أستطيع تطبيق قراءاتي ولا حتى نشر كتاباتي؟! لا بد من النضال أو مناقشته على الأقل، لا بد من صديق يشاركني ما أفكر أو ما أشعر ولو لم نفعل شيئا، لم أستطع الانتظار أكثر، ذهبت أقتفي أثر حسن ثانية، وعند منزله توقفت، يفترض بي العودة لكن ليس ثمة غرباء أو عيون مترصدة، هو قال سنتقابل بنفس الطريقة لكن لم التعقيد إذا كان من الممكن اللقاء ببساطة! تأكدت أنه ما من أحد يراني أو يقف ناظرا في شرفة واتجهت أطرق بابه، دقيقة مرت وفتح لي والده العجوز وحين سألته عن ابنه قال:

"حسن، لقد أخذوه من يومين يا بني ولا نعلم له طريقا حتى الآن، هل تعلم عنه شيئا؟"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكأن هذا الكرسي هو كرسي الإعدام، أصحو كل صباح فأجلس عليه منتظرا الحكم، ورغم أن في الأمر مجازا لا بأس به لكنه يحمل طيه حقيقة معترفا بها، فالمجاز أن ذلك ليس كرسي الإعدام وتلك ليست ساحة الأحكام وأنا لست المدان، أما الحقيقة فهي حقيقة الانتظار. أنا أجلس فاتحا النافذة مستحضرا المشهد، ومنتظرا إطلاق الرصاص على حسن بيبر وأدمير واثني عشر شابا آخرين من أبناء جمعيتنا الأم الثكلى منذ ولادتها، هذا الانتظار الذي يدخل يومه العاشر والأخير منذ سماعي للحكم وموعده، هذا الانتظار الثاني الذي سبقه انتظار أول هو أن يتم القبض عليّ بعدما قبضوا عليهم وقد استسلمت لذلك بل تمنيته بعض الأحيان، ما عاد للهرب جدوى ولا الاختباء، والحرية مع الخوف لا تختلف كثيرا عن السجن، والحياة مع اليأس لا تختلف كثيرا عن الموت، لكن الانتظار الأول لم يسفر عن شيء فهل يفعلها الانتظار الثاني؟ لا أظن! بل لعل سبب عدم القبض عليّ هو سبب الحكم بالإعدام، أليست من التهم الموجهة لبيبر ورفاقه التستر على مجرمين آخرين؟ هل تحمل بيبر الكثير كي لا يخبر عني؟ هل سألوه عني فأنكر؟ هل أهانوه وضربوه فصمد؟ يموت هو وأعيش أنا، لكن ماذا يكسب العالم بي وكيف يخسر ببيبر! كنت أتمنى أن أخبره أني سأكمل طريقنا ولكن كيف يطبب المريض ميتا! كنت أتمنى أن أودعه على الأقل في قفصه أو نتبادل أماكننا، لكني لم أستطع الحركة في المحكمة وكنت أول الداخلين وآخر الخارجين، ولو استطعت لكان أول ما فعلت أن أقوم وسط الجلسة أهتف بكذب الادعاء وظلم القاضي ونبل قضيتنا، لكن إذا كنت من الضعف بأن لا أستطيع فعل ذلك فهل أجد قوة كي أنظر في عين رجال صدقوا وأنا من أنتظر!

أذكر الآن أني رأيت فتاة في الجلسة، وعلى وجهها نفس التعبير، ولقد راقبتها، فوجدتها لم ترفع نظرها لأخيها خلف السور، الذي أذكر أنه كان أدمير ولم تذهب إليه، كنت مثلي إذن، شلتك الصدمة، وحين عدت إلى المنزل لم أفارقه إلى تلك اللحظة التي جلست فيها منتظرا الإعدام، عشرة أيام قد مرت والساعة تقترب من العاشرة وروحي تقترب من الخروج، وفي الميعاد كأنني سمعت الرصاص ينطلق في حصد الأرواح، أربع عشرة رصاصة أم لعلها خمس عشرة... أربع عشرة لهم وواحدة لي، خرجت أرواحهم وروحي لكني في المساء أيقظوني... لقد عادت روحي إليّ فهل عادت إليهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما شارف العام على نهايته علمت أنه توقيت مناسب لبداية جديدة ونهاية تفكير طال فيما مضى وقصر عما يأتي، لقد تعديت اليأس الذي ألم بي لشهور! قلت لنفسي أليس الله هنالك؟ أليس هو الحاكم لا زال؟ أليست حياتي بيده ومقاليد السماوات والأرض وجثث أصدقائي ونهر السافا والبوسنة وتيتو والصرب والكروات؟ سأحيا إذن كما يريد الرب ولن أموت كما يريد رئيس الشرطة رانكوفيتش، وحتى من قتلهم، أليسوا أحياء عند ربهم يرزقون؟ بلى، وهكذا قطعت عزلتي التي شملت الصيف الذي لم أر شمسه والخريف الذي لم تمسني عواصفه، هكذا قدمت أوراقي للدراسة في الجامعة، وهكذا أخبرت خالدة أني سآتي لزيارتهم هذا المساء، وهكذا وقفت في ذلك اليوم أتأمل ربطة العنق التي لم ألبسها من قبل وأتساءل عن مدى سخافة هذا الاختراع، بينما أنظر في الساعة والتقويم، الساعة خشية أن أتأخر عن ميعاد الليلة والتقويم خشية أن يمر العام والأعوام دون أن أدري، وحين طرقت بابهم فتحت لي خالدة نفسها فكأن الدنيا هي من فتحت لي أبوابها وكأنها تقول ما زال عندي الكثير لتذوقه، جلست وجلست معي لا نستطيع الحديث كعادتنا ولكن نستطيع الابتسام، تأملت بيتهم الذي يفوح فيه عطر شرقي فوجدته التقاء حثيثا بين الشرق والغرب، أثاث غربي وأنوار حديثة لكن جدران فاصلة ولوحات القرآن عليها، أتت أختها مسلمة فسلمت عليها موجلا، لم أرها من قبل وكانت جميلة كشقيقتها الصغرى، مشرقة الوجه تعقص شعرها، وحين لاحظت ارتباكي حتى أني صرت أنظر للنافذة رغم أن الستارة تغطيها قالت لي:

"لا تظن أننا ضد أفكارك... بل قد نكون أول مؤيدين لها"

"ليست المشكلة على أية حال في نوعية أفكاري وكونها مقبولة أم لا، بل غير المقبول من الأساس في زماننا ومكاننا هذا أني أفكر"

قامت للحظة ثم عادت وجلست بعد أن قدمت لي الشوكولاتة وقالت:

"معك حق، هل تتخيل أن أكثر المطاردين الآن هم الستالينيون بعد خلافهم مع تيتو!"

نظرت بعيدا للحظة ثم أردفت ساخرة:

"أي أن شيوعيين يطاردون شيوعيين!".

ثم التفتت نحوي بسرعة كأنها تذكرت شيئا.

"وأنت ألم تأخذ قرارك بتغيير مسارك بعيدا عن المطاردة؟"

ترددت للحظة ثم قلت:

"نعم، لا شك ستختلف ممارساتي"

سكت لكنها ظلت ساكتة ناظرة وكأنها تنتظر استكمالا فأردفت باسما:

"أما أفكاري فلا أحسبها قابلة للتغيير!"

ابتسمت محاولا تهوين ما قلت فهزت رأسها وقالت:

"لماذا؟"

"أحسبها هي أنا، لو تغيرت لتغيرت أنا، ولو فنيت لفنيت أنا".

ساد صمت ينم عن توتر أو خلاف، ففتحت الشوكولاتة وأخذت قضمة بينما خالدة هي من قررت أن تتوسط الكلام.

"هل تعلم أن عزت قد تقدم للدراسة بالجامعة؟"

"مبروك، هكذا تنظر إلى الأمام"

"لقد اختار الاقتصاد الزراعي"

بدا عليها الحيرة للحظة وقالت:

"ظننت أنك قد تختار شيئا آخر"

أحسست بحرج وقلت:

"في الحقيقة كان حلمي دراسة القانون لكن البعض حذروني من ذلك"

عقدت حاجبيها متسائلة:

"ولماذا؟"

"إن الشيوعيين لا يغفرون!"

أطرقت برأسها وكأنها فهمت، كيف أسلك سلكا يعرضني للدولة كل يوم وأنا سجينها السابق؟! إن قانونهم الخاص يجعلني مجرما إلى الأبد ولا علاقة لهم بالقانون الذي أود دراسته، إحساسي بالمرارة دفعني أنا هذه المرة لتغيير الموضوع خاصة لتناقضه مع طعم آخر وجدته في فمي، فقلت

"كم هي رائعة تلك الشوكولاتة!"

"لن تجد مثيلتها قط"

"هل هي نادرة لهذا الحد؟"

"إن أختي تعمل في محل الطبقة الوزارية الثالثة وهناك يوفرون تلك الشوكولاتة"

"فهمت، إن محال الدرجة الوزارية تلك محال خصصت لطبقات موظفي الدولة بعيدا عن محال تموين باقي الشعب، ويا للسخرية في المجتمع الشيوعي!"

أردفت الأخت لتزيد من غيظي:

"لدينا كل أنواع الشوكولاتة الممنوع استيرادها للعامة، وحتى اللبن أمريكي التعقيم والتعليب!"

"إذن علام يحصل أفراد الطبقات الوزارية الأولى والثانية؟!"

"ربما شيئا لا نستطيع تخيله!"

لم أجهد نفسي بالتخيل ولم أجد وقتا لذلك، لأن دعوة العشاء قد أتت وقمنا إلى المائدة وهناك ناقشنا أمور الزواج وتدابيره، طالت بنا الليلة وحين انصرفت من بيت خالدة وودعتني على الباب ببسمة وسعادة لم أنسها قط، علمت أن حياتي ستولد من جديد... لم أهنأ كثيرا بذلك إذ ظللت أتساءل طوال طريق العودة ترى أي حياة ستكون؟ ولما لم أتبين ملامحها جيدا وقتها تمنيت فقط أن تكون بعيدة عن المشاكل، لكن مع ذلك ظل الشك يساورني فالسؤال ببساطة كان: هل سأبتعد أنا عنها أولا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هامش

أجهدهما الكلام وظروفه والتنقيب في الذاكرة عن أحداث لا يذكرونها جيدا وأحداث يذكرونها لكنها مؤلمة، وما شجعهما على الإكمال أن كليهما كان يزداد تعلقا وتأثرا بما يسمع من الآخر، وبعد أن كان المريض راقدا قد جلس وأمسك بورقة وقلم بجواره ليدون أشياء لكنها لم تسأل عنها، فقط حكت وحكى حتى وصلا لتلك النقطة وأحسا أن الزمن يتغير بهما.

"يبدو أنك لم تتغير يا سيد عزت... لم تبتعد عن المشاكل"

"بل ابتعدت زمنيا وجغرافيا وعمليا، اشتغلت في مجال آخر في بلد آخر وكونت أسرتي. إن عشرات السنين قد مرت".

هزت رأسها مؤمنة فقال:

"لا أصدق أن ستين سنة يمكن أن تطوى هكذا"

"ألم تشعر بمرورها؟"

"بل شعرت بكل لحظة، لكن اللحظات تمحو بعضها بعضا"

"أما أنا فاللحظات عندي إخوةٌ متساوو الأعمار، لا فرق عندي بين عشر سنوات أو ستين سنة".

بدا عليه العجب وزم شفتيه كناية عن الدهشة:

"إن ذاكرتك لفوتوغرافية إذن!"

"إن حياتي هي مجموعة عصور، كالبوسنة نفسها التي مرت عليها دولة ثم أخرى، التاريخ مدون لكل عصر وإن اختلف كل عصر عن الآخر"

هز رأسه موافقا وأردفت:

"فجأة كان يختلف الأمر، كما اختلف من قبل، أنا مع أدمير كنت مختلفة تماما عني مع فضل الله، ثم إن تحولي قد اكتمل مع عمر، لكن هذه المرة بعد خمس عشرة سنة أو أكثر!"

وفجأة دخلت الممرضة مستأذنة وهي تشير لمريضها للوقت...

"وقت الزيارة انتهى من ساعة!"

ضحك ونظر للعجوز:

"ألا يذكرك هذا بالسجن؟! زيارات مؤقتة ومكان مغلق، إن المرض جريمة إجبارية"

ثم نظر للممرضة التي بدت متأسفة يعلوها الحرج:

"لو كنت ترجين صحتي فدعيني أكمل حواري مع أمك تلك، إنني في أفضل حالاتي الصحية الآن".

وأشار لذراعه قائلا:

"يمكنك قياس ضغطي لتتأكدي"

بدا عليها الحرج وهي تقول:

"لا أحتاج لذلك. يبدو عليك نشاط لم أره منذ أيام"

ثم إنها اتجهت للباب وهي تقول:

"أعتقد أن ساعة أخرى قد تكون لا بأس بها، لكن الطبيب صارم للغاية، سيأتي بعدها ولن يستسلم لأعذارك!".

قالتها وهي تشير بإصبعها منذرة فضحك وضحكت ثم خرجت بينما عاد هو لجديته ليسأل ضيفته:

"لكن من هو عمر؟"

"أما عمر فإنك تعلمه كأدمير ربما أكثر، ألا يذكرك اسمه به! إن آخر مرة سمعته لا بد كانت منذ عشر سنوات فقط".

بدا مفكرا للحظة ثم ومضت عيناه وقال بدهشة:

"عمر فضل الله! كيف لم ألحظ ذلك، لا أصدق!"

سكتت للحظة مغمضة عينيها ثم فتحت فجأة مستجمعة أمرها وفتحت شنطتها لتخرج كتيبا صغيرا،كان دفترا أحمر اللون ومهترئا للغاية وبدا كأنه كراس شخصي، وأشارت إليه وقالت:

"سيجعلك هذا تصدق لكني سأحكي لك أولا كيف بدأ الأمر".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أديلسا

١٩٦٤

قالت أُمي:

"لست على ما يرام".

تعجبت مما تقول هذه المسكينة، إنها على فراش المرض -أو لعله الموت وهي يوميا أسوأ مما قبل ثم تخبرني أني لست على ما يرام، غير أنها كانت حقيقة وبدا سببها معروفا لي لكن لم أرد مصارحتها:

"شاحبة أنت، ألا تأكلين؟"

بالفعل لم أكن أستسيغ للطعام طعما، فإن أكلته رغما لم تستسغه معدتي وسرعان ما لفظته لكني قلت:

"هل لي أن أتأكد من طعامِك أنت ودوائِك؟"

"يا ابنتي ربما دوائي يكمن فيما أصابك، فلتخبريني هل تشعرين بالدوار؟"

نعم صار عادة لدي، لا بد أنها القهوة التي أنقطع عنها ثم أعود، لم أتكلم فقط سكتّ علها تسكت.

"متى كان آخر حيضك؟"

نظرت إليها شزرا، لا تكف أُمي أن تكون جريئة وصادمة، لكن ما بال هذه المرأة لم أعهدها فضولية هكذا قط! و ها هي تتحسس الجرح:

"كانت منذ خمسين يوما، هل استرحت الآن!"

"يا للمسيح.. ألا تعرفين معنى ذلك؟"

تنهدت وقلت ناظرة ناحية الدولاب العتيق ومرآته البالية التي تعكس صورا مترهلة وباهتة وكأننا في الماضي أو ذكرى في عقل باطن:

"معنى ذلك أنني قد شخت حقا، ليس إلا!"

"أنت حمقاء كدأبك. ألا تعرفين سنك"

"أعرفه لكن أعرف أيضا أن زواجي كان منذ خمسة عشر عامًا وظل بلا أطفال"

"لا تيأس المرأة الصربية إلا قرب الخمسين"

نظرت لها مليا أتبين جديتها وعينيها المتألقتين نشوة ثم قلت لتهدئة حماسها:

"لست صربية نقية على كل حال"

"حتى الأتراك الملاعين إنهم أكثر خصوبة"

ابتسمت رغما عني ثم سكت وسكتت لكنها سرعان ما أردفت:

"مبروك يا ابنتي"

ضحكت لثانية. ماذا تظن أُمي بالضبط! هل أصابني الدور الآن؟ هل أنا قديسة أم أحمل فيّ شيطانا؟ لم آخذ كلامها على محمل الجد وقمت بعد أن اطمأننت عليها في زيارتي نصف الأسبوعية لكنها سألتني سؤالا من أسئلتها المعتادة وأنا أكاد أخرج:

"متى آخر مرة لمسك فيها شيخك؟"

لم أرد كعادتي ومضيت مسلمة موصية ابرا التي كانت في المطبخ بها، بينما أثارت إجابة سؤالها الذي لم أقلها هواجس في نفسي، هل حقا هذا ممكن؟! غيرت خط سيري دون علم فضل الله، لو علم لضجر، لكن في الوقت متسع ونحن بالنهار وهو بالعمل والمستشفى قريب، منذ متى لم أذهب للمستشفى والأهم منذ متى لم أذهب لهذا الغرض! نظرات الممرضة المتعجبة أثارت خجلي ثم غيظي:

"نعم أنا أجري اختبارا للحمل. ما شأنك أنت"

توقعت أن تخبرني بميعاد استلام النتيجة لكن بطريقة ما ظهرت بعد دقائق متهللة الوجه وهي تقول:

"غريب لكنه حقيقي، أنت حامل!"

أذكر أن فضل الله هو من زارني بالمستشفى بعد ذلك، فهمت ما حدث على الفور، لقد سقطت في إغماءة وحين استفقت ووجدته حاولت أن أعتذر له لكنه طلب مني الصمت، وحين خرجت الممرضة قبلني وقال:

"أخيرا.. كنت أعلم، هو على الله هين"

كنت ممتنة حقا لله هذه المرة بعد أن لمته طوال السنين الفائتة لذا ابتسمت له وقلت:

"سبحان الله"

"سأسميه عمر"

قطبت فجأة وقلت:

"هلا انتظرت أن نعرف ما هو لعلها هي"

"بل هو!"

لم أنطق ولم أظهر أن تذمري ليس بسبب استباق الأحداث لكن بسبب الاسم، ولكن حين جاء عمر صار اسمه الأحب إليّ والأقرب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد دفعني حبي لعمر للإيمان دفعا، فكرتي عن الله كانت مبهمة حتى مع محاولات فضل الله المستمرة أن يعرفني أسماء الله وصفاته ومع محاولاتي للصلاة والدعاء، لكني كنت أفضل دوما عدم الإيمان على الإيمان بأن الله قاسٍ، التعادل الذي شعرت به حين جاء عمر أبرأ روحي، إن كل القسوة في الحياة يعادلها نظرة لهذا الوجه البريء أو بسمة منه، الخداع لدى البشر أجمعين يعادله سؤال بريء من عمر، حتى الموت القذر الذي يتنزه في الديار لا شك يلاشيه ميلاد طفل واحد، ثم إن غريزة الآمال متفجرة داخلي، لقد شعرت أن أحدهم قد وضعها توا، مد يده أو قبس من نوره وفتح قلبي بمفتاح ليس معي ووضع ما ليس محدودا في ما هو محدود، هل من فاعل غير الله؟ وإذا كان هو الواهب فهو الحافظ! وهكذا ظللت أدعوه أن يحفظ لي هذا الرضيع أن يصير طفلا، فإذا صار دعوته أن يحفظه إلى أن يصير غلاما وقد استجاب لي، ولقد عرفت السر الآن، لا بد أن يسبق الإيمان الدعاء لا أن يترتب الإيمان على الاستجابة، حين قلتها لفضل ذات مرة تورد وجهه وقال:

"ما شاء الله... لعلك أجدر بموعظة الحضرة الآن!"

لكم تغير فضل الله، لقد ظل شيخا لكني لم أكن أعرف أن للشيوخ أنواعا كثيرة، لقد عانى كثيرا في تلكم الأيام وقبلها، ضيق عليه كثيرا بل وقبض عليه عدة مرات دون جريرة إلا ارتياده المساجد وبعض الخطب، ويوما بعد يوم يغلق مسجد بعد آخر ويسجن خطيب ثم آخر، وهدد هو أيضا، وهكذا صار فضل لعدة سنوات يصلي في البيت -لأول مرة. كان مهتزا وحزينا مثلي تماما وتردت حالتنا الاقتصادية واقترضنا ورددنا عدة مرات، لا علم، لا أطفال، لا نقود، دائرة جهنمية من الكآبة، وتحولت شفقتي عليه لحب حقيقي صار هو سلواه الوحيدة.

"عجيب أمر الإنسان في تلك الدنيا. إنه لا يحوزها جميعا أبدا، لطالما لم أر لي رغبة قط سوى هيامك بي وها أنت تفعلين وقلبي لا يكترث"

"إنه مليء بالهموم"

"هل تعلمين ما هو الأهم من الصبر!"

"ماذا؟"

"الصبر عليه دون توقيت"

أحتضنه بقوة مفكرة إلى متى، ولكن الفرج جاء مباغتا ومجتمعا وفي نفس عام ميلاد عمر وموارية باب الحرية للمسلمين، وتواترت الإشارات على ذلك، وهنا قرر فضل الولوج من باب مختلف، يلبس الصوف ويحضر الحضارات، واظب على الأوراد وإذا سأله أحد عن حال المسلمين رد:

"وما حالك أنت وحال قلبك؟"

لم يعد يحكي الكثير عن شيخه الخانجي ولكن يحكي عن أبي، لم يعد يحكي كثيرا عن الأنبياء ولكن عن الأولياء، لم أهتم لذلك كثيرا، فقط أردت تجنيبه لعمر، حتى أني كنت من اقترحت عليه لو أراد أن يرسله لمدرسة الغازي ففي كل الأحوال إنها مدرسة وليست تكية دراويش، الغريب أنه لم يوافق والتحق عمر بالمدارس الشيوعية بينما أبوه يعلمه الدين منزليا، وأعلمه أنا ألا يكون كطرف من

الأطراف،كان الطرفان هما هما، أدمير ودراجان أو حزب أدمير وحزب دراجان ولو اختلف الزمن، فهل ينضم عمر لحزبي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمر (البلوغ)

١٢ أغسطس ١٩٨١

بماذا أبدأ...؟ هل أعرف نفسي لنفسي؟ حسنا، فربما يقع هذا الدفتر في يد أحدهم يوما ما، لا أحبذ هذا لكن لو كنت حقا أكرهه فالأفضل ألا أكتب تلك المذكرات، لأن الأسوأ يحدث دائما، أنا عمر فضل الله سلاجيتش، مراهق من سراييفو وحيد أبوي. ولدت لهما بعد لأي وتلك مذكراتي أكتبها تقليدا لحسين جوزو، مهلا... هل أمسحها! كيف أكتب اسم الأستاذ مجردا هكذا..؟ يا لي من وقح، لكن الأستاذ نفسه هو من نصحني ألا أمسح شيئا من المذكرات، ما كتب قد كتب ولا شك أن ما يكتب للمرة الأولى أصدق تعبيرا عما يكتب للمرة الثانية، ولكن ماذا يعني أن الأستاذ في خاطري الأول وعقلي الباطني مجرد من لقبه! إنه القرب والحب لا شك، صداقة هي أو هكذا أتمنى فللأستاذ أصدقاء كثر، حسنا إذن سأدون مذكراتي اليومية، بالتأكيد ليس لأني شخص مهم أو أن تجاربي تستحق المشاركة، ربما هو فراغ أو تدريب، إن الأستاذ حسين لا يكف عن الكتابة، الكتابة العامة والخاصة، وفي مجالات عدة. فإن كنت أنا بلا جريدة أكتب بها آرائي وبلا جمهور يسمعني وبلا علم أدونه فماذا أكتب! لعل هذا الدفتر الأحمر يفي بالغرض، تعبت قليلا من الكتابة لكن حين نظرت الآن لما كتبت، يا إلهي إنه لا يتجاوز عشرة أسطر، يا له من أمر صعب، كيف يسودون تلك الكتب العملاقة إذن! لا بأس سأستريح قليلا ثم أكمل.

ها قد عدت في نفس اليوم، لذا سأكتفي بالتاريخ السابق لليوم ولن أعيد تدوينه، إن الدقة مطلوبة ولكن ليس لدرجة أن أكتب الساعة وحالة الطقس، بالمناسبة ما هذا الطقس! إن الحرارة هي الأعلى على الإطلاق، أعرف أنه فصل الصيف لكن هذا ليس مبررا. لم أشعر قط بهذا الحر في أي صيف ماض، بصراحة لا أذكر أني شعرت بالحر من قبل بل لا أذكر أني عشت من قبل، إني أحتقر سنوات طفولتي وسذاجتي، يقولون أني مجرد مراهق آخر تعصف به الهرمونات، لكن كل هذا لا يعني أن الطفولة لم تكن ساذجة، في كل الأحوال، خلعت قميصي الآن وصرت عاري الجذع. تأملت جسدي في المرآة وحاولت شد عضلات الصدر والعضدين، في الحقيقة لا شيء جذاب فيهما إلا ربما تلك الشعيرات المتكونة في منتصف الصدر، إن جاذبيتي إذن ليست في...

ها أنا أعود من جديد... لقد دخلت أُمي عليّ فجأة متسائلة عن كنه ما أفعل ولماذا! سألتها نفس السؤال، ماذا تفعلين ولماذا؟ فغضبت، تقول أني صرت وقحا، لم أكن أنا من اقتحم عليها الغرفة، ثم ما وجه الاستغراب أن أخلع ثيابي في هذا الحر في غرفتي! لم أفعلها من قبل هكذا تقول، حسنا ها أنا أفعلها، ما الضير؟ لا بد من بداية، وأنا أبدأ عمري الآن، تقول لي اسأل شيخك، مازلت تصر أنه شيخ! إنه أستاذ يا أماه وأديب قبل كل شيء، لكني سأسأله يا أُمي لا بأس، ها هي تنادي عليّ من أجل العشاء... سأذهب الآن وأعود.

١٤ أغسطس ١٩٨١

قلت له

"ما الضير أن أنام عاريا يا شيخ حسين؟".

ضحك كثيرا، واهتزت لحيته التي خالطها البياض، ورغم تقدمه في السن إلا أن بسمته ما زالت شابة.

"وما الضير أن تستحم بملابسك؟"

قالها فلم أفهم، فأردف:

"إنها أمور تقديرية يا بني"

"لكن أُمي تتوجس منها"

"كما توجست أنا منك الآن"

ضحك وضحك الجميع وكدت أن أرد، لكن أحدهم بادر بالسؤال وتعالت الأصوات وضاقت الحلقة، ابتعدت عن أوسطها واتكأت على عمود المسجد أكتب تلك الكلمات في دفتري المحمول، سأكمل حين أعود.

قابلت أبي حين عودتي للمنزل، كان هذا نادرا دوما، إنه العمل كما تقول أُمي، ليل نهار ونهار ليل، حتى إن الطعام الذي تعده أُمي لا يأكله أبي في كثير من الأحيان، في الحقيقة هو يأتي لينام وفقط! متى حدث هذا ولماذا! لا أذكر ولا أهتم، في الحقيقة إن ذلك يعجبني ليس فقط للحرية التي أمتلكها جراء ذلك لكن لأن تلك طبيعة الرجال أو هكذا أتمناها، سألني أبي عن أحوالي وسأل عن دراستي، غريبة ألا يعلم أنها الأجازة الصيفية! أوصاني بالصلاة كدأبه لكنه أبدى توجسه من مسجد جوزو وأوصاني بمسجد صغير يؤمه بعض المتصوفة. قلت له:

"أبي، إنهم متصوفة!"

"نعم وما الضير! إن الأمور تتغير الآن"

"هم لم يتغيروا"

"نعم، لذلك هم آمنون. فقط صل معهم وتوكل على الله"

هل الخوف من التوكل؟ أحيانا كثيرة لا أفهم أبي ولا مذهبه، لكن أُمي تقول إنه بدأ حياته عالما شرعيًا وأنهاها تاجرا محترفا، لذا لا داعي للعجب، أحيانا ينزع للأولى وأحيانا للثانية، أبي علمني التدين كما علمني كل شيء، في الواقع أذكر حين كنت طفلا، لقد كان هو من يطعمني بل ويأخذني معه للمحل. كان سعيدا بي للغاية خاصة أنه انتظر قدومي -كما يردد دائما خمسة عشر عامًا، حتى أُمي كان لا يكف عن تدليلها قولا وفعلا، الآن انقلب الحال بحجة أني كبرت، حسنا فما بال أُمي المهملة؟ هل لأنها كبرت أيضا؟! وددت لو أخبرت أبي بكل ما يدور في خلدي أو أن تبث إليه أُمي شكواها بدلا من بثها لأزهارها اليانعة، لكن ها هي أيضا مشغولة دوما بأمها المريضة، جدتي حادة المزاج، والتي تعيش وحيدة، إن غدا موعد زيارتها، هل ستسألني أن آتي معها؟

١٥ أغسطس ١٩٨١

ذهبنا لجدتي هذا الصباح لكنّ أمرا غريبا قد حدث، استقبلتني جدتي كعادتها ببعض الشتائم على سبيل المزاح وتكلمت مع أُمي حول مواضيع فنت من الوجود لكنها لا زالت تذكرها، كالنازيين مثلًا، ثم تدمج بعض ما تسمعه في الراديو مع الماضي ليتكون مزيج غريب حتى أني فهمت منها اليوم أن هناك تحالفا قد تكون بين تيتو والألمان، تصب لعناتها على تيتو كعادتها باعتباره كرواتيا حقيرا.

"إنه كاثوليكي، هل تعرفين معنى كاثوليكي؟!"

تقولها لأُمي كل مرة ناسية أنه شيوعي في الأساس كما أن أُمي مسلمة في الأساس كذلك! ثم إن الطامة الكبرى أن تيتو مات لتوه، لكن كيف تقنع تلك العجوز بموت أحد شخوص الماضي وهو الحاضر بالنسبة لها؟ مسكينة جدتي، لكن اليوم وبعدما كدنا نودع الجدة إذا بضوضاء في الخارج وباب سيارة يفتح وتحية تؤدى فقالت الجدة:

"أوه... لا بد أنه دراجان!".

خالي إذن، لم أكن رأيته منذ عام ونصف، كان لقاؤنا مصادفة وقتها ولم يعرفني هو، لكنه لا بد أن يعرفني اليوم، دخل ببذلة عسكرية بدون كاب فبدت صلعته وكان متكئا على عكازين، أُمي تقول إن مفاصل رجليه صناعية كذلك، وتقول إنه كان يستخدم كرسيا متحركا قبلا أي أن حاله أفضل الآن، غير أنه صار أسمن وأعبس، عيناه الحادتان أول ما ارتطم بي فارتبكت لكنه قال:

"أنت، أنت ها... تتغير كثيرا يا فتى".

ونظر لأُمي وقال:

"أديلسا الجميلة... لا شيء يبقى على حاله!"

إنه حقا مستفز، من الصعب أن تكره خالك ولم أجد من أصدقائي من يفعل، لكن أليس دراجان جديرا بذلك؟ تجاهلته أُمي وإن سلمت عليه وقبلته، وبعد أن سلم على الجدة منتشيا بعدة أخبار أظنها وهمية عن خطة الحزب الطموحة ويوغسلافية الجديدة مع ابتسامات بلهاء من الجدة إذا به يلتفت إليّ قائلًا:

"في أي صف الآن!"

"في الصف الأخير"

"عظيم، عظيم، ستستخرج هويتك إذن هذا العام"

"نعم"

"إذن سأستخرج لك كارنيه الحزب"

"أي حزب؟"

ضحك ونظر لأُمي كأنما يسألها عن كنه هذا الأبله.

"الحزب الشيوعي اليوغسلافي، هل هناك غيره؟"

"نعم"

قلتها بتلقائية فامتقع وجهه وقال:

"لعلك تتبع حزب والدك، هؤلاء الفلاحين المسلمين ممن لا حزب لهم"

"لا بل الأستاذ حسين جوزو"

"آه... لا أعرفه لكني سأعرفه"

تدخلت أُمي مسرعة:

"إنه مجرد كاتب، ليس حزبا لو ظننت ذلك"

ابتسم بجانب فمه وقال:

"إن في الأمر لأمر ما دمت قد تكلمت"

نظرت أُمي أرضا كأنها تمنع نفسها من الانخراط في الرد، إن استفزازه لا ينقطع قط، ساد صمت طويل ونظرت لجدتي فوجدتها قد نامت، قام خالي ولوح بيده وهم بالانصراف لكن قبل أن يفتح الباب ليخرج قال:

"ألا تريد أن تشترك في معسكر الحزب هذا العام؟! شهر مدفوع التكاليف على شاطئ نيوم، ما رأيك!".

١٦ أغسطس ١٩٨١

قال لي قاسم اليوم بعد العصر:

"طبعا يجب أن ترفض"

كان الناس حولنا كعادتهم انصرفوا إلى الأستاذ حسين وبقينا نحن ننتظر أن يفرغ ورددت عليه:

"ولماذا؟"

"هل حقا لا تعرف؟! إنهم شيوعيون كفار، وليس فيهم مسلم واحد"

"سأكون أنا ذلك المسلم"

ضحك وقال:

"حقًا، وهل ستدعوهم للإسلام؟"

"يا أخي إن الدنيا أوسع من ذلك"

"فلنسأل الشيخ!"

قالها بثقة بينما سمعتها بتوجس وحين فرغ الشيخ ذهبنا له وكدت أن أبدأ بالكلام لكن قاسم انطلق:

"إنه يريد الاشتراك في المعسكر الشيوعي السنوي في نيوم"

"هل حقا يمكنه ذلك؟"

"إن خاله قيادي بالحزب"

"هل يمكن أن نأتي معك؟!"

نظرنا له غير فاهمين ثم ضحك فضحكنا، لكن قاسم بدا متوترا بينما بدوت واثقا فقلت أنا هذه المرة:

"أليست فرصة؟"

"بلى"

"إنها فرصة إلى جهنم"

"لعله يتعوذ منها"

"يا أستاذ، ألا تسمع أنه معسكر مليء بالمنكرات وهناك حفلات وندوات شيوعية!"

"بالتأكيد إن الأمر خطر لكنه يريد ذلك، انظر لعينيه!"

فعلًا كنت أتوق لذلك، لماذا... هل أنا ضعيف الإيمان؟ أم قوي الفضول؟ أُمي حذرتني كذلك وأبي سيفعل لكني سأذهب، أعلم ذلك، وحين خرجنا من عند الشيخ كان قاسم يتميز غضبا، قلت له مداعبا:

"هناك مكان معنا لتأت!"

التفت وقال:

"أحقا!".

٢٠ سبتمبر ١٩٨١

فكرت في الحقيقة ألا أعود للتدوين فقد طالت غيبتي وطالت حيرتي وتغيرت كينونتي، إنه ذلك المعسكر اللعين الجميل، في البدء كنت قد نسيت الدفتر وقد عزمت أن أكتب كل ما يطرأ لي هنالك وعندما تذكرت أني قد نسيت قررت أن أبحث عن واحد هنالك لكن سرعان ما نسيت ثانية، إن العالم الساحر في نيوم قد ينسيك اسمك بالفعل وستنسى من أين كنت وفيم تعتقد، لو كنت أعمى ورأيت الشمس ساطعة غالبا لن تهتدي لبيتك القديم الذي اعتدت وصوله بالتلمس، إن نيوم شاطئ البوسنة الوحيد لكنه يعتبر كرواتيا بامتياز، وهكذا صرت أتساءل وأنا على الشاطئ أمرح مع باولا، ألا يمكنني أن أظل هنا دائما! في الحقيقة كان ذلك مستحيلا كما أخبرتني باولا...

"لست كرواتيا"

"أُمي صربية"

"أنت مسلم"

"خالي شيوعي"

"أنت فقير"

"ألسنا جمهورية شيوعية"

تضحك فأذوب كالماء في الرمال، إن معرفتي بباولا كانت أمرا عجيبا بل أحسسته مرتبا، فحين وصلنا إلى المعسكر الدائم بعد ساعات شاقة من سراييفو وجرى تسكيننا على عجل مع باقي وفود الجمهوريات تم ذلك بناءً على السن وليس الجنس، بدا ذلك أكثر مساواة وتقدمية للمنظمين. وفي ذلك العام كان هناك اثنان فقط أصغر من ١٦ عاما، أنا وباولا، أتذكر تلك اللحظة جيدا، تقدمت أولا ثم تلك الفرس الثائرة... شعرها طليق تلبس الجينز ونهداها البارزان من بلوزة صيفية تدلان على بلوغ مبكر مكتمل، وقفت بجانبي فخفق قلبي، بدوت طفلا وهي شابة، ولدا وهي أنثى، دقائق مرت ولم يناد على أحد غيرنا، وهكذا ستكون لنا غرفة وحدنا، تقدمت الجموع وبقيت واقفا فأشارت إليّ أن هيا، لم أصدق، اختارنا عنبر صغير يسع لأربعة أفراد لكن الحقيقة ظلت صامدة، نحن اثنان فقط وسنظل كذلك، سألتني حين الوصول وأنا لم أدلف بعد من الباب.

"أي سرير وحافظة ستختار؟"

تركتها وخرجت للخارج أرتجف، لم أُفتن هكذا من قبل، ألست صغيرا على ذلك؟ هل الشيطان حقا سينام معنا! إذن كيف أعرف سريره لأختار سريرا آخر، تبا لقد جننت! كنت أتنفس سريعا ومر بي أحد المدربين سائلا عن كنه ما أفعل، كدت أن أخبره أني أريد المبيت تحت الشجر أو لعل في بيتنا مأوى، لكن انعقد لساني ودخلت ثانية، لأجد باولا قد نامت على سرير سفلي، فاخترت سريرا علويا وظللت أنظر إليها حتى نمت بدوري. وفي الأيام التالية ظللنا رفيقين.

لسبب ما أعجبت بي باولا... كانت من زغرب، تلك المدينة الكرواتية المعروفة بجمالها ولا شك أن أصدقاءها كثر لكنها وجدتني مختلفا. وكيف لا تفعل؟ كنا نأكل سويا وكانت تخبرني بأسماء وجبات تظن أني لا أعلمها وأتظاهر بأني لا أفعل كي أسمعها تتحدث...

"لو جربت الكباب البوسني لأعجبك أكثر!"

"وأين أجربه؟"

"فلتأت إلى سراييفو وسآخذك إلى أفضل طاه هناك"

"ما اسمه؟"

"لن أخبرك، فقط سأخبرك بعنواني أنا"

تضحك فيرقص قلبي، وكنا بالفعل نحضر الحفلات سويا، هي من علمتني الرقص والسباحة أيضا، فصرت بارعا في النوم على سطح الماء وتخيل صورتها على وجه السحاب، أما أنا فعلمتها أنواع الأزهار ولا أنكر أني أحيانا اقترحت أسماء الأزهار التي لا أعلمها في هذا المنتجع الواسع، أخبرتها كذلك عن التقويم العربي ونحن نتأمل القمر وأطواره، إذ كنا نتسلل دوما من الندوات المسائية

وضيوفها الثقيلين ولم يسأل عنا أحد، على كل حال فقط يبتسمون لنا وكأنهم يقولون نحن نعلم ما تفعلون لكن لا بأس.. استمتعوا! كانت هي أول من عانقني وأنا أول من قبلها، لكن كانت هي من حذرتني من التمادي وكنت أنا من طلبته، بين الفينة والأخرى كنت أتذكر مخاوف قاسم والأستاذ حسين كأنهما من عالم آخر، هل كانوا حمقى؟ أنا لم أفقه شيئا عن الحزب ولا دعايته وحتى الندوات التي حضرناها ولم نتمكن منها فرارا، لم تكن إلا أحاديث جانبية بيني وبين باولا، وحتى زملاء المعسكر المئة لم أتعرف إلى أحدهم إلا نادرا، وإن كانت باولا تفعل وكيف لا، طال شعري لأول مرة ولم أقصه بل عقصته، كان يعجبني كثيرا والأهم أن باولا تفعل، واعتدت كذلك التردد على صالة الرياضة كي تنبت عضلاتي وفي نهاية المعسكر بدت عضلاتي قد ولدت، لكن ما الفائدة! وقد قصرت بي الأيام والحذر عن باولا، كنا أشد أصدقاء خارج العنبر، أما داخله فإخوان على سرر متقابلين، أطيل النظر إليها لكنها لا تفعل، قد تقرأ شيئا أو تنام كجنين ملتف حول نفسه، لم أشعر قط قبلًا برجولتي، كنت طفلًا أو مراهقا... لكن الآن مالي أتمنى أن أدس باولا في أحضاني بعد أن كنت أنا الجدير باحتضاني كطفل، سهرت الليالي جميعا بين وجد الحرمان الآني والفراق القادم، لكن يبدو أنها قد قررت تعويضي عن كليهما بوجبة دسمة وذكرى تدوم، في تلك الليلة قبل الأخيرة وحين غلبني النوم فما فوجئت بمن ينسل جانبي، من يتحسس جذعي العاري، فتحت عيني فزعا، كانت باولا... وكان الشعور الذي لا يمكن وصفه، الشعور الذي لا أفتأ تذكره ولذلك عدت للتدوين كي أدونه!

(صفحة مقطعة)

١٥ أكتوبر ١٩٨١

الآن أفهم شعور السجن، أبي يقول ليس فقط السجين من يتألم لكن الألم ينال أيضا من يحبه فكيف إذا كنت سجين من أحب، السجان باولا والسجن هو الماضي، وإلا فما تفسير أن عقلي يرفض التفكير في غيرهما؟ ليس أمام عيني إياها ولا يدور في خلدي إياه... أتحرك كآلة ولا آكل تقريبا وأقضي فراغي ممسكا بصورتها تحت شجرة على نهر ميلاجا، إنها شجرة تبدو قبيحة لكني أحبها لأنها وحيدة ومنبوذة مثلي تماما، غير أنها كذلك رغما عنها وأنا كذلك بإرادتي، الأشجار الجميلة المورقة تملأ الجهة الأخرى ويجلس تحتها المحبون عادة، فهل أطيق أن أنظر إليهم وأنا أمد يدي عبر القضبان علي ألمس شعرة منها فلا أستطيع. وهكذا بقيت في حمى لمدة شهر، وكأن الحياة خلت من غيرها، هل أحبها لنفسها أم لأنها أول من اكتشفني ثم ألقاني ثانية في بئر عميق؟ أم لعلي أنا الملقي بنفسي تحت تلك الشجرة المنبوذة!

في ذلك الصباح وجدتها فلثمتها بقوة، لم تستطع مقاومتي ولم يستطع أحد الاقتراب، ظللنا ندور وتدور حولنا السماوات والأرض، كانت سعيدة رغم امتعاضها الأول. وسرعان ما التقّت يدها الحرة حول خصري فاحتضنتُها بقوة حتى طقطقت عظامنا وقلت:

"ما أجمل السجن بين ذراعيك يا حبيبتي!"

قلتها لها أثناء القبلة ولا أعلم كيف قلتها وكيف سمعتني، لكني متأكد من ذلك كما أراها وأنا مغمض العينين، وحين استيقظت كان الليل قد حل بينما الشجرة ألقت ببعض أوراقها عليّ ربما تنبيها أو اعتراضا، لم أستغرب فتلك حالي كل يوم، أنال في الحلم ما لا أناله في الصحو، ثم أستيقظ ليلا

لأصحو وقتما يجب أن أنام ويأتي الصباح التالي لأتظاهر بالذهاب إلى المدرسة غير أني أعود لنفس الشجرة التي لا يعود إليها غيري.

"أنت واقع في الحب؟"

قالتها أُمي، كانت عيني قد انتفخت وبطني قد هزلت وصرت كالمرضى بل كالموتى، لم أرد.

"ومن تحب لا يحبك؟"

كدت أن أرد، لا هي تحبني... هي من اختارتني أولًا... لكنها أيضا من رفضت إعلامي عن عنوانها... هي من ودعتني في يوم المعسكر الأخير كصديق عابر... هل هي حقا بتلك القسوة؟ أم هي تفعل ذلك عمدا لتخفي ما أنا أظهره! تيأس مني أُمي ولا أيأس أنا من سؤال النفس وعتاب الخيال... باولا هل تسمعينني؟

٢٢ أكتوبر ١٩٨٠

استيقظت اليوم على أنه ثمة من يطلبني، كنت أحلم بباولا وبسذاجة بالغة تصورت أنها هي، لكن أُمي لم تترك لي فرصة للخيال حين قالت:

"أظنه قاسم، أليس هو ذلك القصير؟"

للأسف إنه هو، كانت الظهيرة في انحسار واقترب وقت العصر، خرجت من الشقة وهبطت الدرج بعيون لا ترى، وسلمت عليه بفتور فقال:

" مر شهر منذ مجيئك ولا تذهب للمسجد ولا المدرسة"

أشرت له أن يخفض صوته ألاّ تسمع أُمي فأردف:

"على الأقل لا تريد أن تراني؟".

قلت بتلقائية:

"لا أريد، وأنت ماذا تريد!".

كعادة قاسم يظهر عليه الغضب لوهلة ثم يكتمه فيتحول لابتسامة باهتة وقال:

"فلتأت معي اليوم إلى المسجد".

أي أحمق هو.. من يظن نفسه! وقبل أن أقول له ذلك أخبرني أن:

"الشيخ حسين يسأل عنك دوما".

حقا، ثبت لرشدي للحظة، يا له من شرف، يسأل عني أستاذ حسين، لم أتردد كثيرا:

"سآتي معك..."

لبست على عجل بعد أن تناولت شطيرة صنعتها أمي، وصلنا المسجد ولم أتذكر أني لم أتوضأ إلا بالداخل، الغريب أني لم أقم لأتوضأ إلا حين مللت انتظار العصر ومجيء الأستاذ، قلت لنفسي لقد فقدت الإيمان يا عمر كما فقدت غيره، اكتشفت أني لم أكن متدينا حقا ولم أكن مؤمنا بصدق وأن مجيئي للمسجد كان من أجل الأستاذ جوزو وحبي لشخصه لا لعلمه، ثم إني أبغض قاسم وتفكيره الآن كيف كان صديق الأمس وفكره يمثلني، شعرت بالغضب الذي لم يطفئه ماء الوضوء ورجعت للمسجد لأسمع الأذان وأصلي مع الناس وعقلي مع غيرهم، وحين فرغت جيء بالمكتب وجلس خلفه الأستاذ ضقت ذرعا بأن اليوم يوم درس لا يوم نقاش، أغمضت عيني وكأني في المنزل في مثل هذا الوقت لا أفعل شيئا، لكنت سربت كلمات الأستاذ وهو يشرح إحدى الآيات التي تقول: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هذا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون).

فقال:

"وليس الإيمان عبارة عن كلمات ينطق بها الرجل، وإنما الإيمان هو الشعور القوي العميق الذي يتملك قوى الرجل كلها ويوجهه إلى صراط مستقيم ويدفعه إلى عمل صالح. وقد ربط القرآن الإيمان بالعمل الصالح وهناك مئات من الآيات مفعمة بهذه المعاني، تدل على أن الإيمان الذي لا يثمر بالعمل الصالح ليس بإيمان، كما أن هناك أحاديث كثيرة بهذا المعنى".

كنت أعرف هذه المعاني وإن كانت تطرق بابا الآن لم تطرقه من قبل. اعتدلت في جلستي وقد أردف الأستاذ:

"يصف القرآن في هذه الآية وفي كثير من الآيات الحياة في الجنة بما يناسب ويوافق الحياة الجسمية فقط، يصرح القرآن بأن للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل... ولهم فيها أزواج مطهرة وغير ذلك من اللذات البدنية، وعليه فإن المفسرين وغيرهم من العلماء أجمعوا أن الحياة بعد الموت تكون حياة بدنية مادية، معناه أن الإنسان سيعيش في الجنة مثلا بالجسم يأكل ويشرب ويقضي سائر الحاجيات البدنية، لكنني أختلف هنا".

سكت الأستاذ للحظة ومعه سكت الجميع واشرأبت له العيون، فقال:

"أن الموت لا معنى له سوى أنه نهاية حياة وبداية حياة أخرى، لا بد أنها تختلف عن الأولى جوهريا، وإذا كانت الحياة الأولى مادية فلا بد أن تكون حياة الآخرة روحية، وإلا فلا معنى للموت، لأنه لا بد أن يكون فاصلا بين حياتين مختلفتين في الجوهر أليس كذلك؟ ثم إن القول بمادية الحياة بعد الموت يتضمن القول بخلود المادة، فإذا قلنا وسلمنا بأن الحياة بعد الموت مادية وبدنية فإننا نسلم بذلك حتما خلود المادة، وهذا ما لا يقبله أحد من العلماء".

سكت الأستاذ جوزو لكن هذه المرة اندلعت الضوضاء وتعالت الهمسات فالأصوات، لهذا يعجبني الأستاذ، إنه يتكلم بأريحية يأخذها الآخرون بعصبية، ذهلت قليلًا عن النقاش الدائر وذهلت عن قاسم الذي قام وسأل:

"إذن لماذا ذكر الله النعيم بتلك الصورة؟"

"إن الحواس الخمس لا تدرك إلا حقيقة الماديات وما يتعلق بها، أن الإنسان بما هو عليه في الدنيا لا يستطيع أن يدرك حقيقة ما وراء الطبيعة. لهذا قال الرسول: فكروا في أفعال الله ولا تفكروا في ذاته فتضلوا".

لم يبد الاقتناع على قاسم والمعترضين، بينما قمت أنا مسرعا مستغلا انشغال قاسم في الجدل، لماذا تأثرت؟ لماذا بكيت؟ ألم أكن أعلم من قبل عن نعيم الجنة أم فاتني اقتران الإيمان بالعمل الصالح؟ إنك لذلك معلوم ولو لم أفكر به منذ زمان، لكن ما جهلته حقا أو نسيته ما تحدث به الأستاذ عن أمر الروح والفرق بينها ومتعة الجسد، وكأن روحي قد ردت إليّ فجأة لتصفع أحلامي وتسفه ذكرياتي، لقد احتقرت نفسي حقا التي استغنت عن روح من أجل جسد، عن فكر من أجل لمس، عن أستاذ من أجل فتاة، عن الله من أجل الشيطان. غالبتني دموعي ثانية ونظرت للسماء وكأني أسأل الله نفسه: ألا يمكن الجمع بينهما؟

٢٣ أكتوبر ١٩٨١

حين ذهبت للأستاذ في بيته وحيدا فيما بعد أقرب للمتسلل سألته هذا السؤال الذي ألح عليّ، ألا يمكن الجمع بينهما؟ كان يتمشى جيئة وذهابا في حديقة بيته الصغيرة وأنا أرافقه مع ظله وأستهل كلامه متعجبا:

"إن الزمن يتغير حقا والثمار تنضج سريعا، لا أذكر أني وصلت لسؤال كهذا إلا متأخرا"

"وما أهمية السؤال، أليس المهم هو الإجابة؟"

"خطأ لا شك، المعرفة تبدأ بسؤال وتنتهي بسؤال، والجهالة وظن العلم تكتفي بالإجابات أو ما تظنها إجابات"

سكتت فأردف:

"لا أحد يسأل نفسه ماذا عليه أن يحوز وما هي استطاعته من الأساس، الجميع يظن أن باستطاعته الجمع بين الدنيا والدين وأن يحتفظ داخله بالشيطان والملاك، أنت ملهم كي تعرف هذه الحقيقة الآن".

"أي واحدة؟"

"إنه لا يمكن الجمع بينهما، ألم تسمع درسي الأخير؟"

توقف فتوقفت.

"هل تقصد ذلك ما أثار اللغط؟"

"نعم، هل تعرف ما الذي أثار اللغط!"

"أنك خالفت إجماع العلماء"

"بل إني حرمت السامعين من الجمع بين اللذتين، قلت لهم الجسد هنا والروح هناك فأبوا إلا أن يأخذوا رممهم معهم"

"أليس الجسد هذا صنع الله؟"

"لحم الخنزير صنع الله أيضا، المهم هو الله نفسه وكل ما عداه بلا قيمة"

"وروحنا جزء من الله"

"ها أنت وصلت للإجابة!"

جلسنا بينما أتى لي بعصير برتقال طازج رشفت منه رشفة ثم قلت:

"عذرا يا شيخنا ولكن أليست هذه أيضا نظرة النصارى، أليس بذلك يعظ البابا ويتنسك الراهب؟"

سكت للحظة ثم قال:

"الدين هو الدين يا بني، اللاهوت هو اللاهوت"

نظر لعيني فلمح عدم الاقتناع ثم قال:

"هل تعلم؟ هذا الخلاف يذكرني بصديق عزيز أعلم مني قد يتفق معك ويختلف معي"

"ما اسمه؟"

"ستعرف أكثر من اسمه لو أردت، لكن هل تملك وقتا؟".

٢٥ أكتوبر ١٩٨١

كان غريبا أن أسمع عن شخصه وأعظم من حسين جوزو، ومن يقول ذلك هو حسين جوزو نفسه، أما الأعجب فقوله إنه قد يحتاج إليك، فيم قد يحتاج النهر من دورق فارغ؟ حسنا، ربما تكمن الإجابة هنا... سيملؤه... إن الدورق سيفيد من النهر ليس العكس وربما خان اللفظ جوزو أو طغت عليه المجاملة، لم يرد القول فلتملأ فراغك بل فليقايض الفراغ النهر... حسنا يا أستاذ عزت بيجوفتش هل تتحمل شابا طائشا مصدوما؟! وهل ينفد عطاؤك أم صبرك أولا؟! دققت الباب ففتح لي كهل فوق الخمسين.

"أرغب في مقابلة السيد عزت، أظن أنه يعلم بمجيئي من طرف الأستاذ جوزو"

"أهلًا يا بني"

مد يده وعيناه لتلتقي بعيني، أحسست بأنه هو.

"هل أنت هو؟"

"نعم أنا، ماذا ظننت؟"

بدا علي الارتباك وتعجبت من نفسي داخل نفسي، بالفعل ماذا توقعت وما هي مواصفات عظيم البشر، أليس التواضع في جنس الإنسان قرين العلو والاستعلاء قرين الدنو؟! دخلت خلفه مارا ببيته الذي بدا مثله بسيطا لكن أنيقا، أثاث أصيل نظيف وسجاد شرقي ولوحات فنية وآيات قرآنية مع

إضاءة خافتة، هل يعيش السيد عزت وحده؟! كانت كل الغرف مغلقة ما عدا الغرفة في نهاية الممر حيث يقودني إليها وينبعث منه اللحن ضعيفا أظنه لبيتهوفن، ابتسمت بركن فمي متخيلا أبي يتساءل عن كنه هذا العالم -كما وصفه جوزو المستمع لبيتهوفن، وبطريقة ما سمع السيد عزت أفكاري وقال دون أن ينظر إليّ وهو يحرك كرسيا لأجلس عليه.

"لا أستمع كثيرا للموسيقى الكلاسيكية في واقع الأمر وإن كنت أحسبها دليلا هاما على وجود الروح".

في الحقيقة لم أفهم أي علاقة يقصد، وأنا أحاول مساعدته في نقل الكرسي الخشبي الثقيل حتى استقر مقابلًا لتوأمه بجوار النافذة، أشار لي أن أتفضل بالجلوس لكنني ظللت واقفا حتى جلس هو فجلست قبالته ثم سألته:

"هل تقصد أن الموسيقى غذاء الروح كما يقول البعض، إذن ماذا يفعل الدين وما هو دور القرآن؟"

ابتسم واعتدل في جلسته قائلا:

"أسوأ ما يضر بالإنسان النظرة الأحادية، في الحقيقة حقيقة اختبار الإنسان هو الاختيار من متعدد"

"والإجابة الصحيحة أليست واحدة؟"

"إذن لم اختلف علماء الأمة في كل صغيرة وكبيرة تقريبا من الدين ضياء النفوس؟"

تلعثمت وأنا أحاول تذكر رد قاله أبي ذات مرة لكني نسيته وأردف هو:

"للروح تجليات عدة... الفن والدين كانا حاضرين دوما معا وذلك قبل الزراعة والصناعة، في الحقيقة يولد الإنسان باحتياجات أساسية لا فرق بينها، غذاء للبدن وشراب للروح".

قام من كرسيه متجها لمكتبة في ركن الغرفة الأقصى لاحظتها للمرة الأولى، كبيرة هي تصل للسقف وجوارها كرسي صغير للصعود لكنه لم يحتج إليه وانتقى كتابا من منتصفها وأتى به إليّ وهو ينفض عنه بعض الأتربة، كان كتابا ملونا حين فتحه ومليئا بالصور، جدران عتيقة لكهوف ورسوم بدائية تم تكبيرها، أخذ يقلب وهو يشير ويقول:

"انظر إنسان الكهف الذي نظنه حيوانا يبحث عن فريسة أضاع الكثير من يومه في تلكم الرسوم، هل لذلك فائدة فيزيائية واحدة؟!"

"لا"

"والأهم، هل في ذلك فائدة تطورية واحدة لو كان البقاء للأصلح؟! ألم يكن من الأجدى أن يكون للأكثر صيدا لا الأكثر رسما؟"

بدا عليّ عدم الفهم والتقط ذلك هو، فقام مرجعا الكتاب وهو يقول

"لا بأس يا بني، اعذر حماسي لعل جوزو أرسلك من أجل ذلك، إما أنه يتخلص منك أو ليريك كهل لا يكف عن التأمل".

ضحكت وقلت:

"العفو يا أستاذ بل لأتعلم منك و... أساعدك"

قلتها مترددا وبصوت منخفض، فقال حين جلس قبالتي ثانية:

"طبعا ستساعدني ألا ترى!"

وأشار للمكتب القريب الذي بدا فوضويا عكس كل شيء آخر.

"لعلك تعلم أني أعمل بالمحاماة وكذلك أكتب لبعض الصحف مع ولعي بالقراءة، كل ذلك لا يجتمع على مكتب إلا جعله أضحوكة كما ترى وأدراجه أكثر عبثا... كانت ابنتي تساعدني لكنها مشغولة قليلا تلك الأيام"

تهلل وجهي، هل حقا هناك شيء لأصنعه؟

"على الرحب سيد عزت، على الرحب"

"لكني أعلم أن جوزو لم يرسلك للمساعدة فقط، إن هذا الرجل أفكار تمشي على الأرض، وحين يرسلك هذا يعني إرسال فكرة في صورة جسد".

ضحكت ونظرت لزجاج النافذة الذي انعكس عليه جزئيا وجهي الحائر... هل صرت فكرة؟ وهل هذا مدح أم ذم؟ والأهم، هل هذه حقيقة؟! هل يبالغ السيدان في حقيقة فتى مراهق أم أنهما يلعبان بي الكرة؟!

"في الواقع قد سألت أستاذ حسين سؤالا ويبدو أنه خاف أن ينكسر خاطري بإجابته فأرسلني إليك لعلي أجد عندك جوابا آخر".

برقت عيناه كثعلب مع احتفاظ قسمات وجهه بالتحفظ وقال:

"جميل، عادة ما أحب آراء جوزو"، وأشار بإصبعه:

"لكن لا أتفق معها".

ابتسمت وقلت:

"الشيخ في درسه الأخير -لعلك سمعت عن اللغط الدائر حوله أشار لعدم إمكانية وجود المادة في الحياة الأخرى فهي روحية ولذاتها أيضا لن تكون كلذات الدنيا"

"سمعت عن ذلك"

"لكن إذا كان لا يمكن الجمع بين الروح والمادة في الحياة الأخرى فهذا يعني أنه لا يمكن الجمع بينهما أيضا في حياتنا تلك..."

سكت وكأنه ينتظر أن أقول شيئا، فقلت مندفعا:

"هل حقا لا يمكنني جمع عشق فتاة وعالم في قلبي؟! هل لا يمكنني الصلاة لله خمس مرات وللفتاة ما بينهما؟!"

أطرقت وقد لاحظت أن أنفاسي تسارعت وقلبي يخفق بقوة حتى خفت أن يسمعه الأستاذ، قام واقفا وذهب تجاه الباب ثم عاد يقول:

"أنت هائم يا بني وقد أعيا العالمين دواء للمحبين، أما لو كنت تسأل عن ماذا يرى الله فاقرأ كلماته".

بدت الحيرة في وجهي تزداد فأردف:

"إن القرآنَ حافل بالحقائق البسيطة المجردة بعيدا عن النفاق المنمق، هو يعرف أنك إنسان ولا يطالبك قط بالملائكية ولن يطالبك سوى بعدم تعدي الحدود".

"لكن بذرة هذا الحب الجسدي شهوة تعصف بقلبي، أشعر بفوران جسدي وبسجود عقل الإنسان لغريزة الحيوان"

"لم يحرم الله الشهوة قط وآيات القرآن تتكلم بأريحية عن علاقة الرجل والمرأة، إن طبيعة الحياة لا تعني سيطرة الشيطان لكن فقط محاولة التقرب إلى الله"

"أنا أنسى الله حين أفكر فيها وقد بقيت شهرا أتأملها في الصحو والمنام وأنسى من خلقني وخلقها"

"هل رأيت؟! هذه هي الحدود وأنت تتعداها... تسرف على نفسك، والجريمة ليست الحب بل الإسراف... حدد المشكلة قبل أن تحلها"

ابتلعت غصة في حلقي وقلت:

"أليس من الأفضل الزهد والتبتل إذن خوفا من الوقوع في الأسر؟"

هز رأسه وسكت للحظة ثم قال:

"أخبرني ماذا كانت خطيئة آدم"

ارتبكت قليلًا ثم قلت مترددا:

"الأكل من الشجرة؟"

ابتسم وتحرك حولي وقال:

"لا يا بني لا... الخطيئة المعصية وإلا فكل من الأشجار ما تشاء!"

كأن شهاب أشرق في ظلام عقلي فقلت مقتنعا هذه المرة:

"نعم، ربما فهمت الآن!"

١ ديسمبر ١٩٨١

الأيام مع الأستاذ عزت ممتعة إلى أقصى درجة، ولا تمر مر الأيام الرتيبة، حيث تنسى تفاصيلها وتندمج ببعضها وكأنها يوم طويل واحد لا فرق فيه بين إثنين أو خميس، حتى نهايات الأسبوع كنت أتعمد أحيانا أن أجد عذرا لأحضرها معه. كنت أحضر بانتظام بعد العصر حيث يشرب الشاي وأشربه معه وتصر زوجته على أن تصنع لي بعض الكيك فلا أنتهي منه أبدا، ونجلس إما يملي علي شيئا وإما يطلب مني البحث عن ورقة أو مقال وإعادة ترتيب قضية من القضايا، كنت أفعل ذلك روتينيا ولا أنفك أسأله ولا ينفك يجيب... كان يجيب وهو يكتب وهو يقرأ بل وهو يتكلم، يدمج إجابته في سير حديثه المعتاد فيخرج سلسا وكأنه يقرأ من كتاب، ومما ضاعف إكباري له إحساسي بأنه لم يحظ بقدره قط... إن الأستاذ حسين جوزو له متابعوه، ومشايخ الرابطة لهم جمهورهم وكتاب الرأي في الجرائد يحتلون دائما أفضل الأماكن تاركين عمودا قصيرا متواريا للأستاذ عزت نافذته الوحيدة، ومع ذلك كانت تأتيه رسائل الإطراء بانتظام لكنه لهذا حقا قدر الرجل؟ حين شكوت له هذا الأمر ابتسم وخلع نظارته ثم قال:

"لعلك أنت من تنظر بالمقلوب"

"وكيف؟"

"أنت تحسب النتيجة معيار النجاح... حسنا، هذا ينطبق على كل شيء إلا الإنسان، إن البطولة صفة إنسانية".

تركت الأوراق في يدي وقربت كرسيا منه حيث كان يقرأ في ضوء النافذة وقلت مستزيدا وقد علمت أنها لحظة دمج:

"لا أفهمك جيدا يا أستاذ"

هز رأسه ونظر للخارج قائلًا:

"ولا أنا أيضا، أفهم هذا جيدا، ما الذي يجعل البطل بطلًا لا سيما وقد يكون مقتولا أو مخدوعا! إن سقراط والمسيح لأمثلة جيدة على ذلك"

تفكرت لثانية ثم قلت:

"لعلها التضحية هي المعيار"

"هذا هو السؤال يا بني، بأي منطق تكون التضحية بالنفس بطولة لا حماقة، هذا ضد قوانين الطبيعة المادية"

"هذا نطاق عمل الدين والفلسفة"

قلتها مسرعا فخورا بمعرفة اكتسبتها منه سابقا كطفل يتباهى بنطق الكلمات أمام أبويه.

"نعم، لا تفسير آخر للبطولة إلا عالم آخر تجازى فيه أو أرواح تقدر ما يفعله هؤلاء، حتى لو ليس له نتيجة إلا دماؤهم"

"هل تتوقع موتك يا أستاذ في سبيل فكرك؟! هل حينها فقط سيقدرك الناس؟!"

نظر لي للحظة وقال:

"إن توقعي لنفسي كان دوما خاطئا"

قام واقفا وقد بدا عليه الحماس وهو يتذكر:

"هل تعلم؟ لم أخطط قط لدراسة الحقوق رغم حبي لها! على العكس تماما، قررت أن أدرس أي شيء آخر خوفا من عودتي للنضال الذي أودى بي إلى السجن وأودي بأصدقائي إلى الإعدام".

ارتبكت قليلًا وسألته:

"لكني أراك عدت لدربك!"

قام يتمشى وهو يقول: "نعم... لقد اكتشفت أن ابتعادي عما أحب بحجة الخوف على الحياة هو القتل عينه، ربما تلك بطولة أو حماقة، لا أعلم... لكن كل حرف أكتبه أعتبره ميلادا جديدا وكل لحظة تردد أضعتها أعتبرها اختلاسا من العمر"

"إن الأقدار هي ما تحدد الميلاد والموت"

"لذا من مصلحتك دائما أن يكون مرادك هو مراد القدر وأن ترجو ما يرجوه الله لك"

٢ ديسمبر ١٩٨١

لم تكن أُمي تعلم كثيرا عما أفعل، تعلمت منذ مدة أن السؤال يجلب الجدال ويفتح باب الجزع والقلق، هي توقظني في الصباح وتطمئن عليّ في المساء وتحضر لي الغداء ظهرا، تعرف أني أذهب للمدرسة صباحا، أما عصرا فلا تعلم ولا تسأل، ولقد استفزني هذا كثيرا حتى إني قررت أن أخبرها بمحض إرادتي، كانت تشاهد التلفاز وهي تخيط شيئا، شعرها ينسدل على طرف الثوب بين انكفائها وارتفاع ناظرها، ما زالت جميلة أُمي وإن خالط شعرها البياض. قلت لها:

"ألا تسألين يا أُماه أين أكون عند العصر؟".

ابتسمت بطرف فمها وقالت ساخرة:

"أكون نائمة حينها!"

ضحكت وقلت:

"ألا تهتمين لأمري؟"

"أهتم أن تكون سعيدا وهذا ما حدث، تعود راضيا دوما"

سكتت برهة ثم أردفت:

"هل هي جميلة إلى ذلك الحد؟"

انعقد حاجباي متسائلًا فقالت:

"أجمل من أمك؟"

ضحكت، بينما أنا أقول وقد ارتفع صوتي:

"من هي؟"

"هل رأيت، إذا سألتك ستنكر!"

هذه المرة شعرت بالغيظ وقلت:

"أُمي أنا لا أذهب لمواعدة فتاة، أنا أعمل!".

تركت ما في يدها ونظرت بعينيها نادرتي الاهتمام بشيء.

"تعمل؟"

"نعم، لكن كمتطوع"

"جمعية؟"

"بل جامعة"، ثم مستدركا "لكنها شخص!"

ابتسمت وقالت:

"ومن هو هذا الجامعة، أهو غير شيخك في الجامع؟"

"لعلك لن تعرفيه، لم يشتهر كثيرا بعد، لكني أؤكد لك أنه سيصبح الأهم يوما"

"من؟"

"اسمه الأستاذ علي عزت... بيجوفتش!"

وكأن صاعقة أصابتها أو قارعة حلت قريبا منها:

"ماذا؟ أنت قلت عزت بيجوفيتش"

"هل تعرفينه؟"

"كما تعرف أنت خالك"

"دراجان؟"

"بل أدمير"

"لم أر إلا صوره ولم أسمع عنه إلا منك"

"هكذا أنا، لم أر عزت إلا من وراء جدار ولم أسمع عنه إلا من أدمير...".

٢٠ فبراير ١٩٨٢

الخطاب الذي وصل كان مقبضا، في الواقع كانوا عدة خطابات وهذا ما ضاعف التأثير، وكان الأستاذ عزت قد جعلني أمينا على الخطابات التي تأتي من مجهولين وغالبا ما كانوا قراء لمقالاته التي ينشرها دوريا في عدة مجلات، وفي الحقيقة كانت كلها ثناء دائما أو سؤالا حائرا، أما هذا الخطاب الذي تلاه غيره فكان تهديدا واضحا، وفي الحقيقة لم يكن يستهدف مقالا بل كتابا للأستاذ لم يلق رواجا كبيرا حين نشره منذ عشر سنين ويدعى (الإعلان الإسلامي)، وكانت خطابات التهديد كلها تقريبا بصيغة موحدة، فهي تبدأ بكيل بالاتهامات بالتطرف ثم تنتهي بنذير عن السجن الذي ينتظر الكاتب والبلاغات التي ستوجه ضده، كان رأي الأستاذ أنها محاولة لثنيه عن الكتابة الدورية وإنذار بالسكوت وإلا... وتحقق حدس الأستاذ حين سمعنا بعد أيام عن الخبر المؤلم باعتقال حسين جوزو صباح اليوم وإغلاق مسجده، كنت قد قررت زيارته لكن حين ذهبت لم أجد شيئا ولا أحدا، فسألت الأمين بائع البخور فأخبرني بما جرى، إن الأمين اسم على غير مسمى وهو يبالغ دوما في الأمور والأحداث، لكن لا بد أنه صادق فالحدث عيان بيان وإن كان تفسيره ما يحتاج لنظر، لم يكن الأمين ينتمي لجماعة الشيخ بل لخصومه وهم كثر وكلهم مسلمون متدينون، وقد فسر القبض عليه بسبب تجاوزه في التفسير فأبلغت عنه الجمعية الدينية السلطات، إن هذا لا يجوز لعدة أسباب، أولًا أنه يفعل ذلك منذ زمان ولم تتجاوز المخاصمة اللسان، ثانيا، هل تدينت الشيوعية على أحد المذاهب الأربعة كي تقبض على من خالفهما؟ ياللسخرية!

"حتى أيام تيتو سنترحم عليها!"

قالها الأستاذ عزت وهو ينظر أرضا فيحزن:

"هل تصدق أن الجمعية الدينية هي سبب القبض عليه؟"

"بل أصدق سذاجتهم وشماتتهم ياللخزي!"

"إذن ماذا حدث؟"

"زبانية الحكم الجديد"

"لماذا يشددون القبضة هكذا؟"

"خوفا من ارتخاء مفاجئ بعد فشل مستمر"

ورغم أن الجو كان غائما بالخارج وبدت على وشك الإمطار، دعك من دنو المغرب وجدت الأستاذ يلبس معطفه ويقول:

"لم لا نتجول قليلًا؟".

قمت من فوري ممسكا بشمسية في الركن خوفا من مطر مفاجئ ولحقت به، كانت الشوارع هادئة ولسعة برد أشبه بالنسيم تجعل التمشي كشجن لطيف، كنا نتجه نحو السوق القديم ووجدتها فرصة

جيدة كي أرى أبي وربما أعرفه بأستاذي الجليل، لذا سرعان ما دخلنا السوق القديم واتجهت نحو دكان أبي لأجده جالسا يعبئ عطرا ما.

"السلام عليكم يا أبي"

"عمر... وعليكم السلام، ماذا تفعل؟"

"أتيت لأراك"، ثم أردفت "معي ضيف عزيز، أستاذ عزت بيجوفيتش"

تطلع أبي للأستاذ وخرج وهو يعبث بلحيته وسلم بتوجس لا أعرف مصدره.

"أهلًا سيد عزت"

بدا الأستاذ قصيرا مقارنة بأبي لكن سرعان ما أتى أبي بكراسٍ وجلسنا متساويي الرؤوس نتبادل أطراف الحديث حول حال السوق وبضاعة أبي، لكني لا أذكر من أو ما فتح أمر اعتقال الشيخ حسين وكان رد أبي صادما حين قال:

"رجل استرحنا منه!"

ولما لاحظ نظرات الشزر في أعيننا قال موجها كلماته إليّ:

"أعرف أن هذا لن يعجبك، أنت من مريديه وحذرتك من قبل، لكن ترى ما رأي السيد عزت؟!"

بدا التجهم على وجهه وهو يقول:

"جوزو كان صديقي لكن ليس هنا مربط الكلام، الاعتقال جريمة من سلطة غاشمة"

"لكن لا تنس يا سيد عزت أن تلك السلطة تعطينا حرية الشعائر، ثم إن جوزو كان يخرف كثيرا"

ابتسم الأستاذ بطرف فمه كعادته عند الامتعاض وقال:

"هم لم يعتقلوه لأنه يخرف كما ترى، بل لأنه يتكلم... مجرد يتكلم، ثم هل الإسلام شعائر فقط يا سيد فضل؟".

تجاهل أبي الإجابة وقال:

"يقولون إنه كان إماما في فرقة نازية أثناء الحرب!"

كان أبي يردد كلمات الجهال والضلال بأريحية شديدة، بدأ اليأس على وجه الأستاذ وسكت لكن أبي قرر التمادي متسائلا وقال:

"ماذا قد يمثل جوزو للإسلام أو المسلمين...؟ إن هيئة العلماء قد تبرأت منه"

"هذا لأنهم ليسوا علماء دين يا سيد فضل الله، بل علماء سلطة"

"حسنا قد أوافقك، لكني أيضا قد رأيت الأئمة الحق والعلم الصحيح"

عرفت فيما سيتحدث أبي... ذكريات مدرسة الغازي والشيخ الأسطورة الخانجي، لطالما غبطته على ذلك، لقد رأى بل تتلمذ على يد أنجب شيوخ البوسنة باتفاق طوائفها، لكن أن أستدل أن جوزو ليس على منهجه في العلم، فلماذا لا يستدل على أنه على منهجه في الحق؟! قررت التدخل فقلت:

"أنت من حكيت لي عن رسالة الخانجي لسباهو حول أمر الدستور"

ارتبك قليلًا وقال:

"سباهو كان مسلما، لكن كيف تخاطب صربيا بكتاب الله؟"

هنا تدخل الأستاذ:

"جوزو لم يفعل ذلك، لكنه خاطبهم بالقانون الدولي وحقوق الإنسان".

ابتسم وقال وكأنه أوقع بي:

"هل رأيت لماذا إذن تحسبه شيخا وتنسبه للخانجي!"

بدت لي أحجية متعمدة... إن أبي يجادل لا لإقناعنا بل لإقناع نفسه، اغتظت وأردت الرد لكنه

تشاغل بحسابات ما، وتشاغلت أنا بتأمل المعروضات، وبدا السأم على أستاذ عزت الذي قام مستأذنا فقلت له:

"سآتي معك".

١ مارس ١٩٨٢

انتظرت طويلًا لقائي بأبي في المنزل لكي أُعاتبه على لقائنا الذي أغضب الأستاذ، لقد تعمد أبي ذلك بوضوح، أبي يقول إنه يقدر العلماء ثم هو يهين أحد أبرز مفكري البوسنة، هل لأنه ليس على مذهبه؟ لكن ما مذهبه؟ إنه خليط من مجد الماضي وذل الحاضر، الأقدمون عظماء لأنهم لم يخافوا في الله لومة لائم لكن نتبع في الحاضر منهج المحدثين الذين يدورون حول نصوص السلف أو حول أنفسهم في حلقات الذكر، فئتان تكرهان بعضهما لكنهما متفقتان لأبعد حد، إذا كان أبي قد تعلم في مدرسة الخانجي ثم تخرج ليبيع العطارة وينصح الجميع بالبعد عن الصراع إذن فيم كان يدرس ولم؟ وإذا كان دور الهيئة الدينية الإبلاغ عن العلماء فهل ننتظر تجديدا للدين أو ظهور علماء؟ أختنق في أسئلتي ولا إجابة إلا وهي أسوأ من أختها ولقائي بأبي صار عزيزا، حتى أن لقائي بأحد المارة ربما صار أسهل، لم يعد أبي يعود يوميا للمنزل ولوعاد فإنما للنوم وفقط، أمي لم تعد تهتم إلا بي وبقهوتها التي تتفنن فيها ونباتاتها التي صارت أسرا وعائلات. لم ألحظ من قبل كم أن بيتنا مفكك والدليل الكبير على ذلك أني أول مرة ألحظ ذلك! قررت أن أمر بأبي صباحا، إنه يفتح المحل كعادته في السابعة، يقول أن في البكور بركة ولكن حين ذهبت إليه في العاشرة كان محله مغلقا، الضرير العجوز ميكوليتش كان جالسا، وحين سألته عن أبي قال:

"أبوك يأتي ظهرا"

"ظهرًا! كيف؟ إنه يأتي في السابعة، يخرج يوميا في تلك الساعة، منذ سنين..."

"نعم منذ سنين لكن منذ شهور لم يعد الأمر كذلك"

ماذا يحدث! أين يذهب أبي في الصباح وأين يبيت في المساء! فكرت أن أسأله وأن أمر عليه ظهرا لكني وجدت الأمر لن ينجلي هكذا، موعدنا في المساء يا أبي، سأراك ولكنك أنت من لن تراني.

٨ مارس ١٩٨٢

كانت نتيجة مراقبتي لأبي كارثة، لم أفق من صدمتي إلا الآن، بعد أسبوع من عدم التصديق والسؤال المتحري، أبي يبيت في منزل آخر مع امرأة أخرى. في البداية ظننت أن الأمر انحراف والعجيب أنه أمر لم يحزنّي قدر علمي بأن الأمر زواج على شرعة الإسلام، مارية امرأة بوسنية توفي عنها زوجها في شبابها، ماريا من زبائن محل أبي ثم صار أبي أول زبون لها بعد انقضاء عدتها، ماريا لها ابنة صغيرة أصغر من أن تعي ما أُعيه الآن، خيانة أم أو أب... لكن الأمر في حق ماريا هين، لقد خانت ميتا أما أبي فهو يخون حيا، أُمي التي ستموت حقا لو علمت بالأمر، أُمي التي لم تجف عيناها بعد حزنا على جدتي المتوفاة لتوها، أفكاري لم تزل وعيني لم تجف إلا ليلة أمس، حين عاد أبي، لم أسهر قط إلى ذلك التوقيت من قبل لكنني أيضا لم أتعمد الأمر بل حاولت تحاشيه... مواجهة أبي، أطفأت النور مجرد ما سمعت مفتاح الباب يدور، لكن يبدو أن الأوان قد فات، لأن خطوات أبي المقتربة من غرفتي أعلمتني من الطارق الآن ملقيا السلام:

"لماذا تسهر هكذا! هي المذاكرة حتما"

ابتسمت في سري، لقد ذكرني بالمذاكرة المتراكمة لكنني هززت رأسي دون رد، جلس جواري وأحاطني بذراعه، إنه يمارس دورا أبويا ما... لم أكن أعرف براعته التمثيلية من قبل، شيخ وفالنتينو وأب، زوج أول وثان، ثوري وصوفي وسلفي، لكن لماذا لم أرث عنك ذلك يا أبي؟!

"مالك؟"

لم أتحمل تمثيلا للامبالاة أكثر فقلت ضاغطا على أسناني:

"أبي لماذا عدت اليوم!"

ضحك وقال:

"ولماذا لا أعود... هل تريدني ألا أفعل!"

"ربما أنت من لا تريد"

"بني، أنا أبيت هنا دوما، لكن... لكني أحيانا أبيت في المحل، مثل الماضي. ألم أقل لك أن قبل زواجي بأمك كنت أبيت يوميا به"

خفت أن يكمل قصته المكررة عن علاقته بجدي أمير، إنه مولع بحكايات الماضي.

"أبي أنت لا تبيت بالمحل، أعلم ذلك..كما أني أعلم أن زواجك بأمي مرحلة انتهت"

امتقع وجهه وسكت للحظة وغمغم متسائلا:

"ماذا تقول؟"

ولما لم أرد قرر هو الدفاع دون هجوم.

"بني أنا عادل مع أمك جدا، ألا تفهم؟ أنا أبيت هنا يوما كل يومين، أقسم وقت الإفطار والغداء، أفطر هناك وأتغدى هنا لكنك أنت من لا تكون معنا... مع أستاذك هذا"

"لا أعلم كيف لم تلحظ أُمي الأمر... ولو كنت عادلًا في الوقت، هل أنت عادل في الاهتمام؟!"

ابتسم وهز رأسه وكاد أن يقول شيئا فتراجع، ثم عاد ليقوله:

"أنت لا تفهم يا بني، أنت تظن أني لا أهتم لأُمك، بني هي من لا تهتم، في الحقيقة لم تهتم أبدا، عشرون سنة قبل أن تعي كنت أركع عند أقدامها بينما هي تفضل زهرة توليب عليّ"، سكت للحظة ثم أردف "وحين جئت أنت صار ذلك همها الوحيد وحسنتي الوحيدة لديها، لا تذكر أني أحسنت إليها من قبل... أنقذتها من مصير أسوأ... عملت ليل نهار من أجلها ومن أجل أمها... وذكرى أبيها... حاج أمير قدس الله روحه".

لا أدري ما أقول، دمعة نزلت من عيني، وربما عينه أيضا وهو يردف:

"ثم هل حقا تظن أني أتزوج في تلك السن لشهوة أو نزوة؟! إنه خير يا بني، برٌ بالناس، بأرملة وطفلة لا يعولهما أحد، وفي ذلك الزمن من يدري ما تصنع بهما الأيام"

"وما تصنع الأيام بأمي! امرأة مسنة أيضا يتزوج عليها زوجها، كيف تنظر لنفسها وتيأس من حياتها!"

"لن تعرف يا بني، هل تعلم لماذا؟"

نظرت إليه منتظرا جوابه:

"لأنها ببساطة لا تريد، فقط أتمنى ألا ترث أنت عالمها الخيالي الذي تطير فيه الفراشات، فالدنيا أوسع منه بكثير!".

١ أكتوبر ١٩٨٢

لم أرد الكتابة لفترة، لم أرد تسجيل أيام قاسية كي لا أسترجعها أثناء الكتابة ثم أسترجعها ثانية أثناء القراءة، ولو بعد سنين، لقد تكالبت الجراح على النفس وأصعب ما قد يلاقيه المرء ألا يجد وقتا كافيا ليلعق جراحه، فتغور الجراح لكن لا تندمل، لم أجد وقتا كافيا لمداواة صفعة أبي لنا، كان يمكن تقبل الأمر ببعض التفهم لكن قطيعة قد وقعت بقلبي قبل لساني وجسدي بأبي فلم أزره بعد ذلك وفي المنزل لا أُحدثه البتة لو رأيته. كان هذا موقفا مبدئيا قابلا للتغيير سرعان ما ثبت في عناد وذلك لعناد أبي، توقعت أن يتفهمني كي أفهمه، توقعت أن يطلب السماح فأسامحه، توقعت أن يطرق بابي يوما لكنه لم يفعل. هل ينتظرني أنا أذهب إليه أم أنه ارتضى بالقطيعة؟! هل حقا لا يشعر بتاتا بالذنب؟ لم يعد

الأمر يحتمل المراجعة خاصة مع هجوم الامتحانات التي لم يسمح لي بوقت حتى لزيارة الأستاذ عزت فحرمت منبع أُنسي الوحيد كما أني تابعت انزواء الأستاذ جوزو عن الحياة واعتكافه في بيته خاصة حين وجدوه ميتا فيه بعد شهور، أيام صعبة وشهور قاسية بل وصيف شديد الحرارة ليجعل الأمور لا تطاق أكثر وحين ذهبت للأستاذ قرب نهايته لم يكن قد عاد بعد من العطلة مع بناته وأحفاده، إن الصغيرة سلمى تخطف العقل وتستحق العمر كله ليحيا معها، وهكذا عدت بعد شهر أي اليوم لأجده قد عاد وها أنا أكتب مجددا ولو مؤقتا فرحا به حين قام لي مرحبا.

"كيف حال الدراسة، ظننت أني شغلتك حتى تكاد أن لا تنجح!"

"بالعكس لقد أثريتني جدا، مستقبلات القراءة عندي تفتحت حتى للمناهج التي لا أطيقها"

"إذن سنة أخرى وتلتحق بالجامعة"

"نعم، لكني لا أدري ماذا أختار... لقد صرت شغوفا بالأدب والتاريخ"

ضحك وقال:

"بني لا تدرس شغفك... ستكرهه لسببين، فالدراسة المنتظمة مملة، كما أنه سيفقرك تماما، فماذا تعمل بشهادة في الأدب أو التاريخ والذي على الأغلب سيكون مزورا كذلك؟"

"إذن ماذا أدرس؟"

"هذا له علاقة بما يمكن أن تعمل"

"أتمنى أن أعمل في الكتابة والسياسة، لا تؤاخذني أستاذ عزت... أتمنى أن أصير مثلك!"

ضحك ثانية ولبس نظارته وطالع شيئا سريعا في الجريدة قبل أن يقول:

"أمامك مشروع سجين، هل حقا تريد العمل هناك؟"

وجمت قليلًا وقلت بصوت خفيض:

"هل حقا تظن أنهم سيقبضون عليك... مثلما حدث مع الأستاذ جوزو رحمه الله"

"لقد كان حسن الحظ أن مات خارج سجنه، إن عدة شهور فقط في سجن شيوعي حدث نادر، السنين هي المقياس المعترف به هنالك"

"مثلك يا أستاذ، لا تكون نهايته في السجن"

"أفضل من يلاقون حتفهم هنالك، ليس ذلك هو المعيار"

زاد وجومي وأحسست أن الجو صار خانقا على ذكر الموت قهرا، ورغم مجيء الشاي إلا إنه لم يلطف الأجواء بينما خلع الأستاذ نظارته واستغرق في التفكير قبل أن يقوم من مكانه فجأة وهو يقول:

"ربما حان الوقت".

ومن المرات القليلة التي أرى الأستاذ يرتقي الكرسي الصغير الملاصق للمكتبة ليجلب شيئا من السندرة العلوية، كانت أوراقا متفرقة علاها التراب وبدا عليها القدم مغلفة بغلاف قد اهترأ بفعل الزمن، هبط بها وأخذ يقلب فيها نافضا عنها التراب ثم أعطانيها فقلت:

"ما هذا؟"

"طرد مستعجل سترسله لصديق في كندا سأدون لك اسمه"

"اسم الصديق؟"

"بل اسم الكتاب... (الإسلام بين الشرق والغرب)"

٢٣ مارس ١٩٨٣

اليوم تم القبض على أستاذ عزت، ورغم أن ذلك بدا متوقعا إلا أني لا أملك نفسي من الغيظ، ما جدوى أن تكون مفكرا ثم يتحكم بك من لا يفكر؟! ما جدوى الكتابة التي يمحوها جاهل؟! وما جدوى تلك المذكرات التي مات صاحب فكرتها وسجن من تحكي عنه؟! تبا.

(صفحة مقطعة)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هامش

توقفت فجأة عن الكلام من الكراس الأحمر المهترئ، أشبه ببحر مسترسل أمواجه عاتية ثم تحطم على صخرة ليعود خائبا، ظل ينظر لها منتظرا أن تكمل لكن لا فائدة... حتى سألها

"لماذا توقفت؟".

أشارت إلى الكراس أو بمعنى أدق لصفحة الكراس الأخيرة والتي امتلأت ببعض الشخبطة لتقول

"تلك نهاية المذكرات..."

"لقد توقف تماما في تلك اللحظة!"

"أو لعله قطع ما كتب، أنت تعرف تقلبات تلك السن، ولعله لم يرغب في تدوين ما يؤلمه من الأحداث، خاصة بعد الحكم بسجنك!"

بدا عليه الضيق وقال:

"لكن عمر شارك في الحرب بعد ثماني سنوات، هل لم يدون تلك الأحداث الهامة؟!"

مطت شفتيها كأنها لا تعرف، فاعتدل في جلسته ونظر للسقف مليا كأنه يسترجع شيئا ثم قال:

"صدقيني لقد شغل عمر جزءا من تفكيري أثناء سجني الثاني في كهولتي... تساءلت عن مصائر كل من حولي وكان منهم وكانت سعادتي بالغة حين خرجت لأجده متطوعا في حزبي"، سكت هنيهة ثم نظر إليها "لكنه كان مختلفا، أحسست بذلك، إن للسن المتقلب عاملاكبيرا طبعا لكن أيضا لا بد أنه حكى لك أيضا عن بعض ما غيره".

"إبني لم يؤثر فيه شيء لكن أثر فيه أشخاص، أزعم أنك أحدهم لكن لست وحدك"

"من إذن؟"

"تدعى باولا"

ضحك وقال:

"أتاني أصلا هربا منها"ثم أردف بفضول هل رآها ثانية؟"

"نعم"

"لم يحك لي قط، ومن أيضا؟"

"وداوود"

"داوود خسرو؟"

"من غيره"

"لكن هل رآه قبل الحرب؟!"

"نعم، في زغرب التقى بهما، إنها قصة طويلة لكني أذكرها حرفا، حرفا، كما حكاها لي متقطعة بين أجازة وأخرى!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الكمون)

١٩٨٥

كان شعورا غريبا؛ مزيجا لا تدري لأي جهة يميل، أن تترك وراءك مدينة كل آمالك وآلامك، ماضيك بكل مضحكاته ومآسيه، إن لم يكن ذلك معنى الشجن فما يكون !ثم تتجه نحو حياة جديدة في أرض مختلفة لأهداف أخرى إن لم يكن ذلك المجهول فما يكون !إذن بين الشجن والمجهول كانت رحلتي من سراييفو إلى زغرب عبر حافلة مريحة في طريق طويل تمنيت أن يطول وتتوه الحافلة في الطريق فلا أنا أرغب في العودة ولا أرغب في الوصول، كنت في حالة من اللايقظة واللانوم وكأنني أيضا لا أرغب في أي منهما، فتداهمني الهلاوس؛ لا هي حقائق ولا هي أحلام، نظرة الأستاذ عزت الأخيرة في القفص ومن قبلها ابتسامة أستاذ جوزو خلف مكتبه، أبي وهو يعطر لحيته قبل ذهابه لبيته الجديد وأمي تصنع القهوة وهي تشربها في نفس الوقت، كل ذلك صار ماضيا لكنه لا ينتهي، عذرا لكم جميعا لكني سأترككم الآن، فقد وصلت الحافلة لمحطتها، لكني أعدكم بالعودة.

وقد أحسست أن زغرب احتوتني ولو لم تكن أرضي،كانت تكسب رضائي دوما، ودوما ما أجد فيها متسعا، فالمدينة الصغيرة نسبيا كانت تحوي الكثير من الجمال ومن كل بستان زهرة، ورغم إحساس الغربة الذي ألمّ بي في الطريق إلا أنه زال بمجرد الوصول. لقد فتحت لي زغرب ذراعيها وقررت أن تتعرى أمامي كما ظهرت في ثوب داكن خفيف هو لون ليلها الهادئ، هدوء، ربما كان أكثر ما أفتقده، ليست سراييفو أصخب مكان في العالم لكن صراع الذكريات يشبه طبولا تقرع بلا نهاية، لقد صار المشي في حواري سراييفو كفرقة موسيقية لا تكف عن العزف في رأسي بينما شوارع زغرب توحي إليّ بموسيقى حالمة كلاسيكية تهدهدني كأنني في طريقي إلى النوم، وهو ما كان صحيحا، فندق البوسنيين... هذا هو وجهتي بعد سفر طويل لأقضي فيه حتما ليلة مريحة، هكذا أشار لي فاروق بعد مشورة عمه، تأملت ورقة العنوان في يدي وسألت أقرب مار وكانت فتاة، ظلت تشرح لي العنوان وأنا أتأملها بإعجاب حتى انتهت، فشكرتها ومشت لأدرك أنني لم أفهم شيئا... مرحى، سأقع في حب أول فتاة أقابلها بالشارع! سأقع في حب أي شخص في هذه المدينة! إن الأمر أشبه بالخروج من حيز إلى حيز لا مفر... لا يوجد فراغ كما درسنا بل هواء وذرات، وأنا لكي أخرج من شخوصي وهمومي أحتاج لشخوص وهموم آخرين، أي شخص وأي هم و... أي فندق! هكذا قررت، ما جدوى ترك البوسنة لأسكن في فندق البوسنيين، ربما أذهب إليه بعد عام أو اثنين لكن اليوم الذي قضيت صباحه بسراييفو الكبرى لا ينبغي أن يكون مساؤه في سراييفو الصغيرة. وهكذا اخترت فندقا بشارع جانبي قادتني أقدامي إليه.

"كم ستتبقى في زغرب؟"

"ربما أربع سنوات"

نظر لي موظف الفندق بارتياب فأخرجت له بعض المال قائلا:

"لكن مبدئيا هذا حق ليلة واحدة، تفضل"

أعاد لي عملتين ونادى عاملا ليريني الغرفة، لم أرها في الحقيقة ولم أهتم، فقط قضيت حاجتي وتمددت على السرير في نور خافت أنظر للسقف وقد هالني الأمر، أنا أنسى فعلا... سكاكين العقل كفت عن العمل كأنه محرك كف عن العودة للخلف، إنه يهدأ ويتوقف ثم يعاود العمل للأمام هذه المرة، أنا أفكر للأمام.. عن الغد وبعد الغد، عن أربع سنوات كيف تمر وترى كم ستكون مدتها الحقيقية، نعم فالزمن له مدة، هذا ما تعلمته أو أول ما تعلمته، قد تمر الساعة كسنة والسنة كساعة. أغمضت عيني ببساطة طالبا النوم وعلى عكس المتوقع جاء سريعا. فقط تذكرت شيئا فأنا لم أصلّ اليوم، وتذكرت أنني لم أترك الصلاة منذ مدة طويلة، ربما منذ المعسكر إياه، منذ ثلاث سنوات، أدركت حلمي القادم فاستعجلت النوم وسهوت عن الصلاة!

صحوت باكرا دون منبه، احتجت للحظات لأدرك أنني في مكان آخر وغالبا في زمان آخر، غيرت ملابسي ونظرت في المرآة لأتأكد أنني أنا، وهبطت متلمسا الطريق إلى الجامعة، لكني تذكرت شيئا... لم أكلم أمي حتى الآن! تخيلت القلق الذي يعتصرها والنوم الذي لم تذقه بينما كنت أغط في حلم بعيد جعل صباحي رائعا، كان موظف الاستقبال مختلفا ولكنه أكثر توجسا ولا أدري السبب، فقط استأذنته في الهاتف متجاهلا نظراته حتى جاء صوت أمي من الطرف الآخر:

"يالنكرانك!"

"أمي، آسف، كنت مرهقا للغاية، نمت بسرعة"

"حسنا إذن دعني كي أنام"

بدا عليها الضجر واضحا.

"هل حقا تواسيننني في فراقي بتلك اللكنة؟!"

"هل أوحشك فراقي؟"

ترددت للحظة ثم قلت:

"نعم، نعم بالطبع"

أغلقت السماعة... هل كنت غير مقنعٍ لتلك الدرجة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما هو الحال في يوغسلافيا كلها فكل شيء يحتاج إلى طابور، إن مجتمعنا يتظاهر بالنظام بينما الفساد يسري في عروقه، لا أدري كم طالبا قدم أوراقه بالفعل لأنه قريب لمسؤول في الحزب أو الحكومة دون ذلك الطابور المرهق، تخيلت نفسي في حوار مع خالي دراجان.

"خالي، هلا ساعدتني في التقديم لمعهد الهندسة بزغرب!"

"لو شئت لجعلته يأتي إليك بسراييفو"

ثم يضحك ضحكته المكتومة وتضيق عيناه الضيقتان بالفعل، أظن أن الأمور لم تعد بتلك السطوة، إن الوقوف بالصف أسهل حتما من تحمل تلك الضحكة خاصة لمن هو مثلي كطفل يتعرف على عالم جديد فيستكشف ما حوله في صبر، حتى أنني تابعت حوارا بين فتاتين عن بعض الملابس المهربة، تتظاهران بالسرية ثم يسمعهما الطابور بالكامل، اصطدم من خلفي شاب بدا أهوج حتى أنه هو من غضب وقال:

"ألا تأخذ حذرك؟"

"أظن أنك من صدمتني وأتمنى أن ذلك لم يكن عمدا"

"هل تحسبني شاذا مثلا؟"

رفعت حاجبي بين سخرية وغضب وقررت عدم الرد... لكنه هو من تكلم ثانية:

"ألا تلاحظ أنك أكبر من أن تقف هنا؟"

نظرت إليه ثانية، كان قصيرا لامع الشعر وله وجه طفولي، لابد وأنني حقا أشبه والده.

"ربما تأخرت عاما للتقديم لكنك تعلم، سرابيفو بعيدة عن هنا"

ضحك كأنما أعجبته الدعابة وقال:

"أنت بوسني إذن! لعل طولك وأنفك يناسبان أن تكون صربيا لكن هذا أفضل كثيرا"

"لا تحب الصرب؟"

"إنهم ملاعين يا أخي"

ثم اقترب هامسا:

"يوغسلافيا تضيع الآن بسببهم"

خشيت أن يتطور الحوار فالتفتُّ عنه أنظر فإذا بي أمام موظفة عجوز، لا بد أنها حضرت الحروب العالمية ولعل هذا سر صبرها حتى تكلمت أنا مقدما أوراقي:

"أرغب في التقديم للمعهد و... السكن"

نظرت لي للحظة ثم تفحصت الأوراق ببطء بينما يهمس من خلفي:

"ياللملل... لا جرم أننا انتظرنا كل ذلك"

تجاهلته حتى رفعت عيناها ثانية وقالت:

"اسمك عمر؟ بوسني؟"

هززت رأسي فتجاهلتني بل بدا عليها ثمة امتعاض وهي تقول:

"بعد ثلاثة أيام، فلتمر ثانية"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أفهم حتى الآن لماذا اخترت هذا المطعم لأتناول به الغداء، كان مطعما بوسنيا في شارع يدعى كالسيتشفا، إنه شارع قديم وعريق والأهم أنه بوسط البلد، تمشيت إليه من المعهد، قرصني الجوع وقد تذكرت أنني لم آكل منذ الأمس وحين وقعت عيناي على ذلك الشارع وجدت به عشرين مطعما على الأقل وفي النهاية اخترت ذلك وكأنني آلة، في الحقيقة كنت أشتهي الكباب ومع الجوع لا فرصة للتجربة. هكذا جلست وترامت إلي لغة البوسنة فاستدعت معها ذكريات الأمس التي نسيتها اليوم ولولا أن نادل المطعم باغتني لقمت، طلبت سريعا حتى ذهب عني وعدت أتأمل المكان الذي بدا متواضعا، ولم يكن به على كل حال إلا شخصين يتكلمان، في الحقيقة، كان شخصا واحدا من يتكلم والآخر يستمع بنفاد صبر، مددت أذني لو جاز التعبير ولو لم أكن في حاجة فقد كان الصوت مرتفعا بالفعل بينما المتحدث يقول بحماس:

"سيتقاسم السوفييت والأمريكان أفغانستان لو لزم الأمر"

بالطبع كنت قد قرأت حول الأمر والصراع المستمر هنالك ومع ذلك حسبت ما يتكلم به الأخ بعيدا للغاية:

"لو لم يحرر المسلمون أنفسهم لصاروا عبيدا للشرق أو للغرب ولو فعلوا لحاربهم الشرق والغرب"

عمّ يتكلم هذا الرجل وأين! كانت الدعاية اليوغسلافية تميل طبعا ناحية السوفييت، لا بأس أن تنتقدهم أيضا لكن لا تتكلم كمسلم أرجوك، بينما نكون أقلية في بلدنا البوسنة فما بالك بخارجها! لطالما شغل بالي هذا الأمر متأثرا بالأستاذ عزت هل حقا من واجبنا التفكير تجاه المسلمين أم أن يفكر المسلمون نحونا؟ لقد فتح بلادنا الأتراك ثم تركونا نواجه مصيرنا اضطهادا من الجميع، هل كان من الأفضل إذن أن يتركونا وشأننا؟ جاء الطعام وبدأت في الأكل ويبدو أن صانعه ليس بوسنيا البتة، لا بد وأن هذا المطعم خدعة لصاحبه الكرواتي لكي يجتذب الحمقى أمثالنا. لم يكن هذا ما جعلني أترك الطعام على أية حال لكن نظرات الاستكشاف من الشاب المتحمس جعلتني قلقا، بالفعل أبحث عن رفيق وأنيس لكنه لا يمكن أن يكون أنت، للحظة خيل إليّ أني عدت للبوسنة فخرجت مسرعا لأجد نفسي في ساحة بيلاجسيك فأدرك ثانية أنني في زغرب، ألتقط أنفاسي وأحمد الله وأعود إلى لامبالاتي الحبيبة أسير بلا هدف لعلي أجد فندقي صدفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من أن يوغسلافيا لم تُعادِ الدين بالمرة كالسوفييت إلا أن إهمالها كان واضحا وتهميشها كان ظاهرا، وإلا فما بال كنيسة سان مارك العريقة تبدو باهتة لتلك الدرجة؟ إن قيمتها في قدمها لكن القدم أيضا يحتاج تحديثا حتى يحتفظ بنضارة قدمه، وعلى الرغم من زوار الكنيسة القليلين والأقلية منهم فقط من كانت تصلي إلا أن المكان يوحي أنه أثر منتهٍ وأنه مجرد توثيق لمرحلة ليس إلا... مرحلة الدين! هل صار الدين من الماضي؟ يناسبني هذا الكلام الآن ورغم إيماني الكامل باختلاف الإسلام عن المسيحية كما شرح لي الأستاذ عزت مرارا إلا أنني شعرت وأنا أحاول الصلاة صباحا في الفندق ولم أستطع إكمالها أن جوهر الأمر واحد... الإيمان، إنه يفتر إلى ما لانهاية، في البداية

يأسرك الحماس حين تقرأ وتتعلم كل يوم ما هو جديد ثم فجأة ينتهي كل شيء، عليك أن تكرر يوميا نفس الكلمات وتؤدي نفس الصلوات وتقرأ نفس الآيات، بينما كل ما حولك يتغير ويحتاج لتدبير، لا غرو إذن أن يتيه عقلك وأنت تترنم بكلمات الصلاة في ملكوت حياتك اليومية، يطالبنا الله بعدم الالتفات للفاني والبقاء مع الباقي لكن كيف والباقي صار مملا والفاني صار شيقا... الصبر؟ حسنا هل تطالب شابا مثلي بصبر الشيوخ! أدركت في تلك اللحظة أنها مفترق طرق، ترك الدين أو تجديده، تجديده لشاب مندفع، لوهلة أظل أسترجع كلمات ذي اللحية في المطعم، صارت تعجبني... تشوقني... لها مذاق حريف... هل في الجهاد تجديد الدين؟؟ ترى ماذا يقول أبي لو سمع هذا الرأي؟! إن الزواج خير من الجهاد، إن تربية اليتامى خير من صنع اليتامى، غريب أمرك، تزوجت امرأة وهجرت أخرى، جعلتني يتيما كي تكفل يتيما، ويح الهوى...

هززت رأسي بل ربما حركت يدي في حركة تعجبية ثم أدركت أن بعض النظرات تراقبني كأنني مجنون وأنا أحدث نفسي، ومن منا لا يفعل! حاولت تجاهل تلك النظرات بأن أخذت أتأمل الأيقونات المعلقة لولا حركة بعيدة مفاجئة لمحتها بطرف عيني، شخص ما خرج مسرعا لعله كان ممن رأوني منذ قليل، مرت ثوان قبل أن يرسم عقلي الصورة بناء على اللقطات القصيرة التي لمحتها العين، قطبت حاجبيّ وكدت أن أركض وأنا أخرج مسرعا تجاه الباب العتيق... وقفت في الخارج أنظر يمنة ويسرة ولكن لحظي كانت الشمس قبالة عيني ولم أر جيدا، على كرسي مكسور قريب جلست وأنا في ذهول... مكلما نفسي ثانية دون اكتراث للعيون هذه المرة:

"هل من الممكن حقا أن تكون هي؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة من بكر عزت بيجوفيتش: (والدي العزيز، لقد تلقينا بخيبة أمل كبيرة قرار المحكمة بتخفيض سجنك إلى تسع سنوات، كان أملنا أن يثمر النقض عن أكثر من ذلك، أتخيل كيف سيكون تأثير الخبر عليك ولقد فكرت في كلمات تهدئ من روعك وقد هدأت من روعي أيضا وأنا أفكر بها، إن كلينا يؤمن بالقضاء والقدر وهو ما يعني أن تاريخ خروجك هو مكتوب أصلا، وأن أرقاما من قبيل ١٤ سنة أو ٩ سنوات فهي مجرد أرقام لا يؤبه لها وأنت أحسن من عبر عن ذلك في نهاية كتابك حين قلت: إن عظمة الرجل تكمن في الروح التي تقيس نفسها بالوقت، وبهذا تكون أمامك فرصة أن تحيا حياة حقيقية وربما أنت بالمكان الصحيح ونحن من بالهامش... لا تفقد رباطة جأشك ولا تشك في هذا أبدا).

١٩٨٦

عدت من العطلة أتحسس نفسي من جديد وقد بدا أن جهد عام كامل في التعايش صار هباء بمجرد العودة للوطن، لن يعوض حضن أمي حضن أي صديق ولن يعوض أكلها أي مطعم ولن تعوض ملامح سراييفو معالم زغرب، أحسست أني غريب ثانية ولكن هذه المرة أتوق للعودة عكس شعوري حين أتيت أول مرة، أول مرة كنت مشبعا بمشاعر طازجة لكنها سيئة الطعم والرائحة، الآن صارت المشاعر نفسها ذكريات لا أذوقها ولا تخرج منها رائحة بل لا يبدو لي للوهلة الأولى إلا ذكرياتي القريبة في إجازة الصيف التي لتوي عدت منها، فتبدو لي مترقرقة تماما كدموع أمي حين رأتني بعد

فراق عدة شهور، لم أحاول أن أتحسس من أخبار الأستاذ ولا أبي كجرح مندمل لا ينبغي العبث به، ثم إن أخبار محاكمة الأستاذ قد اندثرت وأخبار أبي أنه لا جديد، فقط الزمان يوما ما سيمل ويصنع شيئا مختلفا ولو بدافع التغيير، حينها ينبغي أن أسأل عن الأحوال، اتجهت لفندقي القديم الذي نزلت فيه أول مرة ولم أفكر بالاتصال حاليا بأصدقاء السكن الأول، مررت بساحة بيلاجسيك أحييها وكأن كرواتيا كلها تتمثل هنا، ثم قررت الذهاب لنفس المطعم البوسني في الجوار، عن حب هذه المرة، حتى أنني تمنيت أن أرى نفس الشباب الذين وجدتهم في المرة الأولى والأخيرة لكن الحظ لم يكن رائق البال لهذه الدرجة، طلبت الأكل البوسني وأنا أعلم أنه ليس بوسنيا وحين أتى باغتّ النادل:

"هل أنت بوسني؟"

تردد قليلا ثم قال:

"لا"

"إذن وهو المهم هل الطاهي بوسني؟"

هذه المرة قال مسرعا:

"لا أعرف"

ثم انطلق مسرعا! ضحكت حتى سمع صوتي وتخيلته تعرض لهذا الموقف مرارا، إن كرواتيا يأكل في مطعم بوسني لن يكتشف الكرواتي الآخر الذي يطهو أما البوسني فسيكتشف الكرواتي كمخبر محترف ولص مبتدأ، بتُّ ليلتي في الفندق دون أفكار، إنها لحظة نادرة لكنها من أجمل اللحظات، وكأنه تأثير الحشيش الذي يتحدث عنه فاسكو ليل نهار... أنت رائق المزاج صافي الذهن راضٍ عمّا حولك، هكذا بتُّ ليلتي يقل شوقي للأمس ويزداد للغد حتى نمت في انتظاره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعورٌ مقيتٌ أن تتجهز لموعد ثم تذهب لتجد نفسك وحيدا، هكذا كان شعوري أمام الأبواب المغلقة لمعهد الهندسة واللافتة المعلقة (تبدأ الدراسة الأسبوع القادم)... حقا؟؟ لم أجد غيري من الواقفين إذ كان الجميع يعلم إلا أنا، فلو غضبت حقا لا بد أن أغضب من نفسي، من جيبي أخرجت سيجارة، سيجارة أحتفظ بها لمثل تلك المناسبات. لماذا أشعل نار الغضب في نفسي وأنا يمكن أن أشعلها في تبغ ملفوف؟! لماذا يدخل دخان الغيظ إلى خلاياي إذا كان من الممكن زفره بقوة؟! هكذا مشيت متسكعا أدخن السيجارة على مهل لا أدري ماذا عليّ أن أفعل، أأبحث عن جينو وفاسكو؟ لكنهما بالتأكيد لم يأتيا من بلديهما بعد في الشاطئ الكرواتي! أم أعود أدراجي لأمي، إذن فذلك عناء جديد من سفر وشوق يتجدد! أم أقيم في زغرب تلك الأيام آكل كل يوم في المطعم البوسني وأزور كل يوم حديقة ما كسيمير إنجليزية الطراز وألقى فولا للقرود؟ سيصيرون أصدقائي إذن من طول العشرة لكن الحديقة الخلابة كانت أوحشتني، وحيث أن الشمس ساطعة والنسيم عليل فلم لا أذهب مستلقيا على النجيل ومعيدا التفكير، اشتريت جريدة وقررت السخرية قليلا من الأخبار الموجهة عن يوغسلافيا التي تتقدم بينما تتأخر معيشة الناس، عن الشيوعية التي يسعى إليها الجميع بينما الشيوعيون أنفسهم يهربون

منها، كانت الصفحات الأولى للأخبار المحلية، أما الأخبار الأممية أي ما يخص باقي جمهوريات يوغسلافيا فكانت صفحة وحيدة، التهمتها بعينيّ بحثا عن خبر عن البوسنة وقد كان...

إنه خبر عن الأستاذ عزت ورفاقه، خبر ذكرني بقضيته الملفقة، ذكرني أن ما زال أمامه سبع سنوات في السجن، ذكرني بالظلم حين يتسلط العباد على العباد، رميت الجريدة على باب الحديقة ودخلتها أتمشى تحت الأشجار فارعة الطول أتمتع بالحرية وأشعر بغصة أن هناك من لا يستطيع أن يتمتع بها، بل وأتمادى مدركا أنني في الحقيقة لست حرا وأن المسموح به فقط هو ما قيل في الجريدة الرسمية، أما نحن فنقرأ فقط أو لا نقرأ لكن كتابة رأي ولو على صفحات الأذهان ممنوعة، وكأن الهواء ثقل فجأة، جلست تحت ظل شجرة وقد أدركت أن الفراغ نقمة حقا، يذكرك بكل ما يفوتك، بكل أخطائك وأخطاء الآخرين، لا ريب أن البشر بين منهمك في العمل إلى أذنيه يرضيه ذلك فيبعده عن خيالاته وهواجسه وهفوات الماضي ولو في العمل نفسه، وبين منهمك في اللهو ككل أصدقائي ربما الذين يعيشون يوما بيوم باحثين عن متعة رخيصة ينسون بها متعة الأمس، لكن ما بال مثلي من كان كالمحامي الذي خسر قضية ولا توجد قضية أخرى لتشغله لينسى خسارته الأولى! لم أستطع قط الاندماج مع عالم اللهو... ربما لأنني مسلم... حاولت تجاهل الأمر لكن لم أستطع، ولما أجبرت نفسي وجدت أن الإسلام أفضل كثيرا من الخمر المرة ومن الفاحشة القذرة، بدت لي الحياة تعاني الفصام بين مبادئ فاضلة ورغبات ماجنة وفي المنتصف مشاعر سامية تتجسد أحيانا في متع جسدية، إنه الحب... لا أدري هل هكذا تفسيره أم أن تجربتي مع باولا هي ما غيرت مفاهيمي؟ ما السبب أنني لم أنسَها؟ ما السبب أنني لا زلت ألتمسها وكأنني من السهل أن أجدها وسط مليون ونصف إنسان وهل لو رأيتها لعرفتها بعد تلك السنوات؟ بدت لي مقبلة وشكلها كان أكثر نضارة تلبس عوينات وتعقص شعرها ويلمع عقد حول عنقها، بدت تقترب حتى أكاد ألمسها ثم قالت:

"هل أنت حقا عمر؟"

لم أرد، في الواقع لا أريد أن يظن الناس في كل مكان أنني أحدث نفسي، لكنها كررت السؤال وهزتني بيديها فأمسكتها! نعم أمسكت يدها. لقد كانت هي حقا! هي من وجدتني، هل هذا من فعل الله أم من فعل الشيطان؟! لم أهتم، فقط تلعثمت ثم تلعثمت ثم قلت:

"أنت باولا أليس كذلك؟"

"بلى، لكن أنت ماذا تفعل هنا؟"

"أنا أتسكع في الواقع، أنا أدرس هنا منذ سنة... أنا..."

أشارت إليّ أن أسكت وأخبرتني أنها لابد أن تذهب الآن، فقد أتت مع صديقات لها وهن ينتظرنها:

"سآتي كل يوم!"

قلتها مبتلعا ريقي فردت:

"لكني لا آتي إلا عندما تسمح الظروف"

"ستجدينني دوما إذن"

ابتسمت ولم تعلق ومشت تجاه الباب. فكرت في تتبعها لكن قدمي لم تحملاني فجلست أتابع ظلها الذي يغيب وطيفها الذي لا يغيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقال إن اسم زغرب مشتق من كلمة (زغربي) والتي تعني (اغرفي) ولهذا قصة قديمة، إذ أن أحد الجنود أصيب خلال الحرب وعند حدود نهر السافا جلس، ومرت به فتاة فناداها أن زغربي أي اغرفي لي من الماء، فأطلِقَ الاسم على المدينة، وهكذا ذهبت كل يوم إلى الحديقة أجلس في نفس المكان ولوقت أطول أنتظر من سيغرف لي أنا أيضا، حتى مر أسبوعٌ وبدأت الدراسة غير أني لم أهتم. كنت قد قررت أن لا أبحث عن صديقي ولا أجالسهما السكن، فلا وقت عندي إلا لباولا أنتظرها نهارا بالحديقة وأحلم بها مساء بالفندق، لكن الأمر طال وصبري لم ينفد، والغريب أنني لم أتضجر قط رغم أن الانتظار رديف إما الملل أو مزيد من التشوق، لكنني بدوت أكتفي بطيفها الذي لم يغادر معها في المرة الأخيرة وظل يسلم عليّ كل ساعة، كم ساعة مرت؟ لا أعلم بالطبع منذ متى والمرء يحتسب لحظات سعادته خاصة لو كانت وهمية، إن الحياة قصيرة حقا وقاسية للغاية، لذا فتلك اللحظات مقتطعة منها ولا تحسب فيها ولن يحسب وقت بدلا منها على غرار كرة القدم، لكن هذه المرة في الساعة السابعة من اليوم السابع حضرت باولا بذاتها وطيفها، كنت أجلس القرفصاء أتأمل الذاهبين والغادين فوجدتها تغدو ناحيتي، قمت واقفا وأنا أنظر في ساعتي وأتذكر اليوم لأقول:

"يقولون لو أن الكون خلق في أسبوع فالإنسان خلق في الساعة الأخيرة منه"

ابتسمت وكأنها لا تفهم فقلت وأنا أشير لساعتي:

"لكني الآن أظن أن الأمر تم في السابعة... وخمس دقائق للدقة!"

ضحكت فارتجت الحديقة كما بدا لي كجمهور يتأثر بعرض مسرحي، جلست فجلست ولم نتبادل الكلام، فقط نظرات فاحصة متأملة، قالت:

"لقد اختلفت عما قبل ثلاثة أعوام"

"يمكنك أن تقولي ذلك إجمالا أما أنا فسأخبرك بكل تفصيلة تغيرت فيك"

مدت يدها فأمسكتها بقوة لا بد أنها تفاجأت، لكني قلت لها:

"هل تشعرين؟"

"بالضغط العظيم"

"بل بالضغط العالي، إن كهرباء تسري في جسدي"

"أما أنا فأشعر بألفة واطمئنان لم يزوراني منذ زمان"

"إنك من نور وأنا من نار"

"بل أنت من طين وأنا من ضلعك ألست أنت الإنسان الأول؟"

وببساطة شديدة خلعت حذاءها وتمددت لجواري مسندة رأسها على صدري تنظر للأفق بينما أنظر لها:

"لقد تذكرت تلك اللحظة طويلا وانتظرتها أطول"

"أما أنا فبحثت عن مثلها فلم أجدها"

"هل نمت في أحضان رجال آخرين؟"

"لم يكونوا رجالا،كانوا مثلك أطفالا وأنا من حولتهم لرجال"

"إذن، ما الفارق بيني وبينهم؟"

"أنت وفيٌّ وهم أنذال، أنت مخلص لواحدة رغم أنك مسلم وهم يعددون لأربعة وما فوق رغم أنهم كاثوليك!"

"لا دين للحب"

"ولا دستور للهوى"

"لا عليك، فأنا سأتبتل في معبدك وأكتب قانون حبك بدمي"

"أخشى ثورة فرنسية تطيح بالقس والملك"

"بل أنا الآن على دين أبي، وفيه أن ولي أمري مقدس"

"إذن سأقول لك فتطيع؟"

"تحت أمرك"

"لكني قد أظلمك بل أسجنك"

"إن قتلي في سبيلك جهاد، المهم أن تدخليني الجنة"

"ألست فيها الآن؟"

"دخلتها مرة واحدة وقلت لي أن أنساها بعد ذلك"

ضحكت وقالت وهي تضع يدي على ثديها:

"إياك إذن والشجرة المحرمة"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة من عزت بيجوفيتش:

(أكتب إليك يا حفيدتي ياسمينا من مكان بعيد وزمن ماضٍ لا محالة، أكتب إليك وأنا أعرف أنك لن تطلعي على هذه الخطابات الآن فلا أناملك الدقيقة تسمح بأن تمسكي بورق غليظ كهذا ولا عيناك

تقويان بعد على قراءة قسوة الحياة في سطور، أكتب فقط لتسجيل تلكم اللحظات لي ولك في حال لم تريني حين تعين، أكتب إليك مع أمل يخبو في أن أسلمك الخطاب يدا بيد غير أنني علمت ألا زيارة مسموحة لنا في هذا السجن الكبير، إذن سوف أرسل الخطاب عبر بريد السجن وسيقرؤه آمره أولا ويبتسم حين يقرأ اسمه الآن لكنه لن يعترض على خطاب جد لحفيدته يحكي فيه عن حاله في نهاية عقده الخامس، يوما ما سأحكي لك عن حكاية عقودي جميعا عسى أن تجدي فيها ذكرى تشرح قلبك غير قضبان السجن أو فخرا تتباهين به خيرا من خزي السجن، لكن لكي يعرف شخص قيمة الحرية يجب أن يدرك معنى الرق، ولكي يعرف معنى الحياة لا بد أن يرى الموت. لا أنكر أن إقامتي هنا ليست بالسوء الذي تخيلته ولا يزعجني حقا غير الأشغال اليومية وسط الأحجار والرمال، لكن حين عودتي للجناح إس ٢٠ الواسع أشعر بتحسن بل وتميز، ستتعجبين ربما إذا عرفت أن هذا الجناح يسمى بجناح القتلة، نعم لا ريب، وهناك بالعنبر من تورط بأكثر من ثلاث جرائم قتل فضلا عن الباقين، إن الشيوعيين يا ابنتي قوم سوء، ورغم أن الأنظمة السابقة حين اعتقلتهم وضعتهم منفصلين بعيدا عن المتهمين الجنائيين فإنهم الآن يضعوننا معهم بلا اكتراث، هل تتساءلين إذن كيف أشعر بتحسن وتميز؟! إن جناح القتلة فضلا عن أنه جناح واسع وليس به متهمون كثر فهو يظل أفضل من جناح اللصوص وصغار المجرمين الضيق المليء بأناس بلا مروءة أو شخصية، هنا أستطيع النوم والقراءة دون مضايقة، هنا أسمع قصصا تستحق السماع حقا وسوف أحكي لك طرفا منها فيما بعد، أما الآن فأرسل إليك قبلاتي... لكِ ولأبيكِ وأمكِ ولعمتيك وهم نوابي في العناية بك والحفاظ عليك يا جوهرتنا الثمينة والسلام ختام).

١٩٨٧

في الأيام التي لا تأتي فيها باولا كنت أستيقظ صباحا أتساءل هل هذا حقيقي؟ هل هذا أنا؟ أشعل سيجارة وأقف في الشرفة أتساءل كم عمري وكم عمر هذه المدينة... هل أنا من هرمت أم أنها صارت شابة غاوية؟ كان الجو صيفا ورغم ذلك فقد كان هذا موعد امتحاني الصيفي الأخير بعد أن فشلت في أن أعبره في الربيع، وحيث أنني لم أنم جيدا ولم أذاكر جيدا فقد لكت سيجارة تلو أخرى لأنفث توتري، لم أرسب من قبل فهل أرسب الآن؟ لبست ملابسي على عجل وقد أدركت أن الوقت قد تأخر ليزداد الطين بلة، كيف لم ألحظ تقدم الساعة؟ هل بدون إرادة أم بإرادة؟ هل أخاف الامتحان لدرجة أنني لا أرغب باللحاق به؟ أم أنني ببساطة لا أهتم؟! أم أنني أهتم بكل ما حول الامتحان ولا أهتم به هو! ظلت الصور تتراءى لمخيلتي، النتيجة المعلقة باسمي بين الراسبين، ضحكة أصدقاء السوء الذين يغارون مني، حزن باولا المصطنع ككل شيء فيها إلا رغبتها الجامحة، والأهم سؤال أمي الهزيل في الهاتف... ترى هل أستطيع العودة هذا الصيف؟ هكذا دخلت لمكان الامتحان كمكان احتجاز ينظر لي باقي المساجين في عجب: ما بال هذا الأخرق يأتي متأخرا، إذن سيغادر متأخرا... عام على الأقل! وحين نظرت في الورقة ولم أتذكر إلا رقصاتي في الملهى ولم أسمع إلا صوت باولا وهي تغني ثملة وموسيقى صاخبة كأنها طبول الحرب علمت أنني أيضا سأكون أول من يغادر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لأسباب لا أفهمها صرت منفرا، لقد تلفت أسناني من التدخين، بوادر صلع مبكر ظهرت عند مفرق الشعر يمنة ويسرى كما أن وزني قد ازداد بصورة ملحوظة، ورغم أن باولا لم تقض الصيف

بزغرب وكانت فرصتي للعودة لسراييفو لكني لم أفعل، فقط جلست في صالة الشقة أدخن وآكل غذاءً معلبا وأتفرج على التلفاز تارة أو أنظر للمرآة في الحائط الجانبي تارة... فكرت كثيرا في الخمر لكني حقا لم أحب طعمها، وما معي من مال شحيح، كما أنني لا زلت أنفر منها باعتبارها خطيئة، أضحك على أفكاري، إذن ماذا أسمي علاقتي الحميمية بباولا قبل نهاية دورتها وما بعدها حيث تختار أيام مجيئها بعناية، أو ماذا أسمي أنني لم أسجد لله سجدة في ذلك البيت كأنه معبد وثني، لكن الأستاذ جوزو قال يوما إن الصلاة جائزة في كل مكان لأن الله في كل مكان... حين قلت رأيي ذلك لأبي تبرم وقال:

"الله في السماء يا بني"

هل حقا لم يفهم أبي تلك الكناية وذلك المجاز البسيط.؟ هل لا يحتمل الدين أي تأويل؟ إذن علام كل ذلك الخلاف بين مدارسه، أتناول بعض المكسرات وكأنني أشاهد مسرحية تتكرر يوميا كمخمور يتكلم في الدين، لكني لست مخمورا والدين كان شاغلي لخمس سنوات على الأقل، لم أتجنب قط ذكر الشيخ جوزو رحمه الله ولا أبي، لكنني تجنبت دائما ذكر الأستاذ عزت. في الواقع أنا أخجل منه ما لم أخجله من ميت ومن رجل أملك سره، ترى لو رآني الآن ماذا يقول، هل سيشك في الحكمة الإلهية وأن وراء كل شيء سببا؟ وإلا فما كانت تلك الحكمة أن يكون تلميذه الذي يرافقه شخصا مثلي كالرمال لا تمسك ماءً ولا يبنى عليها، تمنيت للحظة لو يمكنه الاطلاع عليّ، هذا يعني أن يخرج من السجن وهو أشقى شيء قد يحدث لعقل حر، كما أن نصائحه المختصرة قد تغير حياتي التي تغيرت، أو بمعنى أدق توقفت.

كنت أعلم أن عاما طويلا ينتظرني؛ عام معاد مكرر ينبغي فيه أن أحضر ذات الفصول وأذاكر نفس المواد، لكنني متى كنت حضرت أو ذاكرت؟ إن الخوف كله من تكرار العام الماضي فهل إلى رسوب جديد؟ أذكر أنني نمت، نمت طويلا أحلم بأمي وفقط، نسيت باولا وأصدقائي الشامتين ومادة الخرسانة اللعينة وثلاثي شيوخ حياتي، فقط أمي كانت كالضياء تفتح ذراعيها بينما أخشى أن أقترب منها، كانت تناديني وكأنها لا تراني، هل كنت ظلاما أم عدما؟أريد ولا أستطيع يا أمي... لو أنك مع الله فأنا مع الشيطان لا أستطيع منه فكاكا، الآن أدركت فقط قوة الشيطان الخفية، إنه لا سلطان له لكنه فقط يسلبني المقاومة، أمي إني آسف، لا أستطيع الذهاب إلى المرحاض حتى يبدو أنني سأبول مكاني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تأتي المصائب فرادى، إن ظنك أن الأمور ستتحسن عادة يفضي بك إلى أمور أسوأ بينما حين تفقد الأمل تماما يأتي الفرج، ورغم أنني بالفعل قد فقدت الأمل والبوصلة، إلا أن ما جاء كان مزيدا من الهم، لم ترسل لي أمي بريدا من قبل، ولا أذكر في الحقيقة أنني أخبرتها عنواني التفصيلي، ربما حدث ذلك عرضا ذات مرة وهي دونته في ذاكرتها... ذاكرة أم لا تعبأ بشيء قدر عنوان ابنها الوحيد الذي لا يعبأ بها، لم أتصل بها منذ شهر لكنّ بريدا منها وجدته بين طيات باب الشقة الذي لم أفتحه منذ أسبوع أثار شوقي وهلعي، على عجل فتحته فألقيته وألقيت نفسي أرضا أبكي رغم ظني استنفادي مخزون الشعور والدموع، هل هذه نهاية الحاج فضل الله؟ هل انتهت حياة أبي على الأرض ولم تخبرني السماء على الأقل! لم أفكر قط أن ذلك قد يحدث بل أحيانا تخيلت موتي وكيف ستبكي أمي

وسيكتم أبي تأثره ورغم منطقية دفن الابن لوالده فأنا من ظننت دوما أن أبي من سيدفنني بل وسيخطب في الحضور عند قبري مذكرا بثواب الله وعقابه... ترى هل سيثيبك الله أم سيعاقبك! كنت متقلبا دوما يا أبي حتى خيل إليَّ كثيرا أنك عدة أشخاص، أنت في البيت غير العمل، في الماضي غير الحاضر، مع أمي غير مع ماريا، ماريا! أي مصيبة تلك هي الأخرى، كيف ستعرف أمي حول الأمر وكيف، لن تلعنك يا أبي لكنها لن تترحم عليك، والمحل من سيديره والثروة كيف تقسم، وكيف نعلمها وأنت يا أبي خشيت البنك دوما والخزينة كذلك واكتفيت بكوة في الجدار تحفظ فيها أموالك، ترى هل هنالك كوة أخرى في جدار ماريا؟ فكرت في أن أرحل مباشرة ثم قررت الاتصال أولا، جاء صوت أمي ضعيفا فأجهشت بالبكاء وهي تهدأ من روعي:

"آسف، آسف يا أماه... سآتي حالا، سآتي"

"لا عليك، لقد اتفقت أنا وماريا على كل شيء"

"ماذا؟"

هل كانت أمي تعلم بأمر ماريا إذن كل ذلك؟! هل كنت أنا آخر من يعلم وظننت أنني أول من يفعل؟! هل كنت بتلك السذاجة حقا؟! هل أوكلوا إدارة المحل لابن أخيها بالفعل ولم أخطر قط ببالهم؟!

"أنت مشغول بدراستك"

حقا؟ أم أنهم وجدوا أنني لا أستحق فرصة لتحمل أية مسؤولية، كدت أن أصرخ: أنا لست طفلا ولا مراهقا سخيفا ولا شابا فاشلا. أنا الوريث الأول ورأيي هو ما تؤول إليه الأمور، لكنني لم أستطع، نعم لعلهم محقون، أنا لا أقوى حتى على الصراخ، ولا أقوى على المغادرة لسراييفو من الأساس، أغلقت الهاتف سريعا وأمسكت بسيجارة أتنفسها على مهل، ثم مددت يدي للسماعة ثانية... وهذه المرة اتصلت بباولا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة من سابينا عزت بيجوفيتش:

(لا أدري يا أبي إن كنت مررت بهذا الشعور من قبل، ولكن بالنسبة لي فإنني أشعر به مع هبوط الظلام وأبحث حينها عن شيء يشغلني لكي أنساه ويختلط في بعض الأحيان الشعور بالحزن مع الشعور بالخوف والوهن الجسدي، ويبدو أن كل مخاوفي وشكوكي وأحزاني قد اجتمعت في هذا الشعور الغريب وأدركت حينها أن تلك هي الحالة الذهنية التي يقرر فيها العديد من الناس التوجه إلى الكحول أو المخدرات كي يتعدوا تلك المرحلة، إنني أخبرك بذلك لأنني أريدك أن تعلم أنني أعرف وأدرك هذا الشعور ولو جزئيا، وأنني أستطيع أن أتخيل شعورك ويزيد السجن بالطبع من صعوبة الأمر، ما يجب عليك هو أن تقوم بشيء مسل حينها، تقرأ شيئا خفيفا أو تشاهد التلفاز لأنه ليس شيئا حميدا أن تستسلم لهذا الشعور، وكما ترى ها أنا لا أحاول أن أنظر عليك لكني فقط أحاول أن أخفف عنك، فحقيقة ما أنا أرغب به فعلا في تلك الأوقات هو أن نجلس سويا في بيتي نحتسي القهوة، ولكن أنت تعلم أنني أفكر فيك دائما وخاصة عندما يأتي المساء!).

١٩٨٨

حين التقيت بداوود عرفته ولم يعرفني، أخبرته أنني رأيته في نفس المكان وذات المطعم منذ عامين بل ثلاثة، أخبرني أنه لا ينسى ومع ذلك لا يذكرني. أخبرته أنني نفسي لا أذكر ما كنتُ أنا عليه وسألته عن توقعاته لما بعد حرب أفغانستان التي كان يتحدث عنها في ذروتها، تعجب كثيرا والتهم معلقة من الأرز وقال بفم ممتلئ:

"هل حقا تهتم لذلك؟"

"ولم تفترض أنني لا أهتم؟"

ركز على بصره لفترة:

"عيناك... عيون زائغة تبحث عن نفسها، حمراء تبحث عن راحتها أو معذبها، لا أظن أن للأمر علاقة بأفغانستان لو شئت رأيي".

سكتّ وسكت وسادت لحظة صمت إلا من صوت المضغ، بينما كان المحل خاويا تلك الساعة، أردف يقول:

"اعذرني يا صديقي. لم أقابل كثيرا شخصا لا أعرفه ليسألني عن توقعاتي لحرب، لستُ سياسيا ولستَ أنت صحافيا ولولا هيئتك لظننتُك مخبرا، أعتبرك تائها في بلاد غريبة تبحث عن نفسك أو عن شيء تحتاجه نفسك"

"هو ذاك"

"إذن عمّا تبحث؟"

"أنا منازع بشدة بين هوى نفسي وحياة أخرى فيها ما أؤمن به"

"إذن يخالف هواك إيمانك؟"

"ظننت ذلك طبيعيا"

"طبيعيا لغير مؤمن... هناك فرق بين نفس أمارة بالسوء ونفس تعرف أن النفس أمارة بالسوء، ألا تعرف زليخة؟"

"ماذا تعني؟"

"حين أغوت زليخة النبي يوسف كانت نفسها أمارة بالسوء وحين تابت وسجل القرآن ذلك كان عن طريق أنها علمت تلك الحقيقة، أما النبي فيقول لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".

أعجبني كلامه والأهم حقيقته، تذكرت طرفا من كلام الأستاذ حول أن لكل كلام حقيقة قد تكون موافقة له أو مخالفة، قلت له:

"لا أصدق أحيانا ما كنت عليه وما صرت عليه، كأنني عدة أشخاص يعيشون حياة واحدة"

كان قد أنهى طبقه وبدأ يستمع إليَّ باهتمام فاستطردت:

"قلتَ إنني تائه وأبحث عن نفسي لكن الأصح أنني تائه في نفسي، أنا لا أعرف من أنا"

"لو تركت نفسك للدنيا فلن تعلم أبدا أين شاطئك. ستلعب بك كما يلعب البحر بالسفن وسترسى كل يوم على جزيرة مختلفة".

"إذن ما الحل؟"

"أنت من تحدد ميناءك، أما الهوى الذي يبعدك عنه فتقاومه بإيمانك بمينائك"

لماذا يتكلم هذا الرجل بتلك الطريقة... هل هو يحفظ هذا الكلام أم يتكلف فيه؟! لكن بدا عليه التلقائية، هو حقا يعتنقه، ابتسمت وقلت:

"عندك حق. كيف لنا أن نبدأ جلستنا دون تعارف... اعذرني، أنا عمر فضل الله، من سراييفو وأدرس الهندسة... وأنت؟"

"داوود خسرو، من سراييفو كذلك لكني أدرس العلوم العسكرية"

ابتسمت وأنا أشير لعضلات ساعديه:

"إذن هذا يفسر الكثير!"

"بل لا علاقة له بالأمر، كما أن دراستي للعلوم العسكرية مثلا لا علاقة لها بأنني أصيب أهدافا متحركة من مسافة مائة متر، حقيقة الأمور تختلف دائما عن مظهرها. لا تنخدع وإلا لظننت أنني أمام مهندس آخر... هل أنت كذلك؟"

"في الواقع لا، أنا فتى راسب أحاول تخطي السنة الثالثة"

"هل هذا سبب تخبطك؟"

"بل نتيجته... كما قلت لك لي ماض فاضل وحاضر خاطئ وظروف متقلبة"

"وما خطتك للمستقبل؟"

"حتى الآن أنتظر على أي جزيرة سوف ترسلني الدنيا"

"قد تكون الجزيرة القادمة مناسبة لكن أنت من لست بجاهز!"

ظل كلامه يتردد في ذهني حتى بعدما تركت المحل وافترقنا وأنا أتمشى إلى الشقة البعيدة، لكن مع ذلك لم تسعفني المسافة كي أدرس كل أفكاري، لقد استرجعت كل شيء حتى خيل إلي أنني قد استرجعت ولادتي، كل ما قرأت يوما وكل ما شاهدته عرضا على التلفاز، هناك شيء لا أستطيع فهمه... حبكة الكون لا أستطيع حلها لكن هناك حبكة... كذلك قصة حياتي هناك راوٍ لكن لا أفهم قصده، كالقصص البوليسية، كل تفصيلة موضوعة بعناية لكنك لا تفهمها في وقتها إلا لو كنت أنت المحقق الذكي وإلا ستعتبرها تفاصيل عشوائية، هل الحياة مخططة بعناية أم عشوائية تماما، للأسف لن تعرف إلا قرب النهاية، سأحاول أن أكون محققا ذكيا، سأعود لطريقي المرسوم وقضيتي،

سأصلي... سأصوم... سأقاطع الدخان... سأذاكر... سأكلم أمي يوميا وأطمئنها... سأهتم لأمر البوسنة وأرسل الزهور لأستاذ عزت لكن بشرط واحد يا كاتب القصة: ألا أُحرَمَ من باولا، أرجوك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقال إن فهم النساء من الصعوبة بمكان، لكن هل باولا من النساء؟! هل ينطبق عليها قوانين البشر، ماذا إذن عن قانون السن؟ فتاة في بداية العشرينات وناضجة كثلاثينية وغضة كمراهقة، تحكمت برجال يكبرونها ويصغرونها ولم يتحكم بها أحد بدءا من أبيها لأخيها لعاشقيها الكثر وعشيقها الوحيد أو هكذا تزعم، كان أنا الذي لا أفهمها رغم أنني لم أجالس أحدا مثلها. بت الليالي الطوال في أحضانها تحت غطاء واحد أو على كرسي قريب أتأملها تحت الغطاء وفوقه ما أخفي وما أظهر، فتحت لي كل شيء لكن عقلها ظل لي مغلقا، خطواتها دائما غير متوقعة، نزواتها متقلبة، تغيب بالأسابيع وتكمن بالأيام، حب شديد فتجاهل أشد... هي الطرف الأقوى دائما ومن يحدد في أي حالة نحن دائما، وهي تتعمد هذا بل تستمتع بهذا وإظهاري التبرم أو السعادة يعجبانها على السواء، بماذا يمكن عقابها؟ هي تعلم... لا شيء! هل يستطيع من عاشرها أن يستغني عنها؟ إنك قد تمل صورتها، تتعود لمستها لكنك أبدا لن تتحمل غياب جموحها، باولا هي الحياة التي تتمنى أن تعيشها، مغامرة غير محسوبة لا تنتهي أبدا، لو كنت عجوزا تجعلك شابا ولو كنت شابا لصرت طفلا. كل شيء بها حيوي تماما، صوتها الحاد، شعرها الطائر... رشاقتها في الحركة والسكون... أفعالها وردود أفعالها... حصان بري يأخذك إلى براري تتوق لتراها ثم يتركك فلا تملك إلا أن تنتظره كي يعود بك، لكن أحسب أنني تهت بالفعل وهي تتعمد ألا أعود، وكلما حاولت الخروج وحدي صهل الحصان ووقف على قائمتيه متوعدا، إما أن أغرق في بحرها أو أموت عطشا بدونها، لم تكن تلك الجنة يا باولا، إنها النار... تقول لي:

"عدت إذن للمذاكرة؟"

"الامتحانات قريبة"

"أقرب مني؟"

"أنت الأقرب... والأصعب"

"وأنت صرت أبعد"

"لا أستطيع عنك بعدا... أنتِ من تفعلين ولا تكترثين"

"أنا أستحق لكنك لا تستحق"

تقولها بغنج لكني أعلم أنها تظنها بصدق، غرورها مفضوح وهو في محله، تغادر ولا تعود. أنشغل في الامتحانات، أفتقدها لكني أتماسك، سأركع أمامك لكن بعد غد... لأنني لو لم أنجح في الغد فلن يكون ثمة بعد غد، لكنها تقرر العودة تلك الليلة، أترك كل شيء وأنام في حضنها كرضيع وجد أمه، نصحو الليل بكامله ولا أستطيع النوم بعد الشروق كي لا يفوتني الامتحان وفي حالة بين الصحو والمنام أسمعها تقول وهي تداعب شعري:

"لا أعتبرك طالبا في معهد الهندسة بل راهبا في معبدي، والهندسة تقبل الشركة ولكن أنا لا أقبل!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة من ليلى عزت بيجوفيتش:

(والدي العزيز، إن زياراتنا لك في السجن تمر كلمح البصر، فلا نكاد نبدأ ما نريد قوله حتى تنتهي، إن هذه سنين طويلة أكلها الجراد كما يقول بيكتش، لكني أذكر بكل ود ذكرى محادثتنا الأخيرة أمام محل البقالة لو تذكرها، سوف أحاول أن أربط ذكرى تلك اللحظة بالانتظار الطويل الذي تلا ذلك ولكني أعلم أننا سنقوم بتقسيم الحياة دوما إلى ما قبل المحاكمة وما بعدها، أما بالنسبة لهذه اللحظة فأعتقد أننا سنتجاوزها صدفة).

١٩٨٩

جلست في مطعم البوسنيين أنتظر، من الشباك أنظر للناس، الزحام قد ازداد... والفقر والغضب... البلاد تشتعل ببساطة والأعلام العرقية صارت ترفرف دون ردة فعل من السلطات اليوغسلافية، في يدي ورقتان هما خلاصة ما خرجت به من تلك السنوات الخمس، أتأملهما وأتساءل هل حقا استحقا تلك الفترة؟! الغريب أن الورقة الأولى التي هي شهادة تخرجي والتي تبدو أهم بما لها من صيغة جميلة الخط وأختام كثيرة للتوثيق، حصاد تعب دراسة أربع سنوات وازدادوا سنة، الغريب أنني لم أقرأها إلا مرة واحدة بينما تلك الرسالة سيئة الخط المكتوبة على عجل بحبر يكاد ينمحي فقد قرأتها مرات ومرات، كانت رسالة باولا الأخيرة كما أسمتها. مقتضبة عقلانية تتظاهر بالرومانسية، وتبا لهذا المزيج، كنت أشعر نفس شعوري حين ودعت المعسكر وودعتني للأبد أيضا وقتها كما قالت، أشعر كأنني قضمت قضمة من تفاحة قبل أن تسقط مني في النهر... اشتهاء مضاعف... ندم... غضب... ورغم أنني أربع سنوات كانت كافية لأتذوق باولا بكاملها ماديا ومعنويا إلا أنني لم أشبع منها قط، لم تكن باولا شخصا خارجيا. هي جزء مني، هي تمثل جانبا ما في نفسي، إن مشاعر ما نمت بها ومن أجلها، وفقدانها يعني فقدانها، سأعيش أبتر من ذلك الوجدان ولن يملأ مكانها أحد، أؤمن بذلك إيماني بأني يجب أن أتخطاه، إيمانا مساويا له في القوة مضادا له في الاتجاه. سأظل في تلك اللحظة الحرجة، ذلك الشعور الممض... هل هو للأبد؟ هذا يتوقف إذا كانت باولا صادقة هذه المرة في توديعها لي للأبد، لا كسابقتها، وحين جاء داوود انطلقت إليه، احتضنته، كان يتذكرني هذه المرة وقال لي:

"ماذا قررت هذه المرة؟"

"سأوجه أنا السفينة، إلى جزيرتك حتى لو ينقصني شراع!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة من عزت بيجوفيتش:

(أي ياسمينا.. أكتب إليك الآن رغم علمي أنني سأراك أخيرا بعد أيام، كتبت إليك كثيرا عن أشياء كثيرة لكن ربما كلها لا تستحق أن تحتفظي بها ولو على سبيل الذكرى، إن أيام السجن لهي أيام للنسيان وذكراها لن تكون سعيدة أبدا، أما الآن فأنا أكتب إليك وقد وقعت توا على خطاب العفو عن إكمالي مدة سجني، وليس هذا أيضا ما أريده أن يكون درسا ويبقى للذكرى، فمنذ عام ونصف أتت

عمتاك لتخبراني أن العفو عني مشروط باعتذاري حينها، ولقد رفضت والآن جاء العفو دون قيد أو شرط، الدرس الذي أريدك أن تعرفيه والذكرى التي أرجو أن تعلق بذهنك دائما هو أن عاما ونصفا في السجن خير من سنين طويلة من حرية مطأطِئة الرأس... أي حفيدتي، يا ذات الخمس سنوات، أعرف كم كلماتي صعبة كي أقولها لك وأنت في براءة الزهور لكن يوما ما قد تحتاجين لهذه الكلمات، أما الآن فسأستعد جيدا لملاقاتك في أفضل صورة، إني عجوز ولكن ليس كما يبدو لي الآن في المرآة، لو كان السجن قد ضاعف عمري فلابد أن الحرية ستكون معين الشباب، إلى اللقاء المنشود).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هامش

قال عزت وقد أقعدته الممرضة وكشفت عن ذراعه باحثة عن القناة المثبتة بالوريد لإعطائه محلولا معلقا جاء وقته:

"لم أعرف عمر بالفعل حين أتاني مبايعا الحزب، قد تغير كثيرا... كان هذا بعد عدة أيام أصلا من الفكرة وكان اجتماعنا مصغرا من مجموعة المؤسسين ومعظمهم من الكهول والشيوخ"

لكن طرقات الشاب على الباب جعلتنا نتوقف في انتظار معرفة الآتي، كان عمر فور عودته من زغرب وقد قال لي:

"أتيت من زغرب تاركا شهادتي هنالك، سأنذر نفسي في خدمة البوشناق"

كانت العجوز منهكة من الكلام ربما أو من التذكر ربما، لم تنطق للحظات قبل أن تقول فجأة مستفيضة في الوصف والحركة:

"لا زلت أذكر هذا الصباح الذي أشرقت فيه الشمس ثانية على عجوز مثلي... حضرت قهوتي التي أفطر على رائحتها وجلست على الكنبة العثمانية التي تذكرني بمثيلتها الأصلية في بيتنا القديم، وما أن فتحت التلفاز حتى وجدتك! الكاميرا مسلطة عليك وأنت في منتصف خطاب ما... لم أعرفك في البدء لكنني عرفت أني أعرفك، ولم أكن بعد رأيت عينيك المختفيتين وراء عوينات وتنظر في أوراق الخطاب، لبست عويناتي بدوري عسى أن توضح لي المزيد، بدوت غير متمرس ولا متوازن بين نظرتك للأوراق ونظرتك للكاميرا، بل في الحقيقة لقد كنت تنظر لكاميرا غير التي تنقل الصورة فبدت نظرتك منحرفة قليلا لليمين، انشغالي بالنظر أنساني السمع فلم أعلم فيم كان حديثك؟ وحين أنهيت خطابك وخلعت نظارتك عرفتك ولم يكن هذا قمة عجبي وخوفي إذ بعد لحظة لمحته، كان عمر".

ابتسم عزت ناظرا للسقف:

"كانت تلك بدايات الحزب الأولى، أظن إذا لم تخنّي الذاكرة كان هذا مؤتمر الهوليداي إن، حيث إعلاننا الأول عن الحزب، بعد عام واحد من خروجي من السجن، أذكره جيدا فالحياة بعده ليست كقبله".

تنهدت أديلسا في حسرة وهي تقول:

"كان ذلك للملايين كذلك... فحزبك لا ريب هو أحد الأحزاب الفاعلة في الحرب، أي أنه شارك في مأساة ملايين البشر"

تغير وجه عزت وبدا كأنه يصرخ محركا يديه:

"ماذا تقولين؟ وكأنني أسمع خطابا من زعيم غربي يتعامى عن الحقائق ويساوي الجاني بالمجني عليه، المعتدي بالمدافع عن حقه".

ساد الصمت الطويل لدقائق... كانت نظرة السيدة بين حسرتها ومفاجأتها من خروج عزت عن شعوره لكنه عاود الكلام معتذرا عن غضبه المفاجئ:

"آسف أنا... أنا لا أقصدك أنت ولا يمكنني لومك، ربما نحن المخطئون ولم تكن نوايانا واضحة بما يكفي لتجيب على معضلة كتلك".

"علام تعتذر وبماذا يجدي اعتذارك، ألا تلاحظ أنك لم تسألني حتى الآن ماذا أريد؟! ما هدف تلك الزيارة الطويلة؟كان الهدف السؤال وليس الإجابة"

هز رأسه منتظرا إكمالها فقالت:

"لقد تعلمت أن القدر لا يتغير، لا يمكن إثناؤه عمّا يريد، لكن فهمه ممكن ومراجعته بتأنٍ قد تورث الحكمة، إن اللحظة التي اختلفت فيها حياتك عمّا قبلها وأنشأت حزبك لم تفقد أنت روحك لكن فقدها الآخرون... هل يا ترى فكرت للحظة ماذا لو لم تكن أنت موجودا؟ ماذا لو كان للبوسنة زعيم آخر؟ ماذا لو لم يولد حزب العمل الإسلامي في البوسنة؟".

كانت نبرتها تحتد رغما عنها ومع سؤالها الأخير بدا صوتها مرتفعا قليلا ودخلت الممرضة ثانية من فورها تسأل عما هنالك وترجو إنهاء الزيارة لكن عزت ابتسم بهدوء وكأنه قرر أن إطفاء النار يكون بالماء ليس بالنار، وأشار للممرضة أن تجلس وقال:

"اسمحا لي أن أحكي لكما قصة قصيرة، قصة حزب العمل الديمقراطي".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزت

كان الجو حارا رغم الربيع، ربيع عام ١٩٩٠، بل حين نظرت لمن جواري رأيت تشينجتش وشابتش يمسحان عرقهما... لعل مكيف الهواء في فندق الهوليداي إن لا يعمل جيدا أو أننا من أصابتنا الحمى، كنا متوترين للغاية ولقد عارضني الكثير حين أوحيت إليهم بفكرة هذا المؤتمر الصحفي، بل قال أحدهم:

"أنت مجنون! أنت تلفت نظر السلطات"

"هم يعلمون بنا"

"لكنك الآن تجبرهم على رد الفعل بدلا من التزام الصمت"

"أليس جيدا أن نعرف مبكرا نياتهم؟"

"هل يوحشك السجن دوما؟"

"أيهما تقصد؟"

قلتها ضاحكا فكتم غيظه لكنني على أية حال أقنعت الجميع وها نحن ذا، طلبت من الجميع السكوت وبدأت مباشرة:

(نحن الموقعين أدناه ونحن نواجه الأزمة الاجتماعية في يوغسلافيا والتي ليست أزمة اقتصادية فحسب بل أزمة سياسية وأخلاقية، وحرصا منا على أن نرى يوغسلافيا مجتمعة من الشعوب والقوميات ورغبة منا في تحقيق مصالح جميع مواطني الدولة وبشكل خاص مصالحنا نحن كمواطنين منتمين للمجتمع المسلم ثقافيا وتاريخيا، فإننا قد قررنا تشكيل حزب العمل الديمقراطي ونعلن مبادئنا الستة عشركما يلي:...)

وكذا سردت مبادئنا التي توافقنا حولها مع تفصيل لبعضها، كنت أنظر بين الحين والآخر، أنظر لوجوه المتابعين وأغلبهم صحفيون كما يبدو وكما يجب. لكن كنت ألاحظ بعضهم لم يكتب كلمة ولم يدون حرفا إلا في مواضع معينة، فكنت أبتسم بركن فمي، هؤلاء لا شك مخبرون... أما ما أثار عجبي حقا كاميرا تلفزيون سراييفو، هل حقا لبّوا الدعوة؟ لم أتخيل قط هذا الصدى وهذا الاهتمام، في الواقع إنه يدعو للريبة... وفيما بعد علمت أن هذه كانت استراتيجية السلطات في مواجهتنا، التشويه المبكر لوأد الفكرة وكأن الحمقى لا يعرفون كم يكرههم الشعب وسيحب أعداءهم، جففت عرقي وانتظرت أسئلة الصحفيين ومكائدهم، هل سيسألونني حول معنى الديمقراطية أم معنى الإسلامية أم العلاقة بينهما؟! كنت قد حضرت إجابات سريعة لأسئلة كتلك متوقعة، لكن كان السؤال الأول مفاجئا... صحفي من بلجراد تابع لمجلة متخصصة قال:

"هل ستسعى للانتقام سيد عزت ممن أرسلوك للسجن إذا وصلت للسلطة؟"

ترددت قليلا ليس لأن الجواب غير واضح بل لتعجبي من كون الأمر يحتاج لسؤال، هل حقا يظن بي أحدهم أنني سأنتقم؟ هل يظنوننا مثلهم؟ هل يعتقدون أن ما يحركنا حين أنشأنا حزبنا مجرد دوافع شخصية؟ ثم أنني أعدْتُ السؤال ثانية على نفسي هل سأنتقم... تمثلت للحظة المحاكمة أمام عيني واسترجعت القسوة التي شعرت بها على مدى أيام طويلة لكنني استعنت بالصبر وبتنهيدة طويلة ثم قلت:

"كلا يا بني، لا انتقام مهما كان ما تعرضنا له من ظلم"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(إنني أحب يوغسلافيا لكن لا أحب حكومتها، أنا أكرس كل حبي للحرية ولا حب لي للسلطات، إنني مسلم وسوف أبقى مدافعا عن قضايا الإسلام، لأن الإسلام بالنسبة لي هو معنى آخر لكل ما هو جميل).

كان يوما حارا هذه المرة بالفعل، فقد كنا في منتصف أغسطس لكن قبل ستة أعوام أي في ١٩٨٤، وكان قد طفح الكيل والقلب فجاد بما قلته غير عابئ بالحكم المنتظر، لطالما اعتبرنا هذه المحكمة صاحبة قرارها وخاطبنا ضميرها ولم نحاول إغضابها وخاطبناها بالحق والبرهان بينما خاطبها الادعاء وشهوده بكل ما هو كذب بين وشهادة زور متهافتة، وكانت الكفة دوما لصالحهم وها نحن في يوم النطق بالحكم نعلم يقينا أننا بريئون ونجزم بنفس اليقين أن لن ينال أحدٌ منا البراءة، لسنا نحن وفقط بل الجميع بما فيهم الحضور والغياب، المؤيد والمعارض، الصحف والتلفزيون، فأي عدل ينتظر إذا عُرفَ الحكم قبل نطقه..كان أملي الوحيد هو ألا ينهشني السجن سنينا طويلة بل إني لمحت للقاضي عدة مرات أنني سجنت من قبل حين كنت جذعا بما فيه الكفاية، لم تكن ذكرى سجني الأول تغيب عن ناظري لكني كنت أعلم وتبعا لطبيعة الأمور أن الذكريات تزيل بعضها وأن سجني الجديد هو ما سيعلق في ذاكرتي حتى موتي. إذا لم أسجن مرة ثالثة وإذا لم أمت داخله، وهكذا طافت أفكاري مسلية إياي حتى بدأ القاضي، نطق الأحكام وبدأ بي قبل باقي المتهمين.

"علي عزت بيجوفيتش، ١٤ سنة مع الأشغال الشاقة"

نطقها كأنه ينادي على أحدهم وطفق يكمل مناداة لباقي زملاء المحاكمة لكني لم أستمع جيدا وقد كنت مشغولا بالتظاهر بالثبات، أنظر لأعلى ولا تلتقي عيناي بابني أو ابنتي أو صحفي ماكر قد يرصد خلجة هنا أو دمعة هناك، ١٤ سنة! تحكم على من يطالب بالحرية بالسجن هذه المدة في هذا السن ومع الشغل في تهمة ملفقة تعرفها جيدا، هواجس كثيرة دارت ببالي، خيالات لا تنتهي لعذاب لا ينقضي في انتظاري... ثم أبنائي ما بالهم وذنبهم، إنهم قد بلغوا ما فيه الكفاية وكنت أفضل أن يرثوا موتي ثم ينسونني على أن يحملوا همي كل تلك المدة، نظرت إليهم بطرف عيني وكان ما توقعت، رؤوس منكسة وأجسام مرتعدة... يا الله... لم أفقد قط الإيمان بك ليس لأنني قوي بل لذلك أنا قوي، إنها إرادتك والإيمان بها من الإيمان بك،كما أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وحين انتهى القاضي من تلاوة قرآنه المزيف متضمنا أحكامه غير الحكيمة انطلق في خطبة رعناء زيلها بقوله:

"إن هذا المجتمع سوف يحارب بشدة كل الهجمات على الوحدة والأخوة وكل منجزات هذا المجتمع!"

وانطلق الحضور في التصفيق، الحضور الذين انتقوا بعناية للدخول ومنع غيرهم من الحضور، ترى علام يصفقون؟! أحكام تؤكد عدم الوحدة؟ أم منجزات لم نسمع عنها إلا في خطاب السيد القاضي؟بدأ الجميع في الحركة للخروج... فعلها القاضي أولا بعد أن أنهى مهمته ثم الحضور ثم نحن المتهمين الذين تحولنا إلى مساجين، اقتربت من زاوية القفص لعلي أسلم على بكر وليلى وسابينا، مددت يدي ومدوا أيديهم. تشبثنا ببعضنا وكأن طاقة تنبعث من أيدينا إلى أرواحنا. لم ينطق أحدنا ببنت شفة، فليس هناك ما يقال، إلا ما قاله بكر أخيرا بعد أن صارت المغادرة واجبة، بأمر المحكمة قاضيها وجنديها

"بالأمس ولدت ياسمينة يا أبي..."

حلمت ساعتها برؤية ياسمينة ولم أحلم قط بالانتقام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الأمور واضحة وأنا من أسأت التقدير، انهارت الشيوعية في بداية العقد الأخير من القرن العشرين وظننتها قد تكمل حتى نهاية القرن ببعض الليونة والارتخاء، لكن الشيوعية تأبى الحلول الوسط حتى مع نفسها، انهار جدار برلين ومعه انهار كل جدار مماثل في كل شعب تحت الحكم الشيوعي بل كل فرد في داخله انهار خوفه، لكن إذا تحدثنا عن يوغسلافيا هل هناك شعب يوغسلافي؟ أم هناك ستة شعوب على حافة الفوضى بفعل حرية مفاجئة؟ إن قيادة الجماهير من الصعوبة بمكان ولم أظن بنفسي قط صلاحيتي للأمر لكنهم قالوا لي أنت الأفضل، إذا كنت الأفضل فما حال الآخرين إذن، لكني قبلت بينما رفض آخرون كمحمد فيليبوفتش المثقف الكبير وقبله آخرون لكن في جغرافية ليست البوسنة كسالم سابتش في كرواتيا الذي بنى مسجد زغرب الكبير، كان طموح الحزب ليس مقتصرا على البوسنة بل للم شمل المسلمين في كل أنحاء جمهوريات يوغسلافيا الست، بل وجمع شمل البوشناق في العالم أجمع، وكان التقدم مذهلا والمقاومة منعدمة، فبعد بياننا الأول بشهرين انعقد مؤتمرنا التأسيسي وكان الحضور يملأ القاعة، نواة الجمعية التأسيسية قد تكونت إذن ونحن على مشارف الترشح لانتخابات البوسنة. وهنا بدأت البيان بالبسملة دون تردد، فقد كنت أرجو من الله أن يعيننا فعلا،كما أنها كانت أوضح إشارة على حرية قادمة تذكر الله في نظام دستوره أن لا إله... وقد أشرت لانهيار ذلك النظام حين قلت أثناء البيان:

"إن المحاولة لخلق فردوس على الأرض دون تدخل الله ومن ثم الإنسان قد باءت بالفشل... لقد كانت محاولة في حقيقتها ضد الله وضد الإنسان"

بكى البعض تأثرا... كثيرون عاشوا عقودا يحلمون بتلك اللحظة وكثيرون يئسوا تماما أن تأتي، كان الحضور متنوعا ومن كل مكان ومن كل قومية، الكرواتي من البوسنة والبوشناقي من أوروبا والأهم كان حضور عز الدين باشيتش والذي لم يعجبه الكثير مما قلت ومع ذلك انتخِب نائبا لي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ذو الفقار باشتش على النقيض مني تماما، في صفاته الشخصية وأساليبه الإدارية ومطامحه الحزبية غير أن ما أحزنني كان فقط احترامي له وعدم احترامه لي، إن هذا الأمر يتكرر كثيرا على مستوى أوسع وربما على مستوى الفكر نفسه، فكما أن العلمانية تحمل في طياتها عدم احترام للأديان كذلك يفعل معتنقوها مع المتدينين. ظننت الأمر مختلفا هنا وخاصة أنني رئيس الحزب وهو نائبه لكنه

كان يحتمي بأمواله وما توظف من تابعين، إن تيار باشيتش في الحزب معروف لكنه لا يمتد البتة لقواعد الحزب وقد أخبرته مرة بصراحة:

"لا تنظر إلى من يشايعك في القيادة والإعلام، الأهم هو آحاد الناس من الحزب والشعب"

لم يتفهم ذلك وربما سخر منه حينها لكنه بالطبع لن يفعل حين ظهرت نتيجة الانتخابات بهزيمة منكرة، كان يضيق بأي مظهر إسلامي سواء بين الأفراد أو في الخطابات حتى أنه اعترض على البسملة التي أبدأ بها دوما كلامي مستعينا بالله، وحين قام بعض الشباب المتحمس بترديد أهازيج إسلامية أصابته الفوبيا، كان يعتمد فقط في تنظيره على جماعة البوشناق لا جماعة المسلمين، هذا لا بأس به واعتمدناه أيضا لكنه لا بد أن يعرف أن هوية البوشناق تشكلت على عدة أسس منها الإسلام وفي أواخر سنوات تيتو وحين تم عمل إحصاء سكاني مع سؤال عن الهوية اختار تسعين من المئة من البوشناق الاسم كمسلم وليس بوسني. إن البوسنة أوسع في كل الأحوال من قومية البوشناق والمسلمين لكن حين نضع حزبا جامعا وبالمنطق البرجماتي البحت لا بد أن نختار جامعا قويا يشعر به الناس بل ويشعر به المتنافسون، إن الكروات والصرب لم يكفوا عن اعتبارنا أتراكا لأننا مسلمون ولم ينادونا يوما بالبوشناق. ناقشته كثيرا في ذلك وناقشني وأخبرني أن علينا التوجه لأوروبا لا للشرق، أن نتوجه للسفينة الكبرى السريعة التي تمخر العباب لا القوارب المتهالكة الراسية على الشواطئ وتلك السفينة لن تقبل المسلمين، خطر في بالي أن التيتانيك هي من غرقت ذات يوم ومن نجا منها نجا على متن قوارب، لكن أليس ما قاله خير ادعاء ضده؟ إذا كانت أوروبا لا تقبل الأوروبيين لأنهم مسلمون فإن ذلك من صراع الهويات وله جذوره المسيحية وظلاله الملحدة، باختصار أنت إذن تطلب الانسلاخ من الإسلام بل وإعلان ذلك وإلا ما قبلونا، وحيث أن ذلك مستحيل فرديا قبل أن يكون جماعيا فالحل إذن هو المقابل وليست العصا من المنتصف. إنها عصا بلا وزن... غير أن الأمر انقلب شخصيا بعد فترة وجيزة، ما عاد يهمه هوية الحزب أو فكري، بل يهمه شخصي وهزيمتي... لا زلت أذكر يوم انقلابه الأخرق، كنت في مكتبي وأتى من أخبرني بأنه أعلن وشلته قيامهم بمهام قيادة الحزب، هكذا! دون رجوع لأحد أو أي إجراء، قررت الصبر بل محاولة التهدئة لكن سرعان ما أحاط بمنزلي العشرات من أبناء الحزب وحملوني على ظهورهم ودخلوا بي إلى مقر الحزب عنوة لألقي بيانا جديدا، ولا شك أن التصفيق هذه المرة كان دويه أعلى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن المقولة بأن التعصب أعمى لا دين ولا وطن له صحيحة تماما ويبدو ذلك بوضوح في طريقة تعامل أناس مختلفين مع قضية واحدة، فعلى الرغم من التناقض التام بين الصرب والكروات في كل شيء والأهم كراهيتهم الواضحة بعضهم البعض إلا أن كليهما كان ينظر للبوسنة نفس النظرة، غنيمة سهلة... زهور زرعها الرب لهم، هم صرب مسلمون أو كروات مسلمون، المهم أنهم جزء لا يتجزأ من أرضهم دون مراعاة لأي طبيعة تاريخية أو سكانية، كنت أواجه دوما تلكم الكلمات في أي مؤتمر أعقده خاصة خارج البوسنة حيث الحرية مفتوحة للجميع ليعبروا عن حقيقة ما يعتقدون في دواخلهم، وقد كنت أتعمد مواجهة الجاليات الصربية والكرواتية والرد عليهم بكل هدوء، البوسنة مختلفة ويمكننا التعايش بكل ود داخل إطار يوغسلافيا أو خارجها، لكن كانت الردود تشي بأنه لا أحد يسمع إلا نفسه، ولقد هددونا بالذبح بطريقة غير مباشرة فذات مرة قال لنا أحد الكروات:

"هل أعددتم العدة العسكرية لمواجهة التشتتيك الصرب؟لا لم تفعلوا، ولهذا معنى واحد، أنهم سيذبحونكم عند نهر درينا!"

ودعوني أعترف أن التعصب كان يمتد للبوشناق أيضا، فمثلا حين أحيينا ذكرى مذبحة فوتشا وهي أكبر تجمع لقتلى المسلمين في الحرب العالمية الثانية ألقى الجمع اللوم على الصرب جميعا دون تمييز لكني أقنعتهم أن نضع الزهور أيضا على قبور قتلى الصرب، لكن ولسوء الحظ كان كل ذلك مثاليات غير ذات جدوى، وأدركت أن الأمور يجب أن توضع في نصابها، نعم سنكون متحضرين وسننبذ التعصب لكننا أيضا نحتاج أن يقبل الصرب والكروات بذلك، نعم سنقبل أن نظل بيوغسلافيا لكن بشرط عدم انسحاب باقي الجمهوريات، سنقبل ما يقبله الآخرون ونرفض ما يرفضونه ولكن ببساطة هم يرفضون ذلك منا ولا يقبلونه، وهكذا أعلنتها صريحة لأول مرة قرب نهاية عام ١٩٩٠ إذا انفصل الكروات سننفصل، وفي ذلك الوقت كان الشخصيةَ الأولى في كرواتيا شخص معروف النوايا والانفصال في خلده مسألة وقت وامتلاك البوسنة كذلك، كان فرانيو تودجمان!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمنيت كثيرا لو أن تودجمان لم يوجد قط، أو وجد في مكان آخر أو زمان آخر أو كليهما، إن هذا يحدث في التاريخ كثيرا، رجل مناسب لكن في وقت غير مناسب، غير أنني أظن أنه كان رجلا مناسبا لوطنه على الأقل. إن أي وطن يتحرر يحتاج لرجال من تلك العينة الصلبة التي لا تلين لكن الأمر قد يختلف حسب موقعك ظالما أو مظلوما، فها أنا ذا وها هو تودجمان كلانا يوصف بعناده وقلة مرونته كذا يسمونها لكن الفرق واضح، أنا عنيد فيما يتعلق بألا أتعرض لظلم وهو عنيد في أطماعه ولو على حساب الآخرين، كان الكروات في الجمهورية اليوغسلافية لا شك أفضل حالا من البوسنة، لكن السيطرة الصربية ظلت عائقا لهم على التأقلم، وحين بدأت الدببة في الانهيار، وتفكك الاتحاد السوفيتي بدا واضحا أن الاتحاد اليوغسلافي في الطريق، هنا نشأت الأحزاب القومية في كل بلد، كنا في البوسنة نقوم بهذا الدور وكان حزب الجمعية الديمقراطية يقوم بذلك في كرواتيا لكن مع اختلاف الهدف، ففي الوقت الذي رغبنا فيه باختيارات معقولة كان المروق نصيب الكروات،كنا نقترح يوغسلافيا جديدةكونفدرالية بينما هم يقترحون فصلا تاما لبلاد البلقان، كنا نأمل أن نحتفظ بحدودنا التاريخية أما هم فكانوا يرغبون بكرواتيا الكبرى بضم البوسنة مناصفة مع الصرب، كان دوري دائما أن أظهر أن البوسنة ليست لقمة سائغة ولو كانت كذلك فعلا وقتها وكان تودجمان يدرك ذلك وصرح بذلك لكن بتوريات مختلفة، ولا زلت أذكر لقائي الأول معه في بلاده على الغداء، حيث بدا يحاول كسر عزيمتي بشتى الطرق حتى أنه قال إن البوسنيين أنفسهم يرغبون في أن يكونوا كرواتا. أخبرته إن هذا يتعلق بالبوسنيين الكروات وهم لا يزيدون عن ١٧٪، امتعض وأعلن أن التقسيم الطائفي لا يعني شيئا وعليّ أن أنتظر نتيجة الانتخابات، والعجيب أن نتيجة الأحزاب الكرواتية البوسنية في الانتخابات كانت بالضبط ١٧٪!

كان الصرب عدوا معروفا لا يتوارى أما الكروات فإن أمرهم كان يحتمل الصداقة، لولا أن تودجمان كان هو ممثلهم وقتها، ورغم انشغاله مع الصرب لكني علمت أن عينه على البوسنة من أول يوم، وحين اندلعت الحرب بينه وبين الصرب وكانت الدبابات والعربات تمر من أرضنا بل وصدر أمر من الحكومة اليوغسلافية المحتضرة بتجنيد شباب البوسنة رفضت ذلك تماما ودعوت الشباب أن لا

يلبوا تلك الدعوة، إنها ليست حربنا وكأنني أقول له: يا تودجمان، يوما ما هناك حرب لن تكون حربك، وكان رده شكرا باهتا وكأنه يقول: يا عزت إنه اختيارك أنت أما اختياري فأنا من سأحدده، وحين نجحت كرواتيا في الاستقلال وفشل الصرب في إثنائهم عن ذلك جاء دورنا لنعيد الكرة مع الفارق أننا أضعف وموقعنا أقرب لأنيابهم، كما أن الكروات ليسوا على الحياد وتودجمان يمعن النظر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بد أن أعترف بسذاجتي، لقد ظننت العمل السياسي أسهل من ذلك بكثير، إن نضال الطلاب الذي عشته صغيرا ونضال الصحف والكتب الذي عشته كبيرا أعطاني فكرة خاطئة تماما عن كيف تدور الأمور داخل الغرف وعلى المنصات، الأمر الذي واجهته حين فزت برئاسة جمهورية البوسنة حين فاز حزبنا في الانتخابات، إن مواجهة الجماهير باعتبارك مسؤولا هو حبيس أحد موقفين، إما تردد ناتج عن ثقل المسؤولية أو لامبالاة نتاج طرح تلك المسؤولية والتحرر منها، يبدو ذلك مثلا في الخطابات الملقاة، نصحني كثيرون أن يحضرها لي غيري فلا وقت لدي كي أضيع كل ذلك الوقت في التحضير والإضافة والحذف للكلمات، لكنني لم أستطع تبني أحد الموقفين بين اللامبالاة والمسؤولية وصرت أرتجل الخطابات في أحيان كثيرة أو أحضرها وأنا في السيارة، إن الزيارات الخارجية أيضا هي سير على رمال ملتهبة، تريد أن تلقى الدعم من دولة لكن ماذا لو كان ممثل الدولة نفسه لا يلقى الدعم داخلها؟! حدث ذلك في النمسا مثلا حيث اتهم رئيسها بأصول نازية... وماذا لو كسبت دولة لتخسر أخرى؟ كالعلاقة مع إيران والتي يكرهها العرب، لكن الأمور دوما يمكن موازنتها، واكتشفت أن السياسة ككل شيء تحتاج لتدريب وتجريب، وأحسب أنني نجحت إلى حد بعيد في صنع علاقات جيدة للبوسنة مع العالم وخاصة مراكز التأثير، كأمريكا بإدارتيها القديمة مع بوش والجديدة مع كلينتون وأيضا مع بلد كتركيا رئيسة المؤتمر الإسلامي حينها، بل وحتى القيادات الدينية في العالم كبابا روما وبابا الأرثوذكس، لكنني كنت أعلم أن البلقان لها قوانينها الخاصة وأن التأثير فيها من خارجها لن يكون بالقدر الكافي. إن أناسا كتودجمان وميلوسيفيتش جديرون بإفشال أي خطة، أشخاص شوفينيون كنائب وزير الدفاع آدجتش هل نظن حقا أنه قد يؤثر فيه دعوة السلام من البابا؟ كانت اجتماعات الرئاسة الاتحادية في يوغسلافيا للجمهوريات الست مرهقة لهذا السبب، فالتعامل اليومي مع أمثال هؤلاء يورث الهم، حتى أنني تمنيت أحيانا أني لم أفز بانتخابات رئاسة البوسنة لكن لو لم أفعل لفاز بها فكرت عبديتش وكانت تلك النهاية إذن للبوسنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبديتش نمطا آخر من الناس، إنه لا يبدي عنجهية أو حدة بل ربما العكس، هدوءا ومسكنة، ورغم أنه لا يقل ثراء عن عز الدين باشيتش إلا أنه لم يبد ثراء فائقا في ركوبه أو ملبسه، كان محبوبا لا شك. وقد اجتازني في أصوات الانتخابات لأسباب معينة ولكن لغيرها تم اختياري أنا للرئاسة، كان مشهورا بسبب قضيته المشهورة، حيث تعرض لظلم فج لم يتح حتى فرصة للجرائد الشيوعية ألا تظهره، وكان مشروعه في شمال شرقي البوسنة مصدر تنمية لتلك المنطقة فتحول من طمع وحقد إلى لا شيء بل وقدم للمحاكمة، الفارق بيني وبينه كان في رد الفعل بينما سخر الإعلام قضيتنا باعتبارنا مدانين تعاطفا معه وبالتالي تعاطف الناس، إنني أعلم أثر الإعلام جيدا وقد جربته لكن ذلك لم يعلمني درسا بخصوص تقييده، لأن عواقب ذلك أوخم من إطلاقه، كالخيار بين السيول وبين

الجفاف، قد تتأقلم مع السيول لكنك ستهلك من الجفاف، كان عبديتش لا يظهر أي عداء ولم أخنه قط لكن نفوذه المبالغ فيه في منطقته أوحى إلي أن الأمر امتد من سيطرته على الحزب هناك إلى سيطرته على البلدية والشرطة، لم يكن ظرفا يسمح للتدقيق في الأمر فالأحداث متلاحقة والبلاد على حافة الحرب، لكن كان الفضول يشغلني لماذا أراد رجل أعمال كعبديتش مكانة كهذه في حزب سياسي لربما شغله عن أعماله التجارية؟ لم يكن في مجموعتي ولا مجموعة باشتش وإن بدا ارتياح بينهما أرجعتُه لعقليتهما المتقاربة، إن باشتش مؤدلج فما باله هو؟ سوف أعلم الخبر على مرحلتين، أولاهما حين ألقيت خطابي الأخير قبل الحرب متحدثا عن استعدادنا للحفاظ على البوسنة بدمائنا، هنالك صفق الجميع بل وقفوا غير أن واحدا فقط لم يفعل، كان فكرت عبديتش، وفي اليوم التالي كانت صورته على الغلاف بين استعجاب واستنكار، أما المرحلة الثانية فقد تأخرت كثيرا وكلفتنا الكثير... كانت في خضم الحرب حيث تمردُ قواتِه الذي كلفنا الكثير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن دوما بواطن الأمور كظواهرها، تماما كما الأشخاص، إن النظرية السياسية التي تقول إن المواقف السياسية تعتمد أولا على المصلحة للأطراف لا رؤية الأشخاص لهي سياسة خاطئة، فأنا كلي تأكيد أن اختلاف الأشخاص داخل وخارج يوغسلافيا وجمهورياتها الست في عام ١٩٩١ كان كفيلا بإيجاد حل ينقذ يوغسلافيا من الانقسام، كان الظاهر وقتها أن الجميع لا يرغب في حدوث الأمر ولكن الباطن أن الجميع كان ينتظره، وأنا أيضا كنت أنتظر لكن بدافع التوجس. إما أن نكون الطرف الرابح أو الطرف الخاسر، وقد كان دوري أن نثبت أننا طرف من الأساس وأن البوشناق ممثلين في حزبهم الذي يحكم البوسنة والهرسك يجب أخذ رأيهم، وهكذا لم يمر أسبوع دون اجتماع بين رؤساء الجمهوريات الست أو بعضهم على حدة، سافرت لسلوفينيا ومقدونيا والجبل الأسود وجاؤوا لي في سراييفو، وقد كانت مواقفنا متقاربة في ضرورة إعادة هيكلة يوغسلافيا كدولة جديدة أو اتحاد على قدم المساواة أو الانفصال غير المشروط غير أن الأمر لم يكن يحتاج شجاعة من سلوفينيا أو مقدونيا فهم دول حدودية خارج السيطرة الصربية بالفعل وبعيدة عن سيطرة الجيش اليوغسلافي الذي كان يمرح في أراضي البوسنة الواقعة بين صربيا وكرواتيا، عرفت حينئذ أن الحل سيظل مع من لا يريد الحل بل الحرب>

ولم تكن الحرب على أية حال هي أسوأ الخيارات بالنسبة لنا بل الأسوأ هو ما سمعنا عنه من التقاء زعيمي الصرب والكروات على الحدود للوصول لحل وسط لا لهيكلة يوغسلافيا بل لتقسيم البوسنة والهرسك حين سقوط يوغسلافيا! إن ما تحقق على أرض الواقع بعد ذلك كان مزيجا من كل الخيارات، الحرب أولا ثم محاولة التقسيم، وحين اندلعت الحرب الصربية على كرواتية في منتصف عام ١٩٩١ عرفت أن خيارات البوسنة صارت محدودة، إما نصر الصرب وهذا يعني استحواذهم على كرواتيا بالقوة وهو ما يعني بديهة وبالتبعية استيلاءهم على البوسنة، وإما نصر الكروات وهو ما يعني استقلالهم ثم مطالبتهم بجزء من الكعكة التي هي البوسنة أيضا. كان الأمر واضحا، إما أن نحدد مصيرنا أو يحدده لنا غيرنا، وهكذا كانت خطوة حزب العمل الناجحة على إنشاء مجلس الدفاع البوسني الذي هو نواة الجيش فيما بعد والذي كان من مؤسسيه داوود وعمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في خطابي في مؤتمر حزب العمل ١٩٩١ قلت:

"لقد عرفت البوسنة كلّا من الحرب والسلام في الماضي، لكن ما يجعل الوضع استثنائيا هذه المرة أنها ستكون حربا شاملة يتغافل عنها أطرافها، إن من يقومون برسم الخرائط غير مبالين بأن المنطقة برميل بارود سينفجر في أي لحظة، إنهم يرسمون خرائط جديدة لتقسيم البوسنة وكأن حدودها التي ترجع لـ ٣٠٠ عام على ضفاف السافا لا تروق لهم، كما لو أن تلك الحدود مجرد قصة إدارية عشوائية... لكن إذا ما انفجر برميل البارود فسوف يفنى كل شيء بما فيه راسمو الخرائط والجنرالات وكل الأحزاب والقادة ولن يبقى إلا سحابة من الدخان والعار".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشهور تمر كأيام والأيام كساعات، وبدا الجميع يحضر نفسه للحرب بينما نحاول يائسين وساذجين التمسك بالسلام لكن دون خسارة أنفسنا، لقد تم وقف إطلاق النار بين صربيا وكرواتيا وذلك في نهاية عام ١٩٩١، وللمفارقة تم ذلك في مكتبي في مجلس الرئاسة البوسنية وتحت رعاية الأمم المتحدة التي أرسلت قواتها لتحول بين الجيش اليوغسلافي الصربي وبين قوات الدفاع الكرواتية، لكنها لم ترسل قواتها للبوسنة التي رعت السلام وستنشب فيها الحرب بعد شهور، كان الجيش الصربي الذي من المفترض أنه جيش يوغسلافيا يلهو في البوسنة متوعدا إيانا وقد سموا أنفسهم تلك التسمية المخيفة -التشتنيك- وربوا لحاهم مستعيدين مجد عصاباتهم في الحرب العالمية، ولقد سلحوا المواطنين الصرب في البوسنة كذلك بل وقد تكونت مراكز حكم ذاتي صربي امتدت لسراييفو نفسها!

أرادوها عرقية وأردناها مدنية، هم من أرادوا تكتلا إسلاميا وفصلا عنصريا ونحن من رفضناه ثم اتهمونا بمحاولة تكوين إمارة إسلامية، لم يعد هناك حل سوى إعلان الاستقلال، ولقد فعلنا ذلك بشكل رسمي تماما وبنفس متطلبات الأمم المتحدة، أرادوا المفاوضات ففعلنا لآخر رمق في لشبونة وبروكسل، أرادوا استفتاء فأجريناه، وجاءت النتيجة واضحة لصالحنا، بقي إذن الاعتراف بنا وحمايتنا، ولقد تم الاعتراف بنا ولكن لم يتم حمايتنا وظهر ما أسميه (صمت أوروبا المخجل) حين بدأ العدوان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا زلت أذكر كيف بدأ الأمر، بدا كأنه مشهد سينمائي خط بعناية ونفذ بدقة غير أنني لم أحسن التمثيل، فحين دوت دانات المدافع لأول مرة ليرتج لها مبنى الرئاسة القديم تناثرت الأوراق واحدة تلو أخرى، غير أنني لم ألمح -أو لم يعلق بذاكرتي- غير ورقة الاستفتاء الصفراء وهي تتقلب في الهواء فتارة ألمح جانبها المقروء وتارة ألمح جانبها الفارغ، غير أنني كنت بالفعل أحفظ المكتوب بها عن ظهر قلب، وأذكر المناقشات حول تعديل كلمة هنا أو هناك وأذكر تعنت الكروات من أجل كلمة مما كاد يجعل مصير الاستفتاء إلى لا شيء، لكن أليس الآن بالفعل صار مصيره اللاشيء؟

"هل أنت مع بوسنة وهرسك مستقلة وذات سيادة وكدولة لمواطني البوسنة سواء كانوا مسلمين أو صربا أو كرواتا أو الشعوب الأخرى التي تعيش في البلاد وبحقوق متساوية"

هل كنت إذن يا سيدتي تفضلين الرفض خوفا من قيام الحرب، حسنا لم يكن هذا رأي ٩٩٪ من المشاركين، يبدو أنه لم يكن أملي وحدي!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هامش

أنهى عزت كلامه وقد بدا التأثر عليه بشدة، لقد احمر وجهه وتسارعت أنفاسه كما أن عينيه قد التمعتا وكأنهما على وشك البكاء، لم تكن المستمعتان أقل تأثرا، كانت أديلسا تبكي بالفعل وقد طرق ذهنها صورة الحرب أما الممرضة فقد تشتت ذهنها بين التأثر بتأثر من حولها وبين الارتباك الناتج عن الساعة، إن موعد مرور الطبيب قريب بل لعله الآن، ولو علم بتلك الزيارة في غير موعدها لغضب، أما لو علم أنها بالفعل مستمرة منذ ساعات فتلك نهايتها. تحركت في الغرفة كأنها تصلح عدة أمور وعند الشباك انتقت زاوية خطاب تصلح أن تكون لكليهما لكن قبل أن تنطق أشارت إليها أديلسا...

"سأخرج الآن يا ابنتي، لم يعد لدي ما أقول ولا لديه"

بدا العجب على وجه عزت وقال:

"مهلا لم أكمل إجابة سؤالك بعد"

"لو كانت الإجابة في ذكرى الحرب فأنا لا أريدها، لكن لا تقلق، لقد خمنتها مما قلت!"

بدا عليه رغبة في قول الكثير حتى تزاحمت الأفكار والكلمات ولم يستطع إلا الصمت، تحركت ببطء متجهة إلى الباب. تابعها بنظره ثم هتف:

"لا أحد يؤلمه ذكرى الحرب مثلي، لم يعايش أحداثها مثلي، إن كل إنسان علم من فظائعها ما علم وجهل ما جهل لكنني أزعم أنني قد أحطت علما بها وبئس ذلك من علم"

هزت رأسها كأنها تواسيه فأردف:

"لكن تظل الحرب مسرحا لعرض دامٍ لكنه مليء بالأبطال، وابنك كان منهم يا سيدتي، ألن نكمل قصته؟"

هزت رأسها ثانية ثم قالت:

"لا أظن أننا نحتاج إلى إكمالها، كلانا يعرفها وكان طرفا فيها"

أراد قول شيء لكنها بدت تعاجل تأثرها بالخروج، قادتها الممرضة للخارج بينما دخل الطبيب في نفس اللحظة منزعجا متسائلا عما يحدث، أشارت إليه العجوز بعصاها كي يفسح الطريق ففعل وقد انكسرت حدة غضبه.

"تفضلي يا أمي"

لم تلحظ رده ولم تلحظ أي شيء حتى وصلت بيتها ولا تذكر كيف، وجدت ماريا في انتظارها ولم ترد على أي من أسئلتها، حتى أسئلة نفسها لم تجد إجابة لها، ماذا دهاها؟! دوامة فكرها لم تنته إلا حين نامت وكان نوما هادئا، ولما صحت مساء بدا كأن بركانا ساكنا قد انفجر داخلها وخارجها وهي تسمع الخبر الذي يقول:

“مات الآن علي عزت بيجوفيتش!”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خارج الهامش

٢٠١٠

-١-

لماذا يبدو كل شيء مختلفا؟ الجواب المنطقي هو اختلافي أنا بينما تتناسق كل الأشياء من حولي، أنا العنصر الغريب الذي ينبغي أن يشير إليه "كال" مثبتا تطوره العقلي، أنا النبتة الشيطانية التي زرعت هنا بخطأ بشري أو قدري، لكن هل يخطىء القدر؟ لقد افتدى الإله خطايانا بنفسه فلو أخطأ هو من سيفديه، قال القس ذات مرة انظروا من حولكم إلى بداعة ما خلق الرب، انظروا إلى هذا التناسق العجيب وكمال كل شيء ثم انظروا إلى ما زرعه الإنسان من دمار وخراب. يقول ذلك بينما هو في بيت صنعته يد الإنسان ورممته حين لم يحمه الرب من الدمار، من شرفتي هنا تستطيل الحشائش التي لم يجزها أندرو المتكاسل فيتحول هذا الاخضرار إلى فوضى تطيح بأي جمال أو تناسق، فقط أندرو البدين الجاهل كثير التفل والسب والذي لا يعرف غير البذاءات والخمر الرخيص هو من يستطيع أن يجعل لتلك الحشائش معنى وشكلا ونظاما، نعم يحتاج الإنسان إلى الرب ولكن الرب يحتاجه أيضا، لقد صلب يسوع وكادت دعواه أن تندثر ولولا حواريوه لمات الرب للأبد، إذن يا ترى هل أنا هنا بخطأ إلهي أم بشري، والأهم من يستطيع تصحيح الخطأ؟ هل أنت يا إلهي؟ أحسست بمن يعبث من تحتي، أجفلت، كان كال... كيف دخل هذا الشيطان! أطلقت شهقة وأطلق هو ضحكة بريئة تخفي فرحا خبيثا أن فاجأني، رفعته إليّ وقلت:

"سوف أضربك"

لكنه تفلت من يدي وأخذ يجري مستمرا في ضحكه، بينما نهضت أنا أعدل من وضعي وأستعد لمقابلة أخي في يوم العطلة الذي بدأ مبكرا، نظرت في المرآة أعدل شعري الأصفر الخشن نوعا، والتي ظهر فيها أخي فجأة داخلا من الباب بينما شعره الأسود يتدلى على جبهته، أحاطني بذراعيه فتفلتّ منه وقبلني ولم أقبله لكنني شددت على يديه قائلة:

"ما كل هذا النشاط؟"

"لقد صحت ريتا مبكرا وأرادت أن يصحو الجميع معها"

"أين هي؟"

"تساعد أمك على تحضير شطائر النزهة"

"إذن سأهبط معهما"

"انتظري"

قالها وفتح شنطة كانت معه لم ألق لها بالا إلا الآن، وقال:

"كنت في البوسنة، أنت تعلمين أشغال شركتنا، وجلبت لك هذا".

أخرج من الشنطة شالا طويلا لكنه خفيف عليه زخارف تركية أو ما شابه، قال كأنه سمع أفكاري:

"عربي، شال عربي"

التقطته منه وتأملته معجبة به، تداخل الألوان الرصاصية مع الأحمر بدا لي جديدا ومبهرا، لففته حول عنقي ثم وضعته على رأسي وأنا أسأل ميروسلاف عن رأيه:

"تبدين بوسنية تماما يا ميلا، وأنا أحب البوسنيات!"

التفت إليه:

"لكنهم يكرهوننا كالصواعق"

تذكرت خديجة لومضة ثم أتاني صوت أخي:

"ألم يحن الوقت؟"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عدنا في المساء سيطر الغضب على أبي، عرفت ذلك من احمرار وجهه واتجاهه المباشر ليشرب كأسا من خمر شديدة المرارة، شربتها ذات مرة وكدت أن ألفظ روحي معها، أما السبب فكان أنا... أمي تنظر لي بغضب كذلك، كان شيئا مبالغا به، لذا بقيت معهم متحدية علهم يناقشون الأمر ثانية، قالت أمي:

"علام كل ذلك العناد، كان الجو رائعا في الخارج لكنك جعلته خانقا في دواخلنا"

رددت بسرعة:

"بل أنتم من جعلتموه، ما مشكلتكم مع قطعة من قماش وضعتها على رأسي"

"بل قولي ما خطب الناس؟ هل هناك أحد لم يلتفت لنا مزدريا؟"

"إنهم أحق بالازدراء"

"بل المسلمون الأوغاد أحق!"

كانت تلك من أبي، كعادته يتحول لنار ملتهبة حين يلامس الكحول، لم أقابل مسلمين كثرا في حياتي، كانت خديجة ولم ينطبق عليها وصف أبي:

"أبي، ما علاقتهم بالأمر؟"

"إنهم يلبسون القماش ويطلقون الرصاص، جاء الأتراك محتلين بلادنا ونساؤهم في الحرملك يلهين مع العبيد!"

بوادر السكر بدت على أبي واقتربت منه أمي مبعدة الشراب عن متناول يده لكنه أصر أن يبقى بقربه، إذن سيطول الأمر، من الغريب حقا كيف تبرز الخمر الجانب الآخر فينا. الغريب أن في الأفلام قد يبرز الجانب الجيد لمن هو سيء، لكن أبي الطيب المتسامح دوما لماذا تنفجر كراهيته مع أول كأس يتجرعه؟، والسؤال الأهم، أيهما الأصل والحقيقة؟ أيهما هو أبي؟ ما يظهر هو أم ما تظهره الخمر؟ غرقت في خواطري للحظات أنجدتني من الكثير من الهراء الذي قيل ولم أسمعه جيدا، وحين صمت أبي أخيرا صعدت في صمت إلى غرفتي مشتاقة أن ألتقي جدرانها عدا المرآة المشؤومة، لكن الجدران حمتني من غوغاء الخارج ولم تمنع ضوضاء الداخل، على السرير تمددت بعدما تخففت من ملابسي ولكني نسيت وربما تعمدت الشال حول عنقي، تأملته وأنا أفركه بإصبعي وقد بدا لي صديقا آخر أو حيوانا أليفا، وقد ذكرني بخديجة ثانية، قمت إلى الكمبيوتر الذي لا زلت أخشاه أحيانا وأحسب شاشته تتجسس عليّ، وأخذت أتأمل وجهي ثانية على شاشته المعتمة ريثما تضيء...

بدا وجهي معتما كذلك وملامحي غير واضحة وسهلة التوفيق مع ملامح سلاف أو أبي وحتى أمي مستديرة الوجه، لم أهنأ كثيرا بلحظة التناسق تلك حتى أضاءت الشاشة وظهرت علامة البريد أمامي فأسرعت إليها وأنا أكتب بريد خديجة الإلكتروني الذي سجلته على ورقة لم أجدها قط بل حفظته على صعوبة حروفه وسهولة أرقامه، فالحروف اسمها المعقد والأرقام سنة ميلادها السهلة سنة ميلادي أنا khadija١٩٩٣ ، قالت إنها محظوظة أن أحدا لم يستعمل هذا العنوان من قبل، تعجبت، فلا أظن أن هناك كثيرا ممن يسمون بهذا الاسم في ذلك العمر، وعلى كل حال من الصعب إيجاد مثلك يا خديجة، بدأت بالسلام والتحية ثم تنبهت... في الحقيقة لا أدري ماذا أقول أو لماذا! ثم لماذا أرسل هذا البريد من الأساس؟! قررت أن أكتب ما أريد وسأمسحه فيما بعد، لا ذنب لخديجة أن تقرأ ترهاتي لكن اسمها الصعب يستحق أن يتحملني كما تحملته. سأكتب له لا لها وقبل أن تقرأ سأمسح ما كتبت.

(خديجة، لا يفرق بيننا مجرد الجغرافية لكن الحد الفاصل بين صربيا والبوسنة هو في القلوب، لم أتوقع يوما أن أصادقك أو أكتب إليك لكنني أفعل ربما للتمرد على الحدود أو على أبي أو نفسي أو كل هؤلاء الذين استهزؤوا بي اليوم وأنا أتمشى في المنتزه مع العائلة، نعم هذا لمجرد أنني غطيت شعري بشال عربي، لا أحب العرب ولا لباسهم ويكره الناس هنا الأتراك وعاداتهم لكني لبسته لأتذكرك، أخشى أن جام غضب الناس قد انهال عليك، أنت لا أنا فربما هم لا يكرهونني لكن يكرهون من أسعى لتقليده، أكتب إليك لتتذكريني لا لتتعاطفي معي، أكتب إليك محبة فهل تحبينني؟ كما أن هناك سؤالا يشغلني لو أردت الإجابة عنه، ما هو الحرملك وهل يقبل الأتراك بعبث زوجاتهم مع الخدم؟ كل تحياتي).

دقت أصابعي على إرسال، هل عن نسيان أم تناسٍ، لكنني أحسست براحة كافية كي لا أندم على قراري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المرة الأولى التي رأيت فيها خديجة هي أيضا المرة الأولى التي أرى فيها قاعة بهذا الاتساع، وعلى العكس من مبان كثر، حيث يبدو المبنى عظيما من الخارج عاديا من الداخل، كانت قاعة الاجتماعات في بلغراد متواضعة من الخارج وفخمة من الداخل لكن اعترافي الصغير أنني أصلا لم أر قاعة اجتماعات من قبل وأن أقصى ما رأيت كنائس ومدارس، وقد بدا الأمر غير مناسب، فلو كان

غرضك من مؤتمر السلام ذلك لم الشمل وتقريب الآراء ألم يكن الأفضل قاعة صغيرة تلتقي فيها العيون والألسن؟ أم أن هذا الشكل أباح عن صفة الجوهر وهي أنه لا جوهر، وأن الموضوع شكلي من أجل تلكم الكاميرات وهاكم الصحفيين، وعلى الرغم من أن عقلي كان يعمل بذلك النضج إلا أن تصرفاتي كانت طفولية ومشاعري انفعالية، كأن المراهق داخلي قد انقسم لبالغ يفكر وطفل يتحسس الأشياء ويتأمل الوجوه وإن كان يفر من كل مسؤولية لقاء أو حضور.

كانت المنصة مكتظة بضيوف يشبهون بعضهم بعضا، رجال ببذلات سود وكرافتات ملونة ونساء متصابيات بلغن الخمسين أو يزيد، لكن لم يتخلين عن زينتهن، كان كلامهم مملا وسمعته كثيرا عبر الشاشات وقرأته في مناهج الدراسة وفي النهاية لم أر سوى عكسه على طاولات الطعام وفي اللقاءات الخاصة. كثير عن التعايش بعد الحرب والتسامح بين إخوة البلقان والتلاقي من أجل مصلحة الجميع لكن الجميع لم ينس، والجميع يريد أن يفتك بالجميع، هكذا كنت أشعر بالضجر وانتقلت من كرسي لآخر، وقد أحسست أنني خدعت في أول تجربة لي من المناسبات العامة، دعيت إليها وكدت أن أبحث عن صديقاتي المخبولات اللاتي انسحبن ولم أتبعهن إلى أن سمعت من بجواري تقول:

"ألم يكن من الأجدى أن يتحدث منكوبو الحرب عن الحرب؟"

نظرت جواري لأرى امرأة أو هكذا خيل إليّ، فتاة تشبهني تماما في عينيها المتسعتين ووجهها الطويل رفيع الجوانب، حتى أنني تخيلت شعرها تحت غطاء رأسها مثل شعري تماما، ربما مرت دقيقة أنظر إليها قبل أن أنتبه إلى أنها أدلت بتعليق ربما انتظارا لرد فقلت:

"لكن هذا سيذكر بالحرب لا بالسلام"

"صانعو الحرب هم صانعو السلام، لو كف المعتدي عن اعتدائه وأخذ المعتدى عليه حقوقه لحل السلام ببساطه دون الحاجة لهؤلاء".

لسبب أو لآخر رغبت حقا في التعرف على تلك الفتاة لكن بعيدا تماما عن هذا المؤتمر اللعين، هل لأنها مسلمة؟ لكنني رأيت الكثير، هل لأنها تشبهني؟ ربما ليس شكليا فقط لكن ربما ترى نفس آرائي، في الخارج انتظرتها وأحسست للوهلة الأولى أنها انتظرت هذا الانتظار، في ساحة تحيطها الأشجار وتتوسطها نافورة تتدفق بها المياه ناديت عليها فالتفتت واقتربت وابتسمت، بدت مختلفة عما تخيلتها من لمحاتي الجانبية لها، لم تكن تشبهني كل هذا الشبه، هل تخيلت الأمر برمته...؟

"أنا خديجة، سراييفو البوسنة، ١٧ عاما"

"نفس سني أيضا، ميلا من بلغراد صربيا، في الواقع أسكن قريبا من هنا"

"إذن أنت محظوظة. لم تتحملي عناء السفر البري"

"بري؟"

"نعم لم تتحمل بعثتنا مصاريف الطيران الباهظة لكنها تحملت تكلفة حافلة وفندق"

أظهرت الأسى في عيني فضحكت قائلة:

"ليس الأمر سيئا إلى هذا الحد، لا تكف غابات البوسنة أن تكون رائعة بشكل كاف يعوض معاناة الطريق، لعل راكب الطائرة لو رآنا لغبطنا"

"وغابات الصرب؟"

"لا أريد أن أكون عنصرية و(نحن هنا من أجل السلام)"

قالتها بتهكم وكأنها أحد منظمي المؤتمر ثم أردفت:

"غابات البوسنة أغنى وأطيب"

الحقيقة أنني لم أر غابات كثيرة، رحلات المدرسة كنت أُمنع منها ورحلات العائلة كانت مليئة بالحذر، أبواي يخشان عليّ ما لا يخشيانه على أخويّ ولم أفهم ذلك، يقولون أنا الصغرى وأنا الأنثى، ولكن أليست خديجة في جنسي وكذلك في سني وتسافر وحدها! أليست خديجة مسلمة وحرة أكثر مني!

"لماذا لا تغطين وجهك؟"

قلتها فجأة وبوقاحة نوعا ما ونحن نتمشى تحت الأشجار في الدائرة الكبرى حول النافورة الوسطى، ضحكت وقالت:

"هذا سؤال متقدم لمن لا يعرف عن الإسلام إلا ما قيل له، ألن تسأليني لماذا لا تعيشين بالصحراء أو تحملين خنجرا في ثيابك أو تسبين المسيح؟"

كدت أن أتكلم مدافعة لكنها أسكتتني قائلة:

"سأخبرك"

-أ-

يوم آخر ينقضي من أيام الإجازة المملة، أصحو وأشرب اللبن الذي بجواري وأجلس أمام المرآة قليلا ساخطة على حبوب الوجه وأمشط شعري كالعادة متسائلة عما إذا كان يستحق كل هذا الاهتمام، ألبس الطرحة ثم أخلعها ثم ألبسها ثم أخلعها مستعيذة بالله من الشيطان، أتوضأ لأصلي وأجلس قليلا على السجادة أدعو... ثم ألتفت للساعة لأجدها ما زالت الحادية عشرة قبل الظهر، لم أكن أحب الطبخ وظهوري الآن خارج الغرفة يعني مشاركتي أمي في الطهي، لم أكمل بعد رواية (جسر على نهر درينا) ولقد صببت الغضب على أندريتش لأنه صار مملا قرب النهاية. وهكذا كبطلة هاربة من رواية وصائمة هاربة من الطعام قررت الجلوس أمام الحاسوب لبعض حين، وهنا تغير يومي تماما، كان إيميلا من "ميلا"... تلك الفتاة الصربية غير الصربية، كانت مختلفة لا أدري كيف لكن من الصعب أن تحسب ثمرة طماطم كتفاحة لمجرد وضعها في صندوق مليء بالتفاح، لكن ذلك لم يكن ما يهمني بل الطعم والجودة. إن ميلا ثمرة لم تفسد بعد، ميلا قد تكون صديقة جيدة ولو اختلف بيننا كل شيء، إن أشجار العنب والرمان تنمو في أرض واحدة وتسقى بماء واحد، أليس كذلك؟، وعندما قرأت إيميلها ابتسمت بل ضحكت... أعدت قراءته معجبة بكل حروفه ثم قررت الكتابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزيزتي ميلا:

(أسعدني كل ما كتبتِ ولا بد أن تعلمي أن شعورنا متبادل، إن رؤية إيميلا باسمك غير يومي الممل لآخر ذي جدوى، خاصة مع أسئلتك العميقة التي أسألها أنا أيضا ولا أستطيع أن أؤكد إجابتها. ما أستطيعه هو أن أخمن ولك الخيار في القبول أو الرفض. إن المقدمات دوما أهم من النتائج، وإن معرفة أن هناك فرقا بين مراد الله وأفعال البشر هي أهم مقدمة نتفادى بها التعصب والكراهية، إنكِ حين لبستِ الشال لم تفعلي ذلك طاعةً لأمر الله لكن تقليدا لي، لكن البشر لا يفهمون ذلك، كما لا يفهمون أن إلهنا وإلههم واحد، إن عبادة الأصنام لا شك ما زالت موجودة. لكل منا الإله الخاص به الذي يريد أن يطيعه هو في تصوراته لا أن يطيع هو أوامر الرب، إذا كنا لا نرى الله ونؤمن به لماذا لا نؤمن بحكمه في حكمه ولو لم نرها، ستقولين الأديان مختلفة ومن يتحدث باسم يسوع غير من يتحدث باسم الله، أقول لك، لذا وجب الاحترام، حين سألتني لماذا لم أغط وجهي بالتأكيد لم تدرسي تلك القضية التفصيلية في الشريعة لكنك حسبتِ الخيار واجبا وسيظل خيارا داخل الدين الواحد وبين الأديان. إنه خيارٌ فرديٌّ بالأساس، إنسانيّ، وكلما كان المرء إنسانا كلما شعر بالحرية وسمح بها لغيره فدون معنى حرية الاختيار يختل معنى الإنسان والدين معا، أو كما قالها الأستاذ عزت بيجوفيتش، هل تعرفينه؟ يبدو أنني أثقلت عليك في فلسفة ولم أسألك عن أحوالك وخطتك للصيف والعام القادم، هلمي احكي لي، وبالمناسبة، الحرملك هو مكان تجمع أسرة السلطان، وكان الخدم فيه أغاوات -جمع أغا- وأرجو أن تبحثي عن معناها بنفسك. دمت بخير).

-٢-

لم يعد يروق لي عد الخراف كي أنام، هذا التمرين الشهير الذي ينجح معي دائما، فأنا لم أصل للرقم مائة قط. إلا أن رأي خديجة بمدى سخفه جعلني أعتنق هذا الرأي خاصة أنني لم أرَ خرافا قط تقفز فوق سور، سألتها كيف تنام فأجابت إنها تنام مباشرة، لكنها تقرأ أذكارا ما قبل النوم... آيات من القرآن وأدعية... إنها تذكر الله، باختصار... كنت أعرف أنني وقحة لكن الفضول قتل القط وسألتها:

"لكنك أيضا لم تري الله"

"وهل رأيتِ أنتِ المسيح؟"

كان الرد صادما لكنني فكرت فيه سابقا، إذا كان حواريو المسيح آمنوا به فقد رأوه ورأوا معجزته، فلم نؤمن نحن به بل ونختلف لتحديد طبيعته بيننا وبعض وبيننا وبين المسلمين؟، قالت لي:

"إن معظم معاصري الأنبياء لم يؤمنوا بهم بل وحاولوا قتلهم مع أنهم شاهدوا معجزاتهم ولما مات الأنبياء انتشر الإيمان بشكل أوسع، أليس هذا غريبا!".

إن خديجة لأكبر من سنها كثيرا وإنها لتثير أسئلة مهمة أعرف أنها تعرف إجابتها لكني استنتجتها، الإيمان الحقيقيّ لا يحتاج إلى معجزة، إنه يصنع القلب والمعجزة فقط تثبته، يبدو أن خديجة أكثر إيمانا مني، إن دينها مختلف لكنه يحتاج لنفس الإيمان. إنه دين على أية حال وليست خزعبلات كما

يقول أبي، وددت لو أخبرته بما اكتشفت لكن هناك حائلا دائما بيني وبين أبي، وأمي لا يمكن النقاش معها في مسائل عقلية ولا أخي، وحتى أصدقائي لقد قاطعتهم، يبدو أنني سآخذ قرارا جريئا قريبا.

"سأذهب إلى خديجة أقضي معها الصيف!"

ترك أبي الملعقة ونظر أرضا دون أن ينظر إليّ، أما أمي فقد نظرت لي نظرةَ ليث يوشك على الافتراس، قال أبي وما زال لا ينظر إليّ:

"هلا كررتِ ما تقولين؟"

"عندي صديقة بوسنية أرغب في أن أسافر إليها كما يفعل جميع أصدقائي و..."

"اسكتي!"

سكتّ وخيم الصمت على المائدة وخُيِّلَ إليَّ أن حتى الطعام قد فقد حرارته، بينما قال أبي بهدوء هذه المرة:

"أنت تريدين أن تعودي إلى البوسنة!"

قطبت للحظة وقلت:

"أبي، أنا لم أذهب إلى البوسنة من قبل، إنها المرة الأولى"

"لا تفتحي الموضوع ثانية"

قام أبي ولحقته أمي كعادتها بينما ظللتُ جالسة أفكر لماذا قال أبي جملته الأخيرة، ليست بلهجة الأمر لكن بلهجة الاستجداء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أتعود أن أفعل ذلك، لا أذكر، ربما فعلتها مرة واحدة حين أردت أن أعرف هل سيوافق أبواي على سفر أخي أم لا وكان ذلك منذ سنتين، يومها رآني أخي نفسه الذي جاء ليفعل مثلي فوجدني قد سبقته فزجرني ووقف هو يتسمع من خلف الباب المغلق ما يقال في غرفة أبوينا. لكن الآن لن يراني أحد. لقد سافر أخي بالفعل فلا خطر من الخلف، فقط من الأمام، وهو آمن أيضا، إن صوت أبي الجهوري لجدير بأن يُلاحَظَ إذا اقترب ليفتح الباب، وإن حركة أمي الثقيلة كذلك ليُشعَر بها إذا هي أرادت الخروج، وحينها سأكون مختفية في الغرفة المجاورة أتظاهر بالبكاء، لم يكن الشعور الذي يساورني حزنا على رفض فكرتي فلم أتوقع خلاف ذلك بل وبنيت خطة من الطلب المتكرر في ظروف مختلفة ينتهي به المطاف إلى موافقة مشروطة، هكذا كانت المساومة مع أبي لكن الشعور الغامض الذي يتملكني الآن كان مختلفا، هناك شيء أَشْتَمُّه بل أنتظره، هناك سر حان وقت كشفه، هناك كلمات لا يريدونني أن أسمعها لكنني يجب أن أفعل:

"كالشجرة تنمو غربا وجذورها شرقا"

"لكن الثمار في جهتنا"

"لكنها ستسقط، في الجهة الأخرى"

"هي لا تعلم شيئا، أنت تجعلها تشك"

"بل هي تعلم. قلبها يعلم. وجدانها يعلم، إنها أشبه بالنائمة لكنها يوما ما ستستيقظ"

"ولو استيقظت، ما معنى الأمر! نحن لسنا مذنبين"

"متهمين"

"لا بل محسنين أنقذناها والآن ليس لها غيرنا"

"لن تبقى"

"ليس لديها خيار"

"وما تلك الرغبة الملحة للعودة لوطنها!"

"إنها رغبة في السياحة، أما وطنها فهنا"

"لو ذهبت لن تعود"

"أنت خائف من سراب"

"بل من قدر"

"بالقدر وحده جاءت إلينا"

"وها هي تعود"

اقترب الصوت شيئا فشيئا، لا بد أن أبي يغادر وعليّ أن أختبئ الآن لكني تصلبت مكاني ولم أتحرك وانتظرت الباب ليفتح ونظرة أبي المندهشة وعيني التي تلاقت مع عينيه في لقاء طويل لم يسبق من قبل وذلك قبل دمعة تهرب من عيني وصوت محشرج يخرج من حنجرتي دون وعي مني:

"من أنا؟؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأمر أشبه بشعور الألم الممزوج باللذة، كأن تعض على إصبعك أو شفتيك حتى يخرج منهما الدم، أسترجع الأمر مرارا وتكرارا وأتعمد أن أغيظ نفسي قائلة وأنا أنظر إلى المرآة

"كل تلك المدة لا تعلمين؟"

لكني حينها تطوف بي الأفكار الحالمة حول شكل والدي وشكل بيتي القديم، ترى هل ما زالا موجودين؟! ترى هل لا زال موجودا؟! سرعان ما أشعر بالغصة خشية أن طول الأمد كفيل بالهلاك، إنها ١٧ سنة، فأعود وأنظر للمرآة وأقول:

"كل تلك المدة لا تعلمين؟"

كان يومان قد مرا دون أن أفتح غرفتي وقد قررت ألا أفتحها إلا لأعود لبلادي وأبحث عن أبويّ، لكن أليس لي أبوان هنا أيضا! تلك الأم الباكية التي تتوسل من وراء الباب وذلك الأب الذي يبالغ في شرب النبيذ ويبدو ذلك في صوته العالي كناية عن ضجر، لا يستطيعان نسياني فهل أنساهما أنا هكذا بكل بساطة؟.

أكملت خواطري التي أرسلها إلى خديجة قائلة:

(يقولان لقد مات أهلي لكني أعلم أن هذا كذب، من أين أعلم لا أعلم، لكنه كذب، هكذا أشعر وهكذا أرغب، لقد اختطفت يا خديجة، هل تعلمين معنى ذلك؟! اختطفني جندي صربي وأهداني إياهما كقطعة لحم أو حلوى، إنهما مجرمان ليسا أبوين).

ثم أعود وكأنني مصابة بالفصام.

(لكن أليس من المعروف حينها أن ينقذاني من ويلات الحرب ويربياني في بيتهما مع أولادهما، فأنا لي بيت وأسرة وعندي كل ما أتمنى بما فيها هذا الحاسوب الذي أكلمك من خلاله).

أتمشى قليلا في الغرفة وآكل ملعقة من الأرز الممزوج بشربة اللحم الذي تضعه أمي على باب غرفتي وأمضغها على مهل ثم أعود لأجلس وأكتب:

(ربما كان الخطأ أنهما لم يخبراني، لم يخيراني... إن الحرب انتهت وإنني قد بلغت فما الضير في أن أعود لأهلي وبيتي أو أن يكون لي بيتان وأهلان؟ تقولين إنها الأنانية وأنا أقول لك إن الأنانية فيما قد تملكين بالفعل أما فيما تسرقين فهذا فجور).

أشعر بالغضب وأتمشى ثانية وأكاد آخذ ملعقة جديدة من الأرز قبل أن أجد نفسي سائلة: ترى هل هذه شوربة لحم الخنزير! ويحي! أجري بسرعة لأكتب لخديجة:

(هل تعلمين ما معنى أنني بوسنية من البوشناق، أنا مسلمة إذن أليس كذلك؟؟).

-ب-

بدأت حديثي وأنا لا أعلم من أين أبدؤه فبدأت بالحديث:

(كل مولود يولد على الفطرة، وعليه فأنت مسلمة يا ميلا، أما ممارسة الإسلام فلهذا مقام آخر، فلابد أن تتعلمي قبل أن تفعلي والجهل عذر شرعي. ميلا، إن اضطرابك في كتابة رسائلك لهو طبيعي للغاية فأنا السامعة وقد اضطربت وسمعت قصتك فذهلت، إن قصتك في بلد كالبوسنة ليست شديدة الغرابة بل ليست غريبة أصلا، لكن الغريب أن نتفاعل مع القصة بشكل مباشر، أن نكون نحن الأبطال، أنت بطلة يا ميلا لأنك ضحية والجمهور يتعاطف دوما مع المجني عليه لكن هذا لا يعني أن النهاية سعيدة دوما، إن حياتك مزدوجة كما قد تكون مميزة، فقد تجر عليك حياة مليئة بمشاعر السلب، ماذا لو كان أبواك غير حيين أو أن بيتك مسروق أو قد تم ضمه للكتلة الصربية! ماذا لو نسيك أبواك بل وماذا لو كانا هما من تركاك! إن الحرب شديدة القسوة يا ميلا ولا يمكن التنبؤ حقا بحقيقة ما كان عليه الأمر، كل ما يمكن هو الأعذار والتسليم للقدر الذي قد يغضب لأنك تحاولين إعادة ترتيب

أوراقه فتضيع الأوراق إلى الأبد. أما لو أصررت فاعلمي أني معك ولن أتركك أبدا وإني أتشوق للقائك هنا في أرض أجدادك الذين ترغبين أن تعلمي عنهم شيئا، الخيار لك، وعلى كل أنصحك بأن تعاودي علاقتك بأبويك إما لتنسي أمر العودة وتكملي حياتك من حيث توقفت وإما لو تصرين على البدء من الجديد، فلعلك تترجينهما لتعلمي اسمك الحقيقي، فلا وجود في سجلات المفقودين لما يتطابق مع اسمك ومواصفاتك للأسف، كما طلبت مني أن أبحث لك وأرجو أن لا يحبطك ذلك كما أحبطني، في انتظار رسالتك بكل الشوق).

أنهيت رسالتي وانهرت بالبكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهبت لجدتي في غرفتها والتي لا تجلس بها لكن في شرفتها وسط زهورها اليانعة، كانت الزهور تتدلى أرضا وترتفع سماء، كان المشهد غابة لا مشهد وراءها، وأظن أن جدتي قد تعمدت ذلك فالمشهد كان شارعا مهجورا ومبنى ما زال عليه آثار دخان الحرب مع تشكيلة من الشتائم، دخلت عليها وأنا أعرف أول ما ستقول:

"كانت شرفتنا ترى النهر وكان الشارع لا يكف عن الضوضاء، لم أكن أنظر للنهر كثيرا وكنت أكره الضوضاء وأخاف أن تزعج نباتاتي لكني الآن أفتقد النهر والضوضاء وأظن أن نباتاتي تفتقدهما كذلك"

جلست بجانبها متأملة زهرة صفراء لا أعرف اسمها لأني لا أفقه شيئا في الزهور لكنني أحب الألوان، منتظرة أن تكتمل.

"حين انتقلت مع فضل الله كانت المنطقة خالية. لم يقابلنا مبنى ولا سور. كرهت هذا وظننت أن الأنس قد يكون بسكان وعمائر فإذا بالعمائر تدمرها الحرب والناس يهلكهم الحقد والكره ولا يكفون عن الشتائم بل ويكتبونها".

كانت شقتنا عتيقة حقا غير أن أبي كان قد أدخل بها تغييرات لا بأس بها قبل ولادتي، وهكذا لم أحضر الشقة التي تحكي عنها جدتي ولم أحضر شقة عصرية، قلت لها:

"لم تحبي جدي يا أمي ولما أحببته تركك، هل كان إذن حبا حقيقيا؟!"

تنهدت والتفتت إليّ بعينيها العجوزين...

"الحب لا يكون مزيفا أبدا. من خواصه أن يكون حقيقيا لكن الاختلاف دائما عن ماذا أحب المحب! وهل كان حبا صافيا أم به كدر!"

"إذن أشركَ جدي في حبه لك"

ابتسمت وهزت رأسها ثم قالت ودمعة قريبة تترقرق في عينيها:

"لم يكن يحبني أنا يا ابنتي، كان يحب ابنة صاحب عمله وأخت الشاب الذي يعطف عليه، أحب عيوني وشعري لكن لم يحبني أنا، أحب أن يمتلك شيئا لا يملكه فإذا ملكه بحث عن غيره"

ترددت في تلك اللحظة في طرح سؤالي... داعبت أناملي أوراقا لزهرة لم تتفتح بعد فقالت الجدة:

"اسألي سؤالك يا ابنتي"

كدت أن أنفي أن لي سؤال لكني استسلمت للاعتراف فبُحت:

"هل لو كان الأمر بيدك لكنت اخترتِ وطنا آخر غير البوسنة، ولو أودعك القدر هنالك هل كنت ستعودين؟"

"من أجلي أنا فلا، لكن من أجل عمر ربما"

"هل كان يتمنى؟ ألم يولد هنا؟"

"بل تمنى أن يموت هنا لتعيشي أنت!"

لم أفهمها جيدا. ترى ماذا تقصد؟

وقبل أن أسألها، قامت تتكئ على مسند كرسيها، مددت يدي لكنها لم تستخدمها ومدت يدها لعكازها ودخلت للغرفة. دخلت وراءها متوجسة هل كان سؤالي غير لائق أم أنها لا تعرف إجابته أو لا تريد. لكنها جلست على طرف الفراش كأنها تستريح ثم بمفتاح صغير لا أعلم أين كانت تخبئه فتحت الدرج بجوارها لتستخرج كتابا مهترئا، بل هو كراسٌ أحمر الغلاف من الخارج وقد تمت إعادة حروفه من الداخل فبدت حروفه ثخينة أو مزدوجة، لكنها سرعان ما أخفته وأخرجت كراسا آخر، أوراقه مشرشرة كأنها مقطوعة من كراس... ربما من نفس الكراس الأول، كانت الجدة تقلب فيه بحثا عن شيء ثم أدركت أنها بدون نظارات لن تصل لشيء فكدت أن أبحث عن نظاراتها لولا أن أمسكت معصمي، ونظرت إليّ وعيناها تلمعان:

"ربما حان الوقت أن تعرفي عن أبيك أشياء كثيرة".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمر (النضوج)

٦ إبريل ١٩٩٢

اليوم كان مشهودا، سيذكره التاريخ لكنني قررت أنه لن يضير التاريخ كثيرا أن أؤرخه معه، لم أكتب منذ سنوات لنفسي أو لغيري لكن فكرة المذكرات اليوم بدت شائقة أكثر من أي وقت مضى، أحتاج فعلا للكتابة كما يحتاج المدمن إلى السيجارة، نيكوتين يدخل وقلق يخرج وقد كنت أتلوى قلقا حتى الفرحة التي في وجوه الناس تزيدني حزنا، أكاد أن أغمض حتى لا أراهم وأسد أذنيّ فلا تصلني ضحكاتهم. حتى أنني صدمت سيدة عجوزا وأنا أهرول في طريقي وحين حاولت الاعتذار لها وفاجأتني بضحكتها الخالية من الأسنان لم أنطق. وكدت أبكي كلما تذكرت وجهها وقد تمثل مئات بل آلاف الوجوه تتحول ابتسامتهم لآهات من التوسل، لقد رأيت بعيني ما حصل في كرواتيا، رأيت قوات التشنتيك تعبر الغابات كالبرابرة، رأيتهم يبولون على الجثث ويكادون يشربون الدم، تكليفي من الرئيس صار تكليفا من نفسي، أصبحت جنديا وقائدا في آن واحد، وقد بدا ذلك في جديتي وأنا أمر على بيوت شباب حزب العمل. إن اجتماعنا ضرورة حربية الآن لا سياسية، في الساحة الأولمبية التي شهدت الأولمبياد الشتوي قبل سنوات قلائل انتظرت واحدا تلو واحد، بدا على بعضهم عدم الفهم وبعضهم الضجر والأقلية كان يشعر بالخطر، إنهم منتشون أو بالأحرى سكارى، يظنون الإنجاز بنفسهم، وغدا ربما ملأت الحسرة قلوبهم.

"عمر، ماذا تنتظر؟ فلتتكلم"

قالها مولود وقد أتى بلباس منزلي وحذاء رياضي،كان مفتاحا جيدا للكلام... فبدأت:

"في غرف الملابس في الصالة المغطاة كل ما ستحتاجون من ملابس وبيادات وشنط خفيفة وثقيلة"

ضحك أحدهم بسخرية:

"هل تم تجنيدنا؟ ألم يصلك قرار الرئيس بوقف تجنيدنا في الجيش اليوغسلافي"

أحسست بالغيظ وقلت بصرامة:

"لا بد أنكم تمزحون. إنكم لا زلتم لا تفهمون، نحن سنحارب الجيش اليوغسلافي، في الغد"

قبل أن ينطق أحد كانت مجموعة الغازي قد جاءت وقد صنعوا تشكيلا منظما وصيحة موحدة، تهللت أساريري، لا بد أن داوود قد مرنهم جيدا، بدا الفهم على وجوه الجميع واعتدل الواقفون وجاء داوود مسلما وقد ارتدى بالفعل أفارولا عسكريا، تبادلنا بضع كلمات قبل أن يقول أحمد باي:

"هل لنا أن نفهم! ألسنا في حماية دولية! ألم تعترف بنا الأمم المتحدة!"

كدت أن أتكلم لولا أن فعل داوود:

"لا بد وأن تعلم أنه تم الاعتراف بنا في نيويورك وقد أعلنّا استقلالنا في مؤتمر صحفي، لكن على الأرض.. انظر حولك"

وأشار بيده للتلال البعيدة قائلا:

"هناك من يستغل الليل وغطاء الأشجار لينصب مدافعه، فيالق كاملة تستعد لاقتحام سراييفو في الغد، أنت تريد النوم فالوقت تأخر لكنهم ما فتئوا يبدؤون استعدادهم لاحتلالنا"

"لقد سمعت ميلاسفتش، لقد أعلن أسفه من قرارنا وقال إنه سيحاول أن يثنينا عنه سلميا"

انطلقت أنا قائلا:

"وما قولك لو كنت سمعته بأذني مهاتفا الرئيس يحذره من ذبح كل بوسني ما لم يرضخ له؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رغم ضيق الوقت وشدته لا بد أن أدون أن مع الفجر كانت القذيفة الأولى، ارتجت المدينة وثمة صرخات دوت في الأفق، فزع الرجال الذين قضوا ليلهم معي ومع داوود للتعرف على أجزاء السلاح، وفي الواقع لقد كان سلاحا أخف من أن يواجه قذيفة كتلك لكني قلت لهم بالأمس:

"إنهم جبناء ولن يهجموا أبدا طالما هناك رصاص في بنادقنا أو حتى سهام في أيدينا، سيخربون المدينة ويحاصرونها حتى تستسلم لكن اعلموا أننا لن نستسلم"

لكن دوي المدافع أمر مختلف وخرجنا جميعا إلى الساحة نستكشف موضع الدخان. قال خسرو:

"إنه الشرق، لا بد أن أطمئن على أهلي الآن"

ربطت على يده وقلت:

"أنت لا تحمي أهلك الآن بل تحمي كل أهلنا، ولن تحميهم إلا بتدريب، والتدريب يحتاج إلى حذر والحذر يحتاج إلى اختباء".

صحت بالرجال أن نعود إلى الصالة المغطاة وأنا أطمئنهم أن الشرطة ستتصدى الآن لكل هجوم ودورنا هو ما بعد الشرطة، عمقها وظهرها، لم أكن مطمئنا في داخلي... هذا واجب الجيش لكن لو كان الجيش هو من يهاجمنا فماذا نستطيع أن نفعل؟! كنت مثاليا حين ظننت أن الجيش سيتورع عن خوض النزاع السياسي، فإذا به عند أقرب فرصة يطوق كرواتيا ويهاجمها كعدو وليس كجزء من الائتلاف، علمت حينها أن يوغسلافيا قد انهارت وتعاطفت لا شعوريا مع كرواتيا التي قضيت بها سنوات وتعلمت الكثير هنالك سواء من الكروات أو من مهاجميهم الصرب، وأهم ما تعلمت أننا الأكثر سذاجة ومسالمة. كان الصرب والكروات محاربين شرسين وأنا لا أعلم بوسنيا واحدا يحترف القتال حينها، إلا داوود ربما الذي علمني،كانت هذه إذن مهمتي ومهمة داوود الذي خدم في الجيش اليوغسلافي لفترة كما أنه درس العلوم العسكرية، تعليم القتال للمبتدئين! وقفت في منتصف الصالة أصيح بأعلى صوت صيحة داوود المميزة

"الله!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى باولا:

(لا أريد أن أسألك أسئلة سخيفة على غرار كيف حالك وهل أنت بخير، فأنا أتخيلك دوما على قمة هرم النضارة مثالا للحيوية، فإذا تذكرتك تخيلتك بكامل أناقتك تشرق عليك الشمس من جهة بينما يحرك الهواء شعرك من الجهة الأخرى وتبتسمين فتظهر أسنانك وتبرق عيونك، ربما تودين أنت السؤال عني فقد تغيرت حقا، ليست عضلاتي المفتولة ولا بشرتي السمراء من الشمس، ليست لحيتي النامية عمدا ولا ملابسي العسكرية. ربما قلبي الذي اختلف، صار أقوى أو أصلد، لا ينكسر بسهولة ولا ينخدع، ربما عقلي صار أنشط وأوقع، لم يعد يفكر بسذاجة ولا رعونة، أعرف أن تلك تغيرات ستعجبك، فقبل أن أتعلمها من حربنا البشعة تعلمتها منك كأنثى بمئة رجل وبمئة أنثى أيضا.

تحياتي).

٢ مايو ١٩٩٢

لا تحمل الأيام إلا مزيدا من القلق والألم، حين تكون في معركة تتألم لك أو لغيرك وحين تعود لثكناتك يزورك القلق كضيف دائم خوفا من ألم الغد، لم يسعدني شيء في تلك الأيام غير الاستجابة الكبيرة من شباب سراييفو وجيشنا الذي ينمو كطفل يشب في ميدان الحياة بعيدا عن مهود الأطفال، طفل يرضع الخطر والخطط لم يربه الحنان وربته القسوة، طفل يتعلم أن يجري لا أن يمشي وإذا سقط قام أسرع، وهكذا كنا نفقد أحد رجالنا فيتطوع خمسة في اليوم التالي، لم تكن مشكلتنا العدد أبدا وحتى العتاد كان خفيفا مناسبا لحرب الشوارع التي نخوضها. أما التدريب فكان حقا عقبة لكنه ليس الكبرى، إذا كنا لم نتدرب جيدا على التعامل المسلح فعدونا لم يتدرب جيدا على جغرافية مدينتنا، نحن متعادلون بشكل ما لكن الفرق الرئيس كان القلب، كانت لهم قلوب محاربين بل أقول قلوب قتلة ونحن لم نتخلص بعد من قلب الطفل، ثم يأتي الخوف وقلة الثقة، ما نحن ومن هم. نحن هواة وهم التشنتيك، قيلت لي كثيرا من متطوعي كل يوم الذي أعلن بعضهم أنه يتطوع لكي يموت لا كي ينتصر، فهو ييأس من ذلك. وكنت أقول لهم (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)، لكن حتى على معيار الإيمان كنا أطفالا يقلدون حركات الصلاة دون تضرع وينطقون حروف القرآن دون فهم، كان الشيخ علي تشيهاتش هو إمام المعسكر، لم يحارب ولم نتركه يحارب. إن دوره أهم في إقامة الصلاة وقراءة القرآن، في الحقيقة كان متحسسا وأنا كذلك مع وجود قليل من الصرب والكروات الوطنيين معنا لكنهم هم من أيدونا أن نكمل بل وأبدوا إعجابهم بصلاتنا ونطق القرآن بالعربية. إن الجبهة الداخلية مهمة كما هي الجبهة الخارجية. هكذا يقول الرئيس عزت الذي يخوض الآن مفاوضات صعبة في البرتغال، إن المفاوضات شيء والأمر الواقع شيء، لو استولى الصرب على سراييفو فأي مفاوضات قد تتم سيفرض الأمر الواقع سلطته. كانوا يهاجمون بجماعات صغيرة أماكن كثيرة، صدتهم الشرطة وصددناهم نحن لكن لابد أن للأمر ما بعده، سيهجمون بكثافة يوما ما وستتطور خططهم يوما ما،وكان الثاني من مايو يوما لا ينسى... كنا في عملية تمشيط بالأمس وعدنا فجرا لكننا استيقظنا صباحا على صيحة الاستدعاء، كان رحيم ويبدو أن معه خبرا مهما وقبل أن أسأله تكلم:

"الرئيس محتجز في المطار، عاد للتو فاعتقله جيش يوغسلافيا وفيما يبدو سيرسلونه إلى بلغراد"

يا للكارثة، سقوط الرئيس في تلك اللحظة مقدمة لسقوط سراييفو.

"أليس المطار تحت الحماية الدولية؟"

قلتها وأنا أعرف الإجابة، إن الحماية الدولية كلمة براقة تزين محاضر الأمم المتحدة وقواتها تزين المطار لا تحميه، إن الأمر خارج عن سلطتهم وقدراتنا، خاصة أن من أسر الرئيس هو الجيش اليوغسلافي المفترض به الحياد وهو جيش صربي بامتياز. نظرت إلى داوود فإذا بنفس نظرة العجز لديه ثم جاء الخبر الثاني كالصاعقة: وحدات كاملة من الجيش تهاجم المستشفى العسكري المجاور لمبنى الرئاسة، إن هدفهم واضح إذن، نظر إليّ داوود نظرة ذات معنى، لعل هناك ما يمكن فعله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن هدفنا قط التصدي لهجوم الجيش وقد كانت بالفعل جيوب المقاومة وما تبقى من الشرطة يفعلون، كان هدفنا محددا أشبه ما يكون بمهمة خاصة، وكذلك في سدول الليل وباتباع أزقة مظلمة لا يعرفها إلا من تربى فيها وصلنا إلى محيط المستشفى وقد توقف الاشتباك مؤقتا، كانت الكهرباء مقطوعة إلا من أنوار خلف مدرعات الصرب ونيران مشتعلة الجهة الأخرى، جهة مقر الحكم. كنا عشرة تسللنا واحدا تلو الآخر في صف مستندين إلى سور المستشفى ثم تسللنا داخلين، ثمة جندي مراقبة لم يرنا لكنا رأيناه وتعامل معه رادوفان، صرنا على مقربة من قلب الفيلق، وبالمنظار الليلي قال داوود:

"أظن أن هدفنا في تلك المدرعة وما حولها"

تسللنا حتى اقتربنا وبالفعل كان جماعة من الجند يحيطون به، كوكانياتس... صوبنا بنادقنا وأطلقنا الرصاص، اثنان أو ثلاثة سقطوا أرضا والباقي باء بالفرار لكننا كنا أسرع منهم ولحقنا بالجنرال كوكانياتس قائد الجيش الثاني وصوبنا فوهات بنادقنا لرأسه.

"أنت رهن الاعتقال!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لعدة أيام قد بقي الموقف كما هو، نملك قائدهم ويحاصروننا بينما الخطة الأم كانت إشغالهم لنحاصرهم ككل، كان حصارا داخل حصار ولم ينته حتى تأكدنا أن مفاوضاتنا قد نجحت وتم عودة الرئيس عزت لمنزله بينما كان على كوكانياتس أن يعود لمنزله كذلك، لكن هذا دور قوات الحصار الكبرى أما نحن فقد تسللنا عائدين لمعسكرنا حاملين مصطفى جريحنا الوحيد، كان هذا فجرا وقد رآنا بعض الناس فلوحوا بعلامة النصر بينما هرب بعضهم ولم يميزنا إذا كنا سنحميه أو سنفتك به، يا لقسوة الحرب ولعنة الدماء... يا للشعور المخيم والذي يغطي نور الشمس ونسيم الهواء... الخوف الممزوج برائحة البارود... والخبز النيئ الذي أعد على عجل والماء الملوث الذي جيء به من بئر معطل والمدارس الخاوية إلا من الأشباح التي تعبث بألعابها والمستشفيات التي لا يبارحها الموت منتظرا من التالي. لم أصدق أبدا أنني صرت أداة من أدواتها ولولا أمر الله بالجهاد ما خرجت ولو قتلوني على سريري، كنت أتشوق للحظة التي أعود فيها وأخلع الأفارول لولا أن جاءني هذا

الرسول، ولو لم تكن رسالته أن علي مقابلة الرئيس لما نفذت، جاء معي مصطفى نحو بيت الرئيس، في الواقع هو نفس بيته قبل أن يكون رئيسا، كانت المرة الأولى لمصطفى الذي يقابله فيها ووجدتها فرصة كي أعرف الانطباع الأول عن الأستاذ، وكان تعليقه مستفزا لوهلة عميقا لوهلات إذ قال: حسبته أطول من ذلك، إن الهيبة التي يصنعها جديرة برجل أطول، كانت ابنته في استقبالنا كالعادة قبل أن ندخل إليه في مكتبه ومكتبته، هنا يقرأ ويكتب وفيما يفرغ يمارس السياسة، عقله لا يلين لكني اليوم كنت مشتاقا عاطفيا لإنسان عزيز عاشرته كرجل قبل أن يكون معلما، احتضنته وربت على ظهري قبل أن يقول مازحا:

"لا أحد يعانق بتلك الحرارة إلا الأتراك. إنك تؤكد أن تلك ليست أرضنا وعلينا العودة للأناضول"

ضحكنا وقلت:

"فليعودوا هم لآسيا إذن!"

"يبدو أن آسيا الأصل للجميع، وكأنها لا تكتفي بأن تكون موطنا بالفعل لنصف البشرية وتطالب بالنصف الآخر"

"لكني سمعت أن الإنسان الأول خرج من إفريقيا"

"فعلا تشير الحفريات لذلك وإن كانت هناك أسلاف للإنسان خارج إفريقيا، وهنا في أوروبا"

بدا على مصطفى بعض الارتباك وقرر الدخول في الحديث بقوله:

"هل فعلا تطور الإنسان من القرد؟"

كان سؤالا بريئا لكن إجابته ليست بتلك السهولة، رد الأستاذ:

"لا يهمنا كثيرا ولا فرق كبير أن حدث تطور جسد الإنسان من جسد أسلاف القردة، المهم هل تطورت روحه حيوانيا أم إلهيا"

وكأن مصطفى لم يقرأ قط للأستاذ وكأنه لم أعطه بيدي كتبه قال:

"وكيف نعلم؟"

ابتسم الأستاذ فبدا وجهه أكثر تغضنا وعيناه أكثر شيخوخة وقال كأنه استمتع بالحديث فيما يحب:

"انظر إلام يطمح الإنسان، إن جسمه يطمح في الأكل والجنس، نعم، لكن هل سألت نفسك لم الإنسان يتعلم الفنون ويصنعها؟! ما الفائدة المادية من سماع موسيقى أو تأليف قصة؟! لماذا يسافر الإنسان؟ لماذا يصعد للفضاء؟! لماذا لم يخل عصر من فيلسوف أو نبي؟! في الحقيقة يتطلع الإنسان دوما إلى ما لا يراه، يتطلع للغيب ولو أنكر الإيمان به، إن الاعتدال في قامته يجعله دوما ينظر لأعلى أليس كذلك؟

بدا الإعجاب على وجه مصطفى وأشرق وجهه فهما لكني خفت أن يطول الحديث في ذلك الاتجاه فقلت:

"ماهي آخر أخبار المفاوضات؟"

"لا جديد سوى الخطط أما التصرفات فواحدة، يتلاعب الصرب ويسمح لهم المفاوض بذلك بينما غير مسموح لنا أن نرفض أو نعدل"

هززت رأسي أسفا فأردف:

"أنت تذكر هجوم العالم الضاري عليّ وما تبعه من هجوم المعارضة حين رفضت تقسيم البوسنة على أساس عرقي، والآن لا أحد يهاجم الصرب في العالم وهم يماطلون في المفاوضات ويضربوننا بمدافعهم على الأرض.

"إنه ميزان القوة، يبدو أن العالم ما زال في الغابة ولم يتطور بعد"

ضحك بركن فمه ثم قام واقفا يتمشى في الغرفة كعادته، وقال:

"لا بد أن نعترف أن الدولة التي يؤسر رئيسها بتلك السهولة لن تنال احترام عالم متحضر أو غير متحضر"

قبل أن أرد أوقفني بيده وقال:

"لكنني أعلم أنه سيحترم نضال الشعب"

أدركت أنه يشير لكي يشكرنا فاستبقته:

"ما زال هناك الكثير لننجزه، لا زلنا نزداد عزيمة، هل تعلم أن معسكرنا قد ضاق بأعداد المتطوعين؟! هناك معسكر آخر ننشئه في الجوار كما أن جهات المدينة الأربع الآن لا تخلو من المعسكرات بل ومصانع الأسلحة"

التف حولي وربت على كتفي:

"لا أشك أبدا في قدرتنا على التحمل لكني يؤلمني أعداد الضحايا وعدم تكافؤ القوى"

قال لي مصطفى:

"ألا يمكن للسياسة أن تكون غطاء يحول دون الحرب؟"

اقترب منه الأستاذ وربت على كتفه هو الآخر وقال:

"نعم من الممكن لكن بشرط واحد"

"ما هو؟"

"الاستسلام، أي معاهدة سلام ستتم الآن هو إعلان استسلام لا أكثر يفرض فيه الصرب شروطهم وأولها أن نكون جزءا منهم"

كاد مصطفى أن يقول شيئا لكن الأستاذ أكمل:

"كان هذا الوضع ليكون مقبولا على كل حال، نحن جزء من يوغسلافيا لكن قبل انسحاب كرواتيا وسلوفينيا، أما استقلالهم فيعني استقلالنا نحن أيضا، أليس كذلك؟"

هز مصطفى رأسه وقبل أن أتكلم أتانا صوت الصفير، هناك قصف الآن. طلب منا الأستاذ النزول للبدروم مع الأسرة.

"وماذا عنك؟"

"سأظل هنا كي يكون دعائي صادقا ألا تصيب النار أحدا بسوء"

أصررت أن أبقى معه وبعد سماع دوي عدة قذائف سألني:

"هل تحفظ سورة الرحمن؟"

١٢ يوليو ١٩٩٢

لم تخل أيام القتال من أيام يتلاشى فيها غبار البارود وتسكن فيها أصوات المدفعية بل ويكف اليأس عن وجوه الناس حين تسطع الشمس كاشفة عن ابتسامة خفية، لكنني أعرف أن الخوف لا يمكن أن ينتهي أبدا وأن ترقب الشر لجدير بأن يتمادى إذا تأخر الشر فيستبطئه الناس، إن الصرب عذاب على رقاب الناس ورجاء أن يتوقفوا عن القتل هو تفاؤل ساذج لا يتمتع به أحد، إن مجزرة السوق خير شاهد على ذلك، ففي يوم صاف كهذا اليوم وبدون أي استباق تحذيري أو اشتباك ناري استهدفت عدة قذائف السوق القديم فقتلت العشرات،كلهم مدنيون وكلهم كان موتهم بلا أي فائدة لهم أو لخصمهم، إن توحشا كذلك لأمر يثير العجب قبل الغضب ويجعلك تسأل قبل ماذا حدث؟ لماذا حدث؟ بالطبع لم يقتصر الأمر على سراييفو، إن المجازر التي تعم البوسنة لا تكاد تهدأ غير أننا كنا نستغل تلك الأوقات الأشبه بالهدنة غالبا لتحرك سياسي ما أو مناورة عسكرية أو مجرد تبديل لقوات حصار سراييفو، وحينها كان يمكنني أن أعود للمنزل الذي تركته منذ بداية الحرب. لم تكن أمي تسكن وحيدة بل كان معها زوجة أبي وابنتها،كم هي عظيمة أمي... تسامحها مع الوجود مطلق مثله، فحين علمت أن حي السيدة مارية وابنتها فيرونكا في مرمى النيران هي من عرضت عليهم أن يأتوا إليها، إنه بيت زوجها أيضا، هكذا قالت لضرتها فاستضافتهم، كانت الأم من سن أمي والبنت كانت أصغر مني بقليل، كانت مليحة لا شك.. شعرها أصفر مجدول، وجهها أبيض هادئ اللون والملامح التي كانت متسقة بدورها ولا تفارقها نظرة طفولية تجعلك أحيانا تنسى أنها شابة وليست طفلة، ولعلها كانت تنسى أيضا فتلبس هذا الجلباب القصير الأشبه بالمريلة حتى وأنا موجود، فيظهر ساقاها وذراعاها وجزء من صدرها، لم أكن أنتبه كثيرا وكانت دائما تشغلني أشياء أخرى حتى وأنا أقص على أمي حكايات المعسكر ومعارك المدينة لكنني لاحظت أنها أكثر من ينتبه دوما وتسأل باهتمام:

"هل حقا ما حدث في ميدان الأبطال؟"

"تقصدين طريق غرابافيتسا؟"

"نعم"

"لم أحضر بنفسي لكن فرقة أخرى من معسكرنا كانت هناك لحماية بيكو وطفلته الرضيعة التي سلمها لأمها في الجهة الأخرى التي تحت سيطرة الصرب"

"أنا أعرف زوجته وابنتاها، إنهم جيراننا"

قالتها أمها فقلت:

"كان من المفترض أن يأخذ الابنتين لكنّ إحديهما قد رفضت"

"مسكينة. إنه اختيار صعب"

قلت بعملية:

"المهم أن الرضيع قد عاد إلى أمه. لقد خفنا أن يغدر الصرب به، إن الرضيع البوسني هدف لا بأس به إليهم"

"لكنكم توقفونهم"

قالتها فيرونكا بنبرة بين التشجيع والإعجاب فرددت بزهو طفولي:

"طبعا، لن يمروا إلا على رقابنا"

ويبدو أن اللفظ لم يكن في محله الشاعري فابتلعت ريقها ونظرت الناحية الأخرى بينما أمي تمد يدها كي أسلمها رأسي لتداعب شعري كهرة أو كطفل أيهما أقرب، نمت على فخذها بينما لا تتوقف عن النظر إليّ وهي تقول:

"كانت أمي من الصرب. لم تكن وحشية كما تقول"

"أتحدت عن الجيش يا أماه، أتحدث عن كلاجتش وميلاسوفيتش"

"إنهم بشر أيضا لكنهم فقط قادة كعلي عزت، أليس كذلك؟"

كانت أمي تضمر شيئا خفيا تجاه الأستاذ، شيئا قديما ترسب في أعماقها لا تجد منه خلاصا:

"أمي، علي عزت أستاذ قبل أن يكون قائدا، معلم وفيلسوف وليس عسكريا"

"إنه الوجه الآخر لدراجان، هذا عالم وهذا جاهل وفي النهاية كلاهما يتطاحنان وفي المنتصف تفقد نساء سراييفو الرجال والشوارع وحتى الخبز".

كان عمي قد هجر سراييفو إلى مناطق سيطرة صرب البوسنة، بانيالوكا تحديدا مسقط رأس جدتي، ومن هناك كان يساعد في الهجوم على قرى البوشناق، هكذا وصل لي وعلى قدر ما أغضبتني مقارنة الأستاذ بقاطع الطريق هذا على قدر ما فضلت الصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى باولا:

(إلى متى لن تردي علي، لو ظننتِ أنني سأترك الكتابة إليك قبل موتي فلا تظني، إلى آخر نفس أحبك سأكتب لك وكل أنفاسي تحبك، لا أدري إن كنت تدعين الآن أن أموت وهو أمر وارد على أية حال أم أن أنفاسي المحبة أشعرتك بحرارة تناسب هذا الجو. سأموت يوما ما وربما قريبا لكنني تمنيت دوما أن يكون بنيران صربية لا كرواتية، لا أدري إن كنت سَتَنْفينَ كحكومة بلادك أمر تدخلكم بالبوسنة ومحاربتكم لها واستغلالكم ضعفها أمام الصرب، لكنني حقا أرى أن تشبيهك ببلادك وتشبيهي ببلادي فيه بعض الدقة، لفترة ما تحالفت البوسنة وكرواتية ولسنين طويلة تعايش البوشناق مع الكروات كما تعايشنا سويا بالمعسكر حمت البوسنة كرواتيا ولو ليس بعمد فكانت حائلا جغرافيا دون الاجتياح الصربي، كما أنها قررت بإرادتها ألا تتحالف مع الصرب، ربما حفظ الكروات بعض الجميل وساعدوا البوسنة أحيانا في القتال كما فعلت أنت معي في زغرب ولكن الآن يتبعون سياسة مختلفة، إنهم يتحالفون مع الطرف الأقوى ويتركون الطرف الأضعف، إنهم يريدون تقسيم البوسنة بينهم وبين الصرب وينشئون حكوماتهم الخاصة في الأماكن ذات التعداد الكرواتي ولكني سأسالك سؤالا، ماذا لو فعلت البوسنة نفس ما تفعلون؟ ماذا لو تحالفت مع الصرب ضدكم؟ ترى هل كنتم ستملكون كل هذا الشاطئ على بحر البلقان أم ستكتفون بعشرين كيلومترا مثلما تكتفي بها البوسنة الآن -وكما أكتفي أنا بمجرد ذكرى-؟

تحياتي).

٢٢ نوفمبر ١٩٩٢

صباح آخر يبدأ قبل الصباح، إن الفجر في سراييفو غائم على الدوام، إما بفعل الطقس أو بسبب دخان القصف، لم يعتد الصرب قصف المدينة الأولمبية مقرنا رغم تأكدي من أنهم يعرفون بأنها أحد معسكرات القوى الشعبية، تفسيري كان أن ذلك خط أحمر وضعته لهم القوى الدولية وأنهم سيستثيرونهم بشدة إذا دمروا مدينة ألعاب كانت محط أفواج العالم من بضع سنين، إن قتل البشر أقل وطأة أحيانا من تدمير الحجر، وانفجار في سوق مكتظ بالمدنيين العزل لا يحدث تأثيرا كانفجار في صرح رياضي دولي ولو كان مخبأ لمسلحين، كنت أختلف مع أستاذ عزت دوما فهو يرى المجتمع الدولي أعور بينما أنا أراه أعمى تماما، أما داوود فكان يختلف معي أيضا بخصوص تفسيره لأماننا في المدينة الأولمبية بينما يتخطف الناس من حولنا في المدينة البشرية. يقول إن الصرب يطمعون بها، إنهم متيقنون من انتصارهم بالحرب ومتيقنون أيضا من أن سراييفو من الجبل للنهر لهم وستكون تلك المدينة أحد دعايتهم للعالم بعد إبادتهم للبوسنة، لا يكف داوود عن الواقعية التي تجعله يرى بعيون أعدائه بل ويفكر لهم ويدبر وربما الفاجعة الأكبر لنا لو سقط يوما بأيديهم فلربما خطط لهم من فرط ما قد درس أوضاعهم وأفكارهم على تلك الخواطر، أصحو كل يوم بين الدخان البعيد والإضاءة الخافتة في فجر باهت، يصلي بمجموعتنا (علي) بصوته الندي المؤثر فيتحول الفجر لشفق تتلون معه السماء، كانت فرقتنا قد تضاعفت ثلاثة أضعاف أي أن ثلاث فرق الآن تحت إمرتي، أما فرقة داوود فقد تضاعفت مرتين فقط فقد كان يستبعد من يشاء ويحصر اختياراته دوما في نخبة المتقدمين. كانت فرقة داوود للمهام الصعبة وفرقتي للمهام اليومية، تدعيم الجبهات، إيصال المساعدات، ضربات نوعية للحصار المفروض، أما داوود فقد كان مسؤولا عن ورش إنتاج السلاح والاشتباك المباشر.

هكذا كان استيقاظي موعدا لبدء تدريبات اللياقة واستيقاظه موعدا للمرور بورش السلاح والتي في الحقيقة هي ورش عادية يعمل بها عمال عاديون قرروا تغيير نشاطهم استجابة للحرب تطوعا، إن ظن داوود بإمكانية سقوط سراييفو مع إيمانه الكامل بتضحية كل هؤلاء الشجعان كان لغزا بالنسبة لي، من حق الصرب أن يظنوا بغرور أن البوسنة ستقع، لكن كيف لقائد جبهة يرى جنوده يقاتلون للنفس بعد الأخير ثم لا يثق بهم.

"ألا تثق بالله إذن؟"

"ونعم بالله!"

"إذن، كيف لا ينصر الله المؤمنين الذين أعدوا ما استطاعوا من قوة"

"لا يمكن لعبد تفسير إرادة الله. لو شاء الله عذبنا أو رحمنا"

"لكنه وعد الله ولا يخلف الله الميعاد"

"إن ذلك لهو البلاء المبين"

"ليستخلفنهم في الأرض"

"ويتخذ منهم شهداء"

وهكذا كان لا يمكن أبدا هزيمة داوود في الحوار كما لا يمكن هزيمته في النزال، لم يكن داوود يظهر إعلاميا بأي شكل ولو في التلفزيون المحلي، لحيته النامية وعيونه القاسية توحي بمقاتل شرس قد يغذي الصورة التي يقولها الصرب عن الخطر الجهادي، ليست صورة سيئة وقد قلت للرئيس قبل مرة:

"ولم لا نظهر وجه مقاتلينا الحقيقي؟! نعم نحن نقاتل ونجاهد، سيبث هذا الشجاعة في شعبنا والخوف في أعدائنا"

"لا تنس أن شعبنا ليس بوشناقيا فقط، كيف سيرى كروات البوسنة الأمر بل كيف سيرى صرب البوسنة الأمر!"

إن الأستاذ لا يفتأ يؤمن بالتعايش المشترك رغم ما يلقى من نكران الغرب الصربي والشرق الكرواتي. إن موقف الأستاذ لا يعجب أحدا، فها هي أمي تصر أنه متشدد وسيخرب البوسنة وها هو داوود يرى تلك الأفكار مجرد هراء وأن البشر بطبيعتهم عرقيون، كان داوود يذكرني بأبي أحيانا، نصفه القومي دون نصفه العاجز عن تحقيق ما يؤمن والذي استبدله داوود بنصف يحاول أن يفعل ما به يؤمن، ورغم اختلاف إيمان كل من داوود والأستاذ إلا أنهما يتلاقيا دوما في قبول رأي كل منهما، الأستاذ يقبل الرأي لأن هذه طبيعة رأيه أصلا، قبول المخالف. بينما داوود يقبل الرأي الآخر لأن الواقعية علمته أن رأيه ليس صوابا دائما ولا ينجح غالبا، وفي ذلك اليوم وحين قاربت الشمس على الشروق لتبدد الغيوم عن السماء وعن عقلي المنهك، اقترب مني داوود وأنا في تدريب اللياقة ليقول:

"يجب أن نذهب للرئيس في أسرع وقت"

خرجت من المجموعة وانفردت به بجانب جدار للتدريب وقلت:

"ما الأمر؟"

"الحصار الذي يخنق سراييفو يكاد يفقدها الروح"

"مخزون الطعام لا زال فيه ما يكفي لشهر آخر وتهريب الطعام عبر طريق غوارجدة ما زال قائما، نحن نؤمن ذلك"

"أنت لا تفهم، لم يعد بإمكاننا الاعتماد على ورش السلاح البدائية تلك ولو اعتمدنا عليها لن تكفينا الذخيرة. دعك من أن طريق غوارجدة ربما يغلق تماما خلال أيام، غوارجدة نفسها قد تسقط"

"ماذا تقول؟"

"هكذا تصل الأنباء"

لم أصدقه لوهلة وظننت أنه تشاؤمه المعتاد، لكنني أدركت الخطر. في الحقيقة أدركه كل يوم وأكذب نفسي أن اختناق سراييفو الكامل مسألة وقت وقتها سيدخلها الصرب دون أن يطلقوا رصاصا وربما قتلونا بأيديهم مجردة.

لو لم نكن قد متنا بالفعل.

"ماذا تنوي إذن؟"

لم يرد بل مشى نحو خيمته التي ينصبها بالعراء كرجل بري وتناسب مظهره وجوهره، دخلها فتبعته، كانت تعبق برائحة شرقية لعلها العود، وتعتريها الفوضى لكن المنضدة في الوسط كانت نظيفة قبل أن يبسط عليها تلك الخريطة الضخمة لسراييفو ويشير لخط باللون الأحمر رسم حديثا قبل أن يقول:

"هذا!"

نظرت محاولا الفهم وقبل أن أسأله قال هو:

"نفق بطول ست كيلومترات في غضون شهور هو الأمل الوحيد لسراييفو!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك فرق بين التشابه والتوافق، بين ما ينسخك وما يكملك، إن الصداقة علاقة تقبل كلا المعادلتين، أن يصاحبك ظلك هذا طبيعي، إنه أنت على كل حال وتستطيع فهمه ولو قصر يوما أو استطال. أما أن تصاحب ما يغلق فراغاتك وإن استطلت قَصُرَ فلا يصدمك وإن قصرت استطال ليكملك فهذا لعمري الأسمى بين العلاقات، إن داوود على النقيض مني أحيانا لكنني أشعر أحيانا أن هذا ما أحتاج إليه، حين يقصر بي اللسان كي أزجر أحدهم لا يتوانى هو بلسانه السليط. حين أتردد بين الخيارات كعادتي يتدخل هو فيحسمها، حين أحكي له قصة أو أمرا فهو لا يوافقني فيه بل يناقشني أحيانا لينصحني وكثيرا بغرض الجدال الذي يحبه، لكن دائما ما أستفيد أنا، لكن قبل كل شيء كان الحب... والحب شعور مجرد وينتقص منه إذا قلت السبب، إن الحب لسبب فيه شبهة مصلحة أما الحب دون

سبب هو المحرك دوما وراء كل صداقة أو عشق، لكن ماذا عن الغيرة، عن حب التميز بالرأي، عن مكابرة الاعتراف بالخطأ. ماذا والأهم إذا كانت العلاقة غير تبادلية ألا يدفع ذلك نحو الانهيار؟! لماذا يقنعني داوود ولا أقنعه؟ لماذا يثنيني عن نياتي ولا أثنيه؟! هل هو محق دائما أم يسعى للقيادة دائما؟ وفي كلتا الحالتين لماذا لا أترك له ما يريد؟ أم أن نفسي التي تلوم أفعالي تلوم أفعاله أو تلوم عدم لومي لأفعاله! هكذا كانت علاقتي بداوود معقدة دوما،كل منا يجبر الآخر على أن يشبهه ولا يشبهه، يتكبر فأتكبر، أتواضع فيتواضع فأتكبر فيتكبر وهكذا. لطالما حسبت أن الأمر تنافس عادي لكن الأمر مختلف. نحن لسنا زميلين أو قائدين. نحن صديقان مقربان وإلا لما كان مرآتي، ولكنني أشعر أنني لست مرآته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تتوقف الأحداث عن الحدوث، أتخيل عالما ثابتا لا يحدث فيه شيء، ورغم ما يبدو أن تلك فكرة مملة إلا أنها لمثلي مثالية للغاية فقد سئمت تلك التغيرات اليومية والتي تؤول دوما للأسوأ، يقول أستاذ عزت إن هناك فرقا بين الأسوأ والأصعب والصعب ليس بالضرورة سيئا. خذ عندك، فإن تغيير قائد أركان البوسنة في ظل هذا التوقيت لعمل صعب، الجنرال خليلوفيتش منذ عام يحرك القوات ويعرفه القادة وقد تعاملت معه شخصيا ووجدته كفؤا ومتعاونا، لكن أيضا وكما يقول أستاذ عزت ليس بالضرورة الجيد هو ما يصلح، فهذا الجنرال مثلا ضعيف الشخصية وبدأت الخيوط تتفلت من يده لا سيما شمال سراييفو حيث اللواء التاسع والعاشر وحيث مجموعة يوكابرازينا، لم أعرفه قط ولم أره. لكنه شخص صعب المراس هو وكل مجموعته المتطوعة بشراء سلاح والدفاع عن مناطقها، لكن كعادة التسليح الذاتي فإن اتجاهه قد ينحرف وما هو موجه لصدور الأعداء حول سراييفو قد يتحول ناحية الأشقاء في الداخل، هكذا أدى الجنرال ديلتش اليمين أمام الرئيس كضابط قوي الشخصية يمكنه السيطرة على كل جيوب المقاومة، وكنا نحن أيسر هذه الجيوب وأكثرها انقيادا فقد اعتبرت نفسي تابعا للرئيس مباشرة، كان داوود لا يعجبه الأمر ولولا كراهيته لبوكابرينزا لانضم لهم في انشقاقهم.

كان يقول إن اللامركزية هي الحل وحين ذكرته أن اللامركزية لن تمول فكرة النفق لا برجال ولا آلات ولا أموال فقد سكت. كان النفق ضرورة في كل الأحوال وحين عرضت الفكرة على الرئيس وافق بشدة وطلب مقابلة داوود، وكان داوود على العكس من مصطفى تماما فإن أظهر الأخير انبهارا فقد أظهر داوود ضجرا، إن داوود يكره الكلام وما يقرب إليها والسياسة لديه أقرب لمس الشيطان. كان يدرك من داخله أن الأستاذ عزت هو أفضل خيار ممكن لرئيس البوسنة في هذا الوقت لكنه لم يكن يظهر ذلك بل يظهر عدم اكتفائه الدائم من تهاون الرئيس، عند داوود إما أن تفعل شيئا أو أنك لا تفعل شيئا، لا يدرك أن الصمت أحيانا رد فعل معتبر وأن ليس كل ما بالإمكان أن يُفعل لا بد أن يُفعل. ولم يخيب الرئيس ظني فقد فهمه من اللحظة الأولى التي رآه بشعره الأشعث ولحيته وهندامه المضطرب، ولقد اختار الحديقة للقائه كمكان مفتوح لا يخنق هذا الرجل البري.

"أنت رجل مقاتل والساسة يحبون المقاتلين لكن المقاتلين لا يحبونهم"

نظر داوود أرضا وقال:

"لا أظن أنك تحب أن يقال لك سياسيا، إن لقب مفكر يليق بك"

ضحك الأستاذ وقال:

"كلنا مفكرون على أية حال لكن لعل اللقب كناية عن كثرة التفكير ولقد أرهقني حقا"

ثم سكت للحظة، وقال:

"أحسبك لا تقرأ لي كثيرا على أية حال"

"لكن عمر لا يكف عن ترديد ما تقول"

"وما رأيك؟"

"جميل لكن كيف التنفيذ ثم إن..."

بدا عليه التردد أن يكمل وقد أدرك أنه يندفع في كلامه كعادته، كدت أن أغير دفة الكلام لكن الأستاذ استحثه أن يكمل:

"اختلاف القول مع الفعل لا ينبئ بخير"

ضحك الأستاذ عزت واقترب منه بكرسيه عبر النجيل وربت على فخذه، وقال:

"إذن هل تظنني منافقا أم شاعرا؟"

"حاشا لله، بل مؤمنا فالله يقول يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون؟"

"هلا أعطيتني مثالا؟"

نظر داوود لشجرة قريبة للحظة ثم التفت للأستاذ كأنه وجد شيئا:

"إن هويتك الإسلامية واضحة. دعوتك لوحدة المسلمين أيضا واضحة، ثم ها أنت حين تتقلد منصب رئيس لدولة غالبيتها مسلم لا تعلن تلك الهوية بل تكاد تنفيها مقابل بوسنة متنوعة الأعراق لا دين لها"

"من الغريب ألا يفهم أصدقائي قصدي تماما كما لا يفهمه أعدائي"

تنهد الأستاذ كأنه يتذكر شيئا:

"حين سجنوني قالوا نفس دعواك بالمقلوب، قالوا تريد أسلمة البوسنة وأنت تقول لا أريد، والحقيقة أن هناك فرقا يريح الجميع إذا فهموه، هناك فرق بين ما هو إسلامي وما هو بوسني، بين ما هو أممي وبين ما هو عرقي. حين أوجه كلامي للمسلمين عموما هذا أمر مختلف عن أن أخاطب البوسنيين، ينبغي أن تعرف يا بني أن البوسنة كما هي على أطراف العالم الإسلامي جغرافيا فهي كذلك معنويا، لا يمكن أن تبدأ الوحدة الإسلامية من هنا"

سادت لحظة صمت ثم أردف:

"حين انتخبني البوسنيون رئيسا لا أنكر أن معظمهم كان من البوشناق المسلمين لكنني صرت رئيسا لطائفة من الصرب والكروات كذلك، إن مصلحة الجميع أن يتحد الجميع، إن التفتت سيضر المسلمين

أولا قبل كل شيء فالصرب لهم صربيا والكروات لهم كرواتيا، أما نحن فسنكون جزيرة معزولة في أوروبا ثقافيا ومنعزلة عن المسلمين جغرافيا، ربما نموت مختنقين ولا يشعر بنا أحد شرقا أو غربا".

أحسست أن داوود قد أضاء له شيء في عقله، سيختزن الكلام ثم يقتنع به لاحقا لكنه لن يظهر هذا أبدا، هذه طبيعته، بل سيغير الموضوع وكما توقعت قد فعل.

"الآن سيد عزت جئتك في أمر عظيم، لقد درست خريطة سراييفو جيدا وبناء على أماكن تمركز قواتنا وقوات الصرب وقوات حفظ السلام فقد حددت بدقة خطا بطول ستة كيلومترات يصلح كنفق سيكون آمنا تماما إذا ضاق الحصار أكثر من ذلك"

"سيضيق يا بني ولا مفر من النفق، حكى لي عمر عن فكرتك وأراني الخريطة وسأوفر لك كل ما يمكن لإنجاز المهمة تحت إمرتك لكن ذلك مقابل مهمة ستفعلها حين تنتهي. سأقولها لك من الآن قبل أن يقولها لك الجنرال ديلتش، لن تكون فك الحصار لكن حصار بعض قواتنا المتمردة في أطراف سراييفو، هل تعرفها؟"

تبادلنا النظرات ثم هز داوود رأسه موافقا.

١٨ ديسمبر ١٩٩٢

كانت الأيام التي تخلو من المناوبات على نقاط التماس مع الصرب معدودة، ومع ذلك كنا قد علمنا أن العدو لن يقتحم المدينة ولا يريد، على الأقل الآن، بل ينتظر سقوطها تلقائيا تحت وقع الحصار، بالفعل كانت سراييفو الجميلة تتهاوى، تظهر الندوب هنا وهناك وتعجز عن الحركة يوما بعد يوم وطوابير الخبز تزداد والمحلات التي تغلق تتجاور يوما بعد يوم بينما يسلي الصرب أوقاتهم بضرب المدنيين من خرج طالبا الخبز في الشوارع ومن طلب الأمن في بيته،كان العالم يشاهد ولا يطرف له جفن بل ربما أصابه التململ. أوروبا بالذات أثبتت وجها غير ما تدعيه لمجرد أن المعتدى عليه أقل أوروبية كما يدعون من المعتدي. رد المسلمين كان مخيبا للآمال كذلك، أي نعم. تتدفق إلينا الأسلحة الخفيفة الآن بشكل دوري وبعض الشجعان المتطوعين ومساعدات غذائية يهلك أكثر من نصفها في الطريق، لكن الحرب لن تنتهي هكذا ولو انتهت لكان النصر المظفر حليف الخصوم، كان الأمر واضحا، سنعتمد على أنفسنا ولم يكن الصرب يعلمون بعد حول أمر النفق الكبير، لم نلفت الانتباه للأمر قدر المستطاع حتى أن أهل سراييفو لا يعلمون.

كان يقيني أنه سيكتمل وسيكتمل في اللحظة الأخيرة حين تنغلق الأمور تماما فيهبنا قبلة الحياة، هذا فعل الله دوما، الابتلاء حتى الزلزلة حتى اليأس حتى نفاد الأسباب إلا هو، وحينها لا يخذلنا الله أبدا، كان إيماني مخالفا لإيمان أمي. أمي تؤمن بالجمال الضعيف، نعم هناك خير لكنه ينهزم. نعم هناك رب لكنه يتركنا. لم أعد أجادلها كثيرا حتى في يوم زيارتها الأسبوعي والذي هو أحد تلك الأيام المعدودة دون مناوبة، صرت أسمع ولا أتكلم. تحكي لي عن القصف والمعاناة، عن جيراننا الراحلين، عن التلفزيون المستقطب بين مغرق في عرض المآسي في أنحاء البوسنة وبين ما يتجاهلها تماما وكأنها هكذا قد تختفي. في تلك المرة كانت أمي تشاهد فيلما كرواتيا، وكانت تشاهده بالمعنى الحرفي فلم يكن من صوت تقريبا لكنها مشاهد لبشر يتضاحكون، دق قلبي حين ظهرت البطلة، لا لم

تكن تشبه باولا لكنها كانت كرواتية بل ومن زغرب كما تقضي ملامحها وهذا كافٍ كي لا أنظر، لكن أمي أشارت وهي تقول لي:

"انظر"

نظرت فإذا بجزيرة رائعة يقضي عليها البطلان أجازتهما، أشجار ورمال وبحر متدرج الألوان، كان مشهدا جميلا:

"من صغري تمنيت أن أرى البحر لكني لم أفعل، وعدني أبوك ولم يفعل"

في الحقيقة كانت البوسنة شبه حبيسة لولا شاطئ صغير جدا لحرمت تماما من أي ميناء والفضل في ذلك يعود لكرواتيا التي تستحوذ على شاطئ البحر الأدرياتيكي بالكامل:

"لكنك رأيت كثيرا من الأنهار يا أمي، ألا تكفيكِ أنهار البوسنة الأربعة؟"

"إن النهر عكس البحر يا بني، بينما يعني النهر الارتواء يعني البحر العطش"

"إذن هو أفضل؟"

تدخلت فيرونكا بالكلام وقد كانت تحضر حديثنا باستمرار.

"لا يا ابنتي، هذا هو الفرق بين المحدود واللا محدود، حين ترتوين بعد عطش تشعرين بشعور رائع سرعان ما ينتهي. لو فكرت قليلاكان السبب في الشعور الرائع هو العطش والسبب في نهايته هو الارتواء"

بدا عدم الفهم على فيرونكا بينما هززت رأسي معجبا بتلك الملاحظة فأردفت أمي:

"كلما تخيلت نفسي أمام البحر لا أرى شاطئه الآخر تخيلت أحلاما لا تنتهي وعمرا طويلا لا أرى آخره، درجات اللون تعني تقدما، وعلو الموج يعني ارتفاعا، ونسيم البحر يعني حركة مستمرة"

"تحلمين بالديمومة إذن، بالجنة ربما"

"حسب تصورك للجنة، إذا كنت تتخيل الجنة غذاء وشرابا فأنت تنظر لنهر"

"بل أتخيلها لذة لا تنقطع، تلك اللحظة بين العطش والارتواء، لا عطش قبلها ولا شبع بعدها، فقط ماء بارد يثلج الصدر في يوم حار إلى الأبد"

"وباولا للأبد ها؟"

ضحكت أمي بينما امتقع لوني. لا تكف أمي أحيانا عن مزاح ثقيل، لكنه لذيذ أحيانا. كدت أن أدخل في دوامة الأفكار لولا سؤال فيرونكا:

"من باولا؟؟؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى باولا:

(كما أنني أتذكرك حين تهب رياح الشتاء -كأنتِ في حالات سلمك وغضبك- وأتذكرك حين تتفتح الورود -كأنك تستيقظين- وحين تزقزق العصافير فرحا بذلك -كفرحها حين تنطقين- فإن مئة أسرة بقرية أجمتشي سيذكرهم مطلع العام الجديد بقتل ذويهم، لا بميلاد المسيح... أظن أنك تعرفين ولو لم يقولوا في تلفزيون تودجمان إن العالم يضج بالحديث عن ذلك لكنني أعلم لم تفكري بالأمر ولو للحظة، ولا ذبح مئة من مدنيين نصفهم من النساء والأطفال، ربما ستواسين ضميرك بأن رجال البوسنة لا يستحقون الحياة إلا ما يعجبك منهم أما النساء فلا يستحقونها بشكل عام، أما الأطفال فالأفضل لهم أن يموتوا ويكفي ما شهدوه من تلك الحرب. لكنني أقول لك إن رجال البوسنة سينتقمون وإن نساءهم تستحققن الحياة وأطفالهم سيرون مستقبلا أفضل، أتمنى أن أشهد هذا اليوم وتشهديه معي، لا أرغب في أن أعيرك لكني أرغب في أن أغيرك وأن يحنو قلبك ويتواضع عقلك وتعتذري لأنك كنت مخطئة، كما أنت مخطئة دوما... أريدك فقط أن تعتبريني رمزا لكل بوسني مظلوم وأنتِ مثالا لكل كرواتي ظالم وأن الهوى والقتل لا فرق بينهما.

تحياتي).

٨ يناير ١٩٩٣

الأيام تمر ولا جديد، إن تكيف الإنسان لمثير للدهشة، إنه يألف الشقاء كما يألف النعيم، وقد يمل من النعيم كما يمل من الشقاء، إن المعيشة في مدينة محاصرة يأتيها الموت من كل مكان كان عملا يوميا لكل سكانها لاسيما مقاتليها. تعودنا على العمليات اليومية وحتى ضحاياها، فكل سرية ترجع أو دورية تبدل مع أخرى على حدود التماس كنا نسأل بشكل روتيني من مات اليوم، وأضيفت مهمة النفق على عاتقنا وقد كانت البداية بطيئة للغاية، فالرجال لا يكفون ولا المعدات لكننا نمتلك عددا لا بأس به من المهندسين وأنا من بينهم أكدوا أن البداية هي الأصعب، بعدها يكون الأمر أسهل، هكذا بدأت سلسلة أخرى من الشقاء والروتين، لكن ما يزيد الطين بلة أن تشعر أن كل جهدك قد يكون بلا قيمة. إن كل شاب عمل في أعمال الحفر كان يضع نصب عينه التي لا ترى إلا الرمل والحجر صورة طريق تدخل إليه مؤن وأدوية لأهله وجيرانه، هذا باستثناء داوود ربما الذي كان يأمل في دخول أسلحة أحدث وأكثر، لكن كل ذلك كان في مهب الريح، إذ أن الصرب قرروا فجأة تقديم خط التماس ليصير بمحاذاة مخرج النفق المخطط له، كانت كارثة حقيقية... مجهود كبير يضيع وما من بديل. لم أكن أنا أكثر من أتلف الأمر أعصابه، دخلت على داوود في خيمته فوجدته يستشيط غضبا وهو يتشاور مع مهندس للبحث عن مخرج آخر، بخبرتي التي لم تثقلها التجارب اتفقت مع المهندس على رأيه، للأسف لا مخرج آخر! خرج المهندس واستلقى داوود على ظهره عاقدا كفيه مغمضا عينيه. إنه يفكر بعمق لكن لا يجد حلا، فجأة فتح عينيه وقال:

"لا بد أنهم علموا بأمر خطتنا"

ثم أشار للخريطة على الطاولة:

"لا بد أنهم يملكون خريطة كتلك الآن!"

وجز على أسنانه من الغيظ.

كنت أقدر غيظه، أولا جهد عملاق قد بذل من رجاله، ثانيا لقد ساوره الشك في هؤلاء الرجال والقادة. لكن أمر النفق ليس سرا صغيرا، إنه سر سهل افتضاحه عن طريق الخطأ البحت أو حتى عن طريق المراقبة وبث العيون وما أسهل ذلك. بدا اليأس الذي لم أره من قبل على وجه داوود وقال:

"لقد نالوا منا"

"لست أنت من تقول ذلك"

"قلتها لك من قبل، خطتهم تعتمد الموت البطيء، سد المنافذ... المصيدة... تخويف من الخارج ومجاعة في الداخل، ظروف نفسية رهيبة.

"لن نستسلم"

"هذا أنت"

"والرئيس والحزب"

"وماذا عن الناس! سيطالبون بالاستسلام، قد يتعاونون مع الصرب عليكم"

"كيف تنظر إلى الشعب هكذا"

"الشعب لا يلام في ظروف كتلك"

خفت من الجدل البيزنطي، سكتُّ، لكنه قام وعيناه تشيان بقرار مجنون، ارتدى الكاب وخرج دون سلام. لحقت به...

"أين تذهب؟"

"إلى رجالي في النفق"

"لماذا؟"

"سأسحبهم!"

وقفت أمامه سادا الطريق.

"ماذا تقول؟"

"ما سمعت"

حاول تجاوزي لكني منعته.

"هذا لن يحدث أبدا"

"بل سيحدث الآن"

ازداد عنفا وهو يحاول التخلص مني، كانت كثير من عيون الجند تراقبنا، لا بد أنهم يظنون أننا نمزح سويا.

"لا يمكنك أن تفعل، هل نسيت عهدك للرئيس؟"

"لا طاعة في معصية"

"أية معصية؟"

قلتها بصوت عال ودفعته بقوة حتى كاد أن يسقط، توقف عن المشي وكظم غضبه قائلا بهدوء:

"هل ترى حقا أن إكمال عمل قد يموت به رجال وتضيع بسببه كثير من المؤن من أجل خطة فاشلة ليس بمعصية"

سكتّ للحظة ملتقطا أنفاسي ثم أردف:

"دعك من المصيبة الكبرى، سيكون هذا النفق جسرا لهم إلينا وليس العكس، إنه حصان طروادة، ثغرة لا فكاك منها"

للحظة فكرت في رد ولم أتوقع دفعته المباغتة التي أسقطتني أرضا، لم أقم ولم ألاحقه وهو يخطو خطواته السريعة بل ظللت أتأمل نظرات الشباب البعيدة وبعضهم يضحك في تهكم، ثم صحت كي يسمعني:

"أعطني فقط مهلة وسوف أعطيك ذمة الله أن خطتنا ستنجح"

للحظة ظل سائرا ثم توقف والتفت:

"إذن فافعل يا أخي، وسأقبل ذمتك لأنه ما من حل آخر!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"ها هي قد قطعت الكهرباء ثانية، ربما لن تأتي إلا فجرا"

قالتها أمي بضجر بينما حمدت الله أن الجو ليس حارا، فتحت النافذة فتسلل هواء خفيف يحمل رائحة البارود كالعادة. لا أعرف كيف أشمها لا زلت وأنفي لم يخل منها قط، لم يكن ذلك ما يشغلني بل العهد الذي أعطيته لداوود نقلا عن الرئيس، أن يكمل النفق دون توقف وسيراوغ الرئيس سياسيا بأقصى ما يستطيع كي يستعيد مخرج النفق من سيطرة الصرب ودون أن يشعروا بالأمر. كنت أعرف أن الرئيس قادر على أن يفعلها وسيفعلها، لكن نظرة داوود غير الواثقة هي ما أقلقتني، لكنني أحمد الله أنني نجحت في كبح جماح ثور هائج مثله وأثنيته عن قراره الذي اتخذه عنوة حتى عن نفسه، اقترب نور خافت من ناحية غرفة فيرونكا وأمها، كانت فيرونكا تحمل شمعة تعكس ظلالا مخيفة وظلت دائرة الضوء تتسع حتى أحاطتنا جميعا.

"لو تأخر الانقطاع قليلا لاستطعنا النوم، لكن ما زال الوقت مبكرا، إن العشاء أذن لها من نصف ساعة فقط"

كان تناقضا عجيبا أشعر به إثر كلماتها وإثر هيئتها وإثر خروجي من استغراقي بالتفكير، لم تكن فيرونكا متدينة لدرجة أن تعلم وقت الأذان وفي نفس الوقت لم تكن متبرجة لهذه الدرجة. ربما كان ذكرها للأذان عفوا لكن هذا اللباس الشفاف هل هو عارض أيضا؟! هل ظنت أن الظلام سيكون حجابا مناسبا بيننا، نازعتني الخواطر وأنا أسمع بنصف أذن حوارا ما بينها وبين أمي وأتأملها دون إرادة مني فكادت تفتنني، كانت جميلة حقا، أليس الجمال البوسني أحق بالحب من الكرواتي؟ كانت معجبة بي، لا لبس في هذا... في الواقع كانت تهيم بي ولا تخفي نظراتها الجريئة ذلك، لكنها الآن تتحسس مواقع أكثر إيغالا في النفس، لا تكتفي بحبها بل ترغب في حبي، ترغب بي...

"هل صليت العشاء إذن؟"

قلتها فجأة وبدت خارج سياقها، فقد تجاوز حديثها مع أمي تلك النقطة بكثير، لكن بدا السرور عليها وهي ترد ممتنة لاهتمامي:

"طبعا، ألا ترى؟"

وأشارت لإيشارب حول عنقها، هل تقصد أنها لفته حول رأسها وصلت؟؟

"لكن اعذريني، هل صليت بهذا الفستان الشفاف؟"

بالطبع لم أتبين ملامحها جيدا، لكن خجلا ما أصابها مع قليل من الإعجاب بنفسها.

"نعم، نعم أنا أصلي وحدي لا يراني أحد"

"ولكنك تظلين مطالبة بالحجاب أمام الله"

ضحكت أمي وقالت:

"هل ترى ذلك حقا، الله خلقنا عرايا يا بني. هل حقا يهتم أن نقف أمامه بملابس نحن من نصنعها!"

لا تكف أمي عن الملاحظات الذكية ولا أكف عن مناوشتها. قلت وأنا أنظر لفيرونكا:

"لا. لكنه حيي ويستحق التوقير وليس من التوقير اللباس الكاشف"

لم تقتنع أمي وقالت لها:

"البسي ما تشائين. إن الله يرغب أن يرى الجمال الذي خلقه"

ضحكت فيرونكا وضحكت أيضا لكن أمي أردفت:

"أراهن أيضا أن الله يحب أن ينظر لحدقية فيرونكا. إن بها مزيج ألوان لم أره قط"

لم أكن لاحظت عيونها عن قرب من قبل وقد أثارت أمي فضولي حقا -ربما عن عمد- وعلى ضوء الشموع اقتربت كأنني مازح وقلت:

"هلا أريتني عينيك الجميلتين يا آنسة"

اقتربت كأنها مازحة هي الأخرى، لكني جديا حاولت أن أدقق لأرى الألوان لكن الإضاءة ظلت لا تساعد. أما هي فاقتربت أكثر وهمست بأذني:

"سألبس ما تقترحه أمام الله وأمامك"

قلت هامسا:

"المهم أن يكون ذلك عن حب"

قالت بصوت أكثر همسا:

"سأحب الله لو أحببتني أنت كما أحبك!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى باولا:

(سأتزوج! هذا ما يبدو عليه الأمر وتسير إليه الطرق، سأتزوج كما نصحني الجميع إلا نفسي، إنها تحبني بشدة رغم عدم حبي، إنها تراني بطلا رغم كل الضعف في نفسي، إنها أجمل منك وأشعر، إنها أخلص وأحن قلبا، إنها امرأة أخرى وللأسف لا أحب إلا واحدة هي أنت... أكتب إليك لا كما تتوقعين لأستثير غيظا أو همة لديك بل لأُعْلِمَكِ ولو تماديتُ قليلا لقلتُ لأستأذنك، نعم في الحقيقة أنا أتمنى أن تحسمي أنت قراري... أن ترفضي لأرفض حتى لو لا يعني هذا رغبتك بي أو تقبلي لأقبل حتى ولو عنى هذا أنها وسيلة للخلاص مني. عزيزتي باولا غالبا لن تردي وسأضطر أن أتخذ قراري بنفسي بعد أن اتخذته لي أمي واتخذه لي صديقي، لكن اعلمي أن أيًا كان علاقتي بأي امرأة فاعلمي أن ذلك لا يعادل علاقتي الأولى بامرأتي الأولى.

تحياتي).

١ فبراير ١٩٩٣

أخيرا قطعت الكهرباء، للمرة الأولى أتمنى ذلك كالمستجير بالرمضاء من النار، لم أحب قط أجواء الاحتفالات لظني الدائم أن الاحتفال أمر شخصي تماما، واحتفال عشرات بأمر شخصي يحتوي من النفاق ما يحتويه. إن نصف المدعوين لمائدة زواجي لم أعرفهم غير أن أمي وأم فيرونكا تفعلان، ولقد أتوا في زينتهم وفي تهنئتهم ليضيعوا وقتنا الثمين بدلا من احتفالنا بأنفسنا في تحيتهم والتعرف إليهم وكأننا نحتفل بهم، غير أني حمدت الله على ماهو أغرب. على أن زواجنا تم تحت القصف، لقد وفر علينا هذا الكثير ،كان ينبغي لنا أن نمر بحارات البوسنة واحدة فأخرى كما هي العادة من العصر إلى المغرب لكن صافرات الإنذار أخبرتنا أن البيت أكثر أمنا دوما، وهكذا اجتمع برج بابل من معارف لا يعرفون بعضهم وأمي تمر بينهم بسعادة بالغة تحيي من تعرف ومن لا تعرف وتوزع القهوة والبيتا، بينما جلست أنا أتفرج مع وصيفي، داوود بالطبع! كان شكله مضحكا ببذلة تضيق به وحذاء رياضي وشعر أشعث. بدا غير متناسق البتة وعدة مرات حسبت الكثير من الضحكات منشؤها نظرة إليه، لعلهم سموه الشيخَ ذا البذلة أو الهمجي المتحضر، حسنا لقد أفادني كثيرا أيضا فلم يجرؤ الكثير على الاقتراب مني وكأنهم يهابونه كحارس أو ما شابه، كنت أتبادل معه الكلمات رغم أن لا شيء لنقوله

نحن سويا ليل نهار، أما العروس التي ينبغي أن أطمع في حديثها فقد كانت في ركن بعيد تحيط بها عدة صديقات حسناوات. كانت نيتي شريفة دوما في التطلع إليها لكن نظري ظل يجول بين تلك الصديقات حتى زهدت أن أصل إليها وقبل أن أزداد ضيقا انقطعت الكهرباء لتعلن أن الليلة انتهت قبيل العشاء، قال أحد الضيوف ملاحظته:

"أهل العريس والعروس أسعد حظا فلن يغادر منهم أحد، إذ يسكنون سويا"

وبالفعل غادر الجميع وبقي أربعتنا، أمي نقلت أمها لفراشها ثم اتجهت للمطبخ واعدة إياي بعشاء ساخن، وبينما بقيت العروس موضعها كأنها في خدرها لن تخرج منه قط، قمت إليها... التفتت مسرعة لكني سبقتها لأرفع طرحتها...

"هل تريننني في الظلام"

"أراك بقلبي"

"أما أنا فأراك بأناملي"

تحسست وجهها ثم أمسكت يدها وقمنا لغرفتي بعد التجديد، وكأنها غرفة جديدة بأثاث جديد وسرير واسع، جلست عليه بينما ظلت هي واقفة:

"هل حقا تخجلين؟"

قلتها لها وأنا أتخفف من ملابسي، ظلت كما هي:

"أنت من تزوجني لا أنا"

ظننتها ستبتسم لكنها قطبت على ضوء الشمعة الوحيدة بالغرفة، اقتربت منها وبأصبعي رفعت خدها قائلا:

"لا وقت الليلة إلا للابتسام، أليس كذلك"

ابتسمت بإرادتها هذه المرة وجلست إلى كرسي المرآة، لحقت بها وظهر وجهي إلى جوار وجهها، كان شبه ما يتكون وكأنها حازت نفس ملامحي أو تحاول...

"لماذا تتأملني هكذا؟"

"ولماذا لا أتأملك، هل هناك وقت أفضل من ذلك؟"

"أما أنا فتأملتك في كل وقت"

"لا ريب أنك صرت تشبهينني"

"حقا؟"

قالتها بدلال، ثم أخرجت من فستانها شيئا... كانت صورة صغيرة لي.

"لا تفارقني أبدا"

"حتى وأنت تحوزين الأصل"

"لم أحزه بعد!"

باغتتني بقبلة طويلة، هرعت على إثرها أغلق الباب وأصيح بأمي أنا لسنا بجائعين قبل أن ألمح جانب بدنها العاري ناحية الشمعة، أرادت أن تطفئها بينما صحت بها أني أريد أن أرى بضاعتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لي وقد علا التراب وجهه:

"ألا تلاحظ أنك صرت أكثر ليونة، لو لم أكن وقحا لقلت أكثر أنوثة!"

"يا لك من وقح!"

استمر بالحفر بينما أقترب منه وأقول:

"بل صرت أكثر رجولة!"

أغمز بعيني غمزة ذات مغزى فيضحك ويقول:

"من الوقح الآن!"

لم يكن أسبوع قد مر على زواجي السريع، وهكذا مر أسرع فترة عسل كما يسميها الناس ولا أنكر ذلك، ربما لم أسافر إلى أي مكان بل حتى لم أغير محل سكني فقد تزوجنا في بيتي وفي غرفتي، لكن ربما سافرت إلى عالم آخر وسكنت أحضان امرأة كالقصر الفاخر الواسع الذي لا ينتهي أبدا. هكذا كان حب فيرونكا، أما حبي فظل كغرفة نومي تلك ضيقة غير مهندمة مغلقة غالبا وتفتح بحساب ومع ذلك احتواها القصر المنيف، لا أنكر أن باب قلبي صار مفتوحا أكثر ووقتا أطول، لا أنكر أن فيرونكا كانت تدخل وتخرج لكن للأسف ظلت ضيفة على صاحبة الغرفة التي لا تغادرها أبدا، لا تغادرها في خيالي وفي الواقع لقد غادرتها منذ زمن.

"هل تدرك لماذا قل صبري وزاد ضجري بهذا النفق اللعين؟"

مسح العرق عن جبينه وقال:

"لماذا؟"

"لأني أتخيل نفسي طوال الوقت جالسًا في حضن باولا على شرشف الفراش تداعب شعري بأناملها وأداعب أناملها بأناملي ونحن ننظر للنجوم في ليلة غير مقمرة"

"ستكون شديدة العتمة إذن، لا كهرباء يا صديقي"

قالها مازحا ثم استرجع شيئا:

"مهلا، هل قلت باولا؟"

"نعم"

"حسبتك تزوجت من فيرونكا"

"نعم هي تزوجتني لأنها تحبني، وتزوجتها بدلا لمن أحبها"

"ألا تخجل يا أخي!"

أطال في نظرته الغاضبة ثم قال:

"امرأة تعطيك كل شيء وتخونها على فراشها مع خيالك الأحمق المريض"

رفعت حاجبي لا أعلم بمَ أرد؟ فقد كان محقا، أنا أشعر بالمرض... نفسي عليلة بعلة معرفة العلة. إن ألمك لمعرفة المرض أكبر أحيانا من المرض ذاته، حين أعرف أني أستمتع بإذلال باولا لي وإذلالي لفيرونكا فإني أشعر بأني أتصرف بدونية أو شوفينية، أنا أنتقم من الشخص الخطأ وأحب الشخص الخطأ. أعلم ذلك وأتألم له لكني لا أغير من الأمر شيئا. بالأمس قبلت فيرونكا قدمي، تخيلتها باولا للحظة وتخيلتني وأنا أرفعها كي أركع أمامها أنا مقبّلا قدميها، لكني حين علمت أنها فيرونكا فقد اكتفيت بأن ربتّ على كتفها وداعبت شعرها كهرة بل حصان وفي، قلت لداوود:

"في اللحظة التي أخجل فيها ستخجل هي من عكسها، إن الأمر أشبه بجذب الحبل إذا أرخيته للحظة قل انجذابها لي أما الآن فهي في أقرب نقطة إلي"

"إذن فاحذر من قطع الحبل، وحبل الحب اليأس وقلة الاكتراث"

"هل أنت خبير في كل شيء يا داوود"

"إن للكون قواعد واحدة يا عمر، وإن قواعد شق نفق كذلك يصلنا لمكان بعيد هي نفس قواعد شق حياة جديدة تصل بناس آخرين"

كان النفق بالفعل على وشك الانتهاء، إن مهلة الرئيس تكاد تنفد ومعها قوة احتمال سكان سراييفو الذين يجوعون أكثر مما يشبعون ويضيئون بالنار أكثر مما يضيئون بالنور الفلورنسي...

"حياة جديدة يا داوود، حياة جديدة... فعلا، هذا هو المعنى الذي يمكنه تغيير كل شيء، تغيير قلبي الفاسد وعقلي المظلم وروحي الظمآنة وتغيير سراييفو المنهكة بالجوع والظلم والظلمة"

تنهد ثم رفع مطرقته من جديد ليهوي بها على صخرة قريبة مطلقا صيحته:

"الله!"

١ يونيو ١٩٩٣

ببطء لكن بانتظام كانت فيرونكا تعمر قلبي المهجور، أو قل المسكون بأشباح، إن الحب يصنع الكثير بما فيه الحب نفسه، لقد صنع حبها تيارا مضادا من الحب، كالمغناطيس يجذب مغناطيسا آخر لكن أقطابه كانت مقلوبة، تجاه باولا المغناطيس المنفر من كل أقطابه، كانت باهتة وفيرونكا زاهية. لم

يكن هذا كل ما يدهشني بل رد فعل أمي كان الأكثر غرابة، إنها لم تفرح لذلك... وهي من أرادت لي بزواجي خروجي من فخ باولا، لكنها ظنت أني أقترب من فخ جديد، إن سعادتي تلك لا بد أن لها ثمنا وهناك من سيطالب بثمن تلك السعادة كبائع الآيس كريم وقاطع التذاكر في السيرك، ولو كانت سعادتي بسبب فيرونكا فستطالبني بالثمن.

"لا تحبها يا بني. دعها تتحرق بحبك"

"لا تشكرها يا بني، دعها تتقرب بخدمتك"

"لا تهتم بها يا بني، فلتهتم بك دون مقابل"

إن فيرونكا التي فقدت الأب مبكرةكانت تبحث عنه، ولو وجدته لأعرضت عنه باحثة عن حبيب، نبتت في زمان الحرب لذا فهي ترجو بطلا يحميها ويثبت لها أنها أيضا بطلة، فإذا وجدته بحثت عن بطل أعظم، لم أقتنع قط بذلك وأعتقد أن ظن أمي ليس في محله تلك المرة وأنها متحيزة، لكنها تقول:

"هل تظن أني امرأة متوحدة ومخرفة، بالفعل أنا امرأة تخطت الستين، لا أتحرك كثيرا وأكتفي بمشاهدة العالم ولا يرهبني صوت المدافع وهذا أجدر بك أن تسمعني. أنا خارج قوانين القدر، لا أؤدي دورا وليست لي مصلحة"

أقول لها بدهشة:

"أديلسا، هل تطلبين مني أن أسيء لمن أحسن إلي؟ هل هذه أنت بالفعل؟"

"فقط أطلب أن لا تحسن"

"وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان"

"التعامل مع الرب غير التعامل مع البشر"

"أنت من تقولين ذلك؟"

"بل أنت من تتعجب لذلك؟ لقد أرغمناك على زواجك إرغاما"

"لم أدر أنها تستحق وقد أثبتت جدارة"

"إنها تستحق لأنك تستحق، فلا تفقد جدارتك"

"وما هي جدارتي؟"

"إنك أفضل منها وأكبر من أن تساويها"

"إذن ستيأس يوما ما من بلوغ الهدف"

"اجعل هدفها حبها لك لا حبك لها"

"وما الفارق؟"

"حين أحببت فضل الله أعرض عني وحين لم تحبك باولا ظللت تحبها، هل هناك أوضح من ذلك"

لم تكن أمي قاسية قط لكن القدر قاسٍ وناقل الكفر ليس بكافر، لكنها تقول:

"هل تظن أني قاسية وأنا من استضفت ماريا وابنتها ولولاي ما تزوجتك؟ إن المعرفة غالية وأنا أبذلها لك قبل أن تعرفها بنفسك متأخرا ٣٠ عاما. إن خير الأمور أولها وخير العلاقات ما لم تتغير والتوازن ليس في تساوي المشاعر بل في تناسب مواقعها"

"تريدني أن أبتزها حتى النهاية، أستعبد حبها؟"

"لم يكن نظام الرق بذلك السوء، كانت علاقة واضحة بين عبد وسيد وبطريقة ما كلاهما راض أكثر من سخط البطالين الآن والمعوذين"

"الكرامة أولا قبل العيش"

"هذا لأنك سيد، أما العبد فيقول العيش أولا قبل الكرامة!"

١٩ سبتمبر ١٩٩٣

كان النفق جاهزا تماما للتشغيل، وحياتي كذلك جاهزة للتعديل، في انتظار الضوء الأخضر. من ناحية كانت مفاوضات الرئيس الحثيثة حول وضع قوات دولية على جبل أغمان حيث موضع النفق تكاد تكلل بالنجاح، خاصة أنه لم يقل أبدا السبب الحقيقي لرغبته تلك. يكاد الصرب أن يوافقوا على الانسحاب مقابل تنازل الرئيس عن بعض شروط التفاوض حول الحرب، إذن هم فعلا لا يعلمون عن أمر النفق ويالله العجب، أما من الناحية الأخرى فقد شارفت فيرونكا أن تضع مولودتنا الأولى، إنها في الشهر السابع الآن. تقول أمي بقي شهران وأنا أقول أن تكون فتاتي بنت سبع شهور لا بأس، فهذا يعجل رؤيتها لا عصبيتها كما تصر أديلسا العجوز. كنت أغلب الوقت خارج البيت لكن صورة فيرونكا وبطنها المنتفخ لم تفارقني حتى في أحلك اللحظات صعوبة في نقاط التماس على الجبهة أو في النفق مع داوود الذي أعتبره مولوده البكر ينتظره كما أنتظر أنا مولودتي.

"ما سيدخل من النفق سيكون ابنك، هذا أكثر منطقية"

أقولها له مشاغبا فيقول:

"بل هؤلاء أحفادي. إنهم أبناء النفق وهو ابني البكر"

"هل تنوي حقا أن ترزق بأبناء آخرين؟، اعتبرني مستقيلا من الآن"

يضحك ويعبث بلحيته ويظل يضرب بيديه على جدران النفق حتى خشنت يداه، ثم يقول:

"متى إذن، متى؟"

من الضوء البعيد في بداية النفق لمحت من يجري لاهثا. إنه حسن، من مكتب الرئيس، هل يتهيأ لي أم أنه يحمل رسالة في يديه! أعطانا الرسالة والتقفها داوود وقبل أن أقرأها كان يقفز صارخا من الفرحة.

٢٦ أكتوبر ١٩٩٣

هكذا إذن افتتح النفق وهكذا تدفقت منه أول قافلة منذ أيام فاتحة باب الأمل لمن لا يستطيعون حيلة، ووعدنا الرئيس والمسلمون والعالم بالمزيد والمزيد، وهكذا إذن كانت زوجتي منذ الصباح في المستشفى المركزي حيث تتعثر ولادتها طبيعيا كما يقول الطبيب. إن عملية قيصرية في ظل نقص رهيب في كل شيء لهي مغامرة غير محسوبة وليس منها بد، تماما كما هي مغامرتنا الآن، التي تركت من أجلها زوجتي وابنتي وأمي وحماتي. وهرعت للتنفيذ، فقد حانت ساعتها والتي في حقيقتها قد تأخرت كثيرا، لقد اتخذ القرار بالأمس فقط وصدر مرسوم الرئاسة بتجريد قادة اللواءين التاسع والعاشر المتمردين من مناصبهما واحتجازهما وذيل المرسوم بنصه (استخدام القوة مسموح لو أن هناك ضرورة). بالطبع هناك ضرورة، إنها ليست نزهة بالمرة وإلا لما كانت الخطة أن نسلك نحن النفق من الداخل إلى الخارج ربما لأول مرة لمباغتة تلك القوة المارقة. دخل علي داوود وأنا أكتب تلك الصفحات وقد لاحظت قرب انتهاء الدفتر...

"هل هذا وقت الكتابة حقا؟"

"إنها خير سبيل للتنفيس عن القلق"

"إنها فيرونكا وخديجة القادمة في الطريق. أنا أقنعتك بذلك الاسم، أليس كذلك؟"

أضحك وأهز رأسي موافقا لكن سرعان ما أقطب قائلا:

"يراودني شعور حسن حولهما لكن تلك المهمة يروادني عنها شعور سيئ، الحقيقة لا أرغب أن أشترك بها.

ضحك وقال:

"حقا؟"

"نعم ولولا أنها بتكليف مباشر للرئيس ما فعلت"

"وما الفارق بينها وبين باقي المهام؟! لعلها أقل خطرا"

"لكن أقل وضوحا، هل تدرك أننا سنوجه بنادقنا لصدور بوسنيين آخرين؟"

وقبل أن يرد قلت:

"لأول مرة!"

رد بسرعة:

"ليس لأول مرة، هل نسيت انشقاق فكرت عبديتش في الشمال!"

لم تكن أنحاء البوسنة أحسن حالا من سراييفو بل لعلها أسوأ، ولعل الحصار المفروض علينا حمانا من مباغتات كثيرة لكني عدت للموضوع:

"هل يمكن أن نرجو الشهادة في مهمتنا تلك؟"

"إنهم خوارج يا أخي!"

قالها ببعض استهتار:

"لكنهم يصدون الصرب معنا، هل سننتصر حقا وبنادقنا ضدنا؟"

حرك ذراعيه لأعلى وقال بلهجة المتعجب:

"وهل نحن من خالفنا الأوامر وشققنا طاعة الجيش؟ إن هذا ما يضعف أكثر من قوتنا"

نظرت له مطولا ولم أجد ردا وجاء الصوت من الخارج أن حان أوان الانطلاق، أشرت إليه كي يذهب وكتبت تلكم الكلمات ووضعت الدفتر في جيبي الأيسر على القلب مباشرة وخرجت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أديلسا

٢٠١٠

ما زلت أكتشف كل يوم جديدا عن الحياة حتى وأنا أجاوز الثمانين، بالنسبة لعجوز مثلي عادة ما يتوقف الزمن أو يتباطأ متناسبا مع حواسها المتداعية وعقلها الراكد، وليس في ذلك خطأ إلا الظن أن الحياة هي التي تتداعى أو تركد فالحياة شابة للأبد، لا يكف الناس عن السؤال هل تغير الزمان؟. إنهم يشعرون بالتغير كلما مضى بهم العمر ومع ذلك لا يلحظون العلاقة، أنتم من تتغيرون وإلا فلتنظروا في المرآة، وأنا حين أنظر في المرآة أرى عيونا لم تتغير يكسوها طبقات كثيرة راكمتها الحياة وكأن تجدد الحياة يعني تقادمك أنت، وكأنها تغذي شبابها بتجاعيدك وجلدك الثخين، لكن ألم تتغير العيون؟ إن تغيرها كفيل حرفيا بتغير نظرتك للحياة فحين تكون منكسرة ترى الكون جلادا لا يرحم وحين تكون مؤملة تبدو لها الحياة كمتجر للزهور، والحقيقة أن الحياة مراوغة لأقصى حد، تجعلك تكرهها حتى تكاد تنهيها بيدك وحينها تتودد ثانية حتى تكاد أن تظنها الجنة ثم تعود من جديد كموجة بحر على الشاطئ تعلو ثم تسرع حتى تكاد تهرب منها لكنك تفاجأ بأنها التي تهرب للخلف، وهكذا يكون الدرس الأول عن الحياة، أنها متجددة كطبيعة وأنها مفاجئة كأسلوب وأن استغرابك لأحداثها هو ما يستدعي الاستغراب وإلا لما خرجت بذور الورد في جو الحرب، ولا استطعت العيش بعد أدمير وفضل وعمر، ولا استطاعت ميلا أن تكتشف بعد سبعة عشر عاما أنها (سنايدا)، كنت ألحظ التغير على خديجة طوال تلك الفترة، كان حبا لا شك إما لحبيب أو لصديق. فالحب أن تنشغل لغيرك دون أن تدرك ذلك وهكذا كلما زادت أسئلة خديجة أعلم أنها ليست أسئلتها، إنها تفهم شيئا أو تفهم أحدا ما شيئا، إن حماسها جدير بشاب وعودتها تعني مزيدا من الأسئلة. لكن الآن حان وقت الجواب، وهكذا استقبلت سنايدا في ذلك اليوم وكأنني رأيتها من قبل، مع تقدم العمر تزداد قدرتك على دقة التخيل لدرجة أن تتخيل فتاة صربية تبحث عن أصلها البوسني في قصة غريبة لكنها تتكرر. كانت جميلة لكن شاحبة، ربما قست معها الحياة أو حنت عليها فكلاهما صواب.

"أهلا بك يا ابنتي"

"أهلا يا جدتي"

"لا تتحرجي. إنه بيتك كما أنه بلدك، أليس كذلك؟"

أبتسم وأنا أقولها لكنها تتكمش أكثر بينما أنا أتأملها أكثر، تحضر لنا خديجة عصيرا. أدعوها لتشرب فتفعل:

"تعجبك سراييفو"

"أراها جميلة"

"لم تزوريها من قبل"

"ربما مرة، حين ولادتي!"

تبتسم لأول مرة وتنظر للشرفة، أعرف أنها لا تنظر لأي معلم وأنها تبحث في الوجوه أكثر من البيوت، لكن أنى لها أن تذكر ولادتها، هل تذكر إذن صوت القصف! سألتها مداعبة لكنها ردت جادة:

"هالني آثار القصف التي لا زالت"

"إذن فلتحمدي الله أنك غادرتِه في حينه"

"بل ليتني ظللت"

"لعلك لم تكوني لتوجدي اليوم!"

إن الإنسان جهول قاصر العلم لا يدري أي السبل أفضل لإرادته التي أصلا لا يعلمها، كثير من شباب سراييفو تضيق بهم الحياة ويتمنون الهجرة ثم ها هي سنايدا تتحسر، إن لم تحضر الحرب، كانت الابتسامة لا تفارقني وظللت أتأملها كتمثال وهي بالفعل جالسة كتمثال، لماذا تتحرج هكذا؟ هل من نظراتي خلف نظارتي الثخينة؟ لست شابا جميلا يستحقك يا سنايدا، أنا عجوز أستند لعكاز أرى فيك حكمة بالغة، جاءت خديجة بعد أن قامت ثانية لتحضر البيتا وسألتني وهي تجلس:

"يبدو أن ميلا تروق لك يا جدتي"

ابتسمت ونظرت لها مشيرة بعكازي:

"هل قرأت مذكرات أبيك"

"طبعا يا جدة عدة مرات"

"لا غرو إذن حماسك الشديد لميلا وبحثك عن هويتها بين آلاف الهويات المفقودة"

سكتت وقد بدا عليها عدم الفهم، فأردفت:

"إن ميلا نتاج الحرب لكن سنايدا نتاج نضال أبيك، الهوية البوسنية ولدت يوم ميلاد سنايدا في ذروة الحرب لا حين عودتها بعد السلام"

أشرت لسنايدا كي تأكل فتحججت بألم البطن جراء السفر، أخبرتها أن عليها النوم لكنها أرادت الانصراف:

"إذن ما خطتك القادمة"

"سأعيش مع خالتي"

"ألن تسافري لوالدك؟"

"أريد أن أصير بوسنية أولا قبل أن أصير مهاجرة بوسنية"

"معك حق، أنت حقا تروقين لي!"

تدخلت خديجة وهي تقول:

"ستدرس الإسلام يا جدتي أيضا، وسأعرفها على البوسنة شبرا شبرا. لقد اكتسب البوشناق شخصا جديدا"

ابتسمت راضية بينما سنايدا تقول:

"واكتسبت أنا حياة جديدة لكنها أصلا قديمة!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قررت أن أتقمص دور القدر قليلا، إن حياتنا وكل أحداثها تبدو لي خاضعة دوما لمن لا يعيشها، هناك كاتب يجلس في مكتب لا يتحرك ويكتب بيديه مصائر البشر، هكذا كنت غاضبة دوما من هذا الموظف إلى أن قررت التسامح معه لأنه لا بديل.

فقط اكتشفت أنه ليس عشوائيا تماما وأن هناك قواعد ما يتبعها وللعجب هذه القواعد تنبع من طبيعة الإنسان نفسه، إنها أحجية إذن. بطريقة ما الإنسان هو من يصنع مصيره لأن طبقا لطبيعته يتحدد قدره، لكن مهلا، ومن صنع طبيعته! إن الإلحاد فكرة غبية لأنها لا تصمد قط أمام سؤال صغير كذلك. لو كان أرقى ما في الكون وهو الإنسان لم يخلق نفسه فهل خلقته المادة الصماء حقا! هناك شيء خلف الستار وكونك لا تراه لأنك في مدرجات المشاهدين لا ينفيه، لكني قررت أن أتفرج وأتوقع كذلك الأحداث. قررت أن أحذر الأبطال من كل شر آت لأن قوانين المخرج لا تتبدل في أي من أعماله، لكن ما يتبدل هو نوايا البشر وأهدافهم، لا زلت أذكر صدمتي صغيرة في موت أدمير، وطبعا لا زال موت عمر القريب وقد أصابني الكبر على خاطري لكني لأول مرة أشعر بالارتياح، ليس القدر دوما يعاندنا. إن عودة ميلا بعد كل ذلك الوقت ألا يستحق حقا الإعجاب بيد القدر! أليست تشبه كثيرا قصة النبي موسى أو حتى النبي يوسف، إن الأمر يبعث على التأمل، لساعات جلست على السرير أستعيد كل لحظاتي مع عمر. إن عمر نفسه كان معجزة، منحة إلهية لامرأة عاقر، ثم إنه دوما ما كان يجرفه التيار ثم يعود لأحضاني، ثم إنه في يوم موته جاء من رحم زوجته ابنة تحمل صفاته وعينيه وشعره.

إن عمر لم يمت إذن في الدنيا أو الآخرة، أنا من حسبت الأمر كذلك وأنا من من لم ير نعمة الرب ولم ير سوى ابتلائه بل ونسبته لبشر آخرين، لا زلت أذكر عزت بيجوفيتش، هل كنت فظة معه؟! علام كنت ألومه؟! هل لأنه نفذ أوامر الأقدار؟ أم لأنه نفذها بناء على ما يؤمن به؟ ولماذا حرمته من بقية مذكرات عمر؟ هل أنا أنانية لهذا الحد أم أنه العناد أم أني أشفقت عليه من هم أن يذكره، لا أعلم ولكني أعلم أن الجميع سيسامحني أمام الله حتى فيرونكا التي قسوت عليها بجريرة آخرين ستفعل، ليس لأنني أستحق بل لأن ذلك قدر أيضا. فتحت الدرج جواري وبداخل علبة دواء لم يفتحها أحد قط أخرجت الورقة الأخيرة من مذكرات عمر، لم يتبق لي إياها بعد أن أخذت خديجة المذكرات الأولى والآخرة... هذه الورقة التي لم يظهر عليها أية كلمات، فقط بقعة دم كبيرة وأخرى صغيرة، تأملتهما ثانية، شممتهما واحتضنتهما. سمعت من ينادي علي... لم تكن خديجة أو فيرونكا، كان عمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهامش الأخير

يتسلى (تركوان) يوميا بمشاهدة القادمين لمقابر سراييفو والتعرف عليهم، حين قبلوه في وظيفة الحراسة هنأه الكثيرون لكنهم جميعا حذروه من الملل الذي سيعانيه في وظيفته تلك، ساعات طويلة يقضيها إما جالسا أو واقفا في نفس المكان ولولا اختلاف الفصول لظن أن العام أو الأعوام يوم واحد طويل ممل ولا ينتهي. هكذا قالوا لكنه كان أذكى منهم واستطاع أن يحول الملل لتسلية لا بأس بها. كان يسمي القادمين بأسماء متخيلة أو أسمائهم الحقيقية التي ربما يسمعها أثناء زيارتهم للمقبرة، كان يتابعهم ويتسمع كلمة من هنا ومن هناك ثم هو ينسجها في شكل قصة محكمة حول أي من المتكلمين، فصاحب اللكنة الروسية هو مسلم روسي قرر زيارة البلقان، كما أنه يريد الزواج من بوسنية، صاحب اللكنة الصربية أتى على سبيل الفضول وربما الإهانة كما يفعل بعضهم حين يتعمد البصق أرضا. حينها كان ينظر شذرا ويقترب منه وأحيانا يحتك به بكتفه عله يرتدع.

هناك أيضا صاحب اللحية والذي يتكلم بلغة يسمعها في الصلاة، لا بد أنه عربي ولعله من جماعة إسلامية أتى يزور أحد شهدائهم في الحرب، ومن المسلي أيضا كانت الزيارات الرسمية وإن كان يشوبها التوتر دوما لكن اقترابك من زعماء مرموقين لهذا الحد كان أيضا أمرا مثيرا، لكن الأكثر تسلية دوما لم يكن السياح ولا الزعماء بل المقيمين أصحاب الزيارات الدورية. لقد تعرف عليهم حقا وتعرفوا إليه بالفعل، يعرفهم ويعرفونه ويسلمون عليه، كان يتوقع مجيئهم أحيانا ويصدق فيه. إن الإجازات الرسمية دوما تحمل بعض هؤلاء، وكان من ضمن هؤلاء تلك السيدة الشابة وصديقتها الخجول وأحيانا أمها، كانت تبتسم له أو تلقي السلام حتى لو لم يكن منتبها، كان يقترب منها ويسألها عما تحتاج لكنها كانت فقط تتمنى له يوما سعيدا.هناك أيضا مجموعة الرجال أقوياءِ البنية حادي النظرات، لم يتبادل معهم سوى السلام، وكانوا أيضا قليلي الكلام فلم يعرف عنهم الكثير وإن خمن أنهم مقاتلون سابقون، أما أسماؤهم فداوود وعلي ومصطفى. وكانت المجموعتان وجهتهما الأولى دوما نفس القبر، لكن عادة لم تجمعهما الأوقات، وفي تلك المرة اجتمع الفريقان، جاءا سويا وبدا أن هناك نظرات متبادلة وراهن أن أحدهما سيفتح حديثا مع الآخر وقد كان، فلقد وقفت الفتاة كعادتها إلى القبر بخشوع من جهة وبجوارها صديقتها، بينما وقف الرجال من الجهة الأخرى، وبينما يتمتم كلا الفريقين بآيات القرآن والدعاء بدت نظرات بينية في الظهور، خاصة من ذي اللحية ضخم الجثة أصلع الشعر، وحين شارفت الفتاة على المغادرة ناداها:

"عذرا سيدتي، لكن هل أنت حقا خديجة؟"

انتبهت الفتاة وقالت مسرعة:

"نعم، نعم أنا"

"لا بد أنك لا تعرفينني"

وقبل أن يكمل بدا أنها تفكر أو تسترجع شيئا ثم تهلل وجهها قائلة:

"بل أعرفك أنت داوود، أقصد سيد داوود"

رفع حاجبيه وقال:

"ما شاء الله، كيف عرفتِني!"

"إن مذكرات أبي تغص بالكلام عنك"

بدا عليه التأثر وقال:

"أنت تقرئين مذكراته لكنك لم تريه، أنا من فعل"

"لكم تمنيت أن أراه!"

"ولكم تمنى هو، إنه يحبك أكثر من كل من رأى"

"وأنا كذلك، فأنا أتخيله ملاكا حارسا ولا يفارقني، إني أشعر به أكثر من أي حي آخر"

"إنه حي بالفعل، شهيد.. ألا تعلمين؟"

"طبعا ولكنه كان يشك في ذلك"

"لولا تضحية أبيك وغيره صدقيني حتى تلك المقابر كانت لتسلب منا، لقد مات دون أمة كاملة"

دمعة سالت على خدها وطال الصمت للحظة ومدت صاحبتها ذراعها لتتأبطها ففعلت، ومسحت دمعها وقالت وقد لمحت تأثر الرجل البالغ:

"ماذا تحسب؟ أنها دموع فرحٍ بمنزلة أبي لا حزنٍ عليه، ألم يقل الله (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)"؟

تهللت أساريره وقال:

"فصيحة كوالدك!"

أشرقت ابتسامتها فجأة كشمس من وراء غيوم وأشارت إلى إحدى الجهات قائلة:

"سأذهب إذن، إن قبر جدتي هنا في الجوار. سأمر عليه"

هز رأسه وأشار لها مودعا:

"تفضلي يا ابنتي، أنا أيضا لن أذهب بل سأزور قبر عزت بيجوفتش، إنه هنا لكنه في الاتجاه الآخر"

تفرق الجمعان واحتار تركوان أي الفريقين يتابع ثم قرر أخيرا أن هذا خارج نطاق عمله وعلمه، فقط تمنى للجميع السلامة وعلى الأقدار أن تستجيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتمات هامات:

- ليس غرض الرواية الحكم على شخص كعلي عزت بيجوفيتش ولا يمكن الاكتفاء بها في هذا الصدد، وإن كنت التزمت الدقة مع بعض التصرف في نقل أفكاره وأقواله وكذلك في كل الأحداث التي اشتركَ فيها.

- انتهت حرب البوسنة سنة ١٩٩٥ ورغم كونها حربا غير متكافئة وتخللتها بشاعات لا توصف لكن البوسنة استطاعت فك حصارها واستعادة بعض أراضيها حتى تم توقيع اتفاق دايتون للسلام، وهو سلام مرّ كما وصفه عزت بيجوفيتش لكنه خير من استمرار الحرب.

- قصة ميلا -سنايدا- معتمدة على قصة حقيقية بنفس الأسماء والأزمنة.

- شخصيات أديلسا وعمر وباقي الشخصيات المتعلقة بهما من وحي الخيال لكنها تعبر عن شخصيات نلقاها يوميًّا حتى في المرآة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

على الهامش
٢٠٠٣
أديلسا
١٩٤٥
ثلاث حكايات
عزت
١٩٤٥
هامش
أديلسا
عزت
١٩٤٩
هامش
أديلسا
١٩٦٤
عمر (البلوغ)
١٢ أغسطس ١٩٨١
هامش
(الكمون)
١٩٨٥
هامش
عزت
هامش
خارج الهامش

٢٠١٠

٦ إبريل ١٩٩٢

أديلسا

٢٠١٠

الهامش الأخير

تتمات هامات: